

كتاب الطلال



سلسلة
ثقافية
نهرية

ألوان من الحب

في الأساطير.. في التاريخ.. في القصص العالمي

عبد الرحمن صديقي



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير: رجاء النقاش

العدد ٢٣١ - صفر ١٣٩٠ مايو ١٩٧٠

No. 231 - Mai 1970

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر أنحاء العالم ٥٠٠ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة يريديّة : فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) - والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الأسعار المحددة

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الآلاف بريشة
الغنان هبة عنايت

عبد الرحمن صدقي

ألوان من الحب

في الأساطير • في التاريخ
في القصص العالمة

دار الهلال

الأساطير

- ميلاد ربة الجمال
- هيلين « فاتنة طروادة »
- شهر زاد

ميلاد ربة الجمال

في الصباح الباكر ، من يوم ليس كمثلته يوم في
وضاءة شمسهِ وحلاوة انسهِ ، في القرّة من أيام الربيع ،
في أروع شبابهِ وأجد اهابهِ ، وقد هبت أنفاس الربيع
الحارة العطرة المنعشبة على البر والبحر ، جعلت
الامواج تفور فورانا شديدا عجيب الشأن ، بالقرب من
جزيره اقريطش بين الثلاثة الاقاليم : آسيا وافريقيا
وأوربا ، في العالم القديم ، وجعلت كل موجة في سائر
أرجاء البحر المتوسط تعج وتضج ، وتنزو وتتوئب
بحافز لا عهد لها به من نزوع الشوق وجنون الحب .
ان الكون يتمخض الساعة عن آية يا لها من آية .

هي بضعة من جسم « اورانوس » رمز السماء ، في
اساطير الاغريق القدماء ، جيبها ناظم عليه من ابنائه
فهوت في الماء ، فلقحت منها - على حد قولهم -
الدأماء . ودار الفلك دورته ، ولم يزل البحر بهذه
البضعة الدامية تصفقها لجنته ، حتى استكمل الحمل
السماوي في اللجة المصطفقة مدته .

وهذا هو البحر ، في بكرة ذلك اليوم الاغر المائور
من أيام الدهر ، يجيش بالقرب من أرض يونان ، بالفا
من الجيشان أشده ، وقد تعالى على موجه المصطفق
زبدته ، وقبل أن يعلو النهار ويستوفي على البحر

شروقه ، تجلت من معجزات الخلق في اول الخليقة هذه
المعجزة الفائقة المرموقة ، فانشقت اللجة المصطفقة
الراغية ، عن حسناء معبودة الحسن عارية ، كأنها من
بياض الجسد ، صيغت من ذلك الزبد .

تجلت على ثبح الماء هذه المعبودة الحسناء ، آية
التناسق والروعة والرواء : مشبوقة القد ، معتدلة
الشطاط ، لطيفة التكوين ، مبتلة الاعطاف ، كاعب
النهدين ، محطوطة المتنين ، مستديرة الردفين ، املود
الساقين ، غضة الشباب ، بضة الالهاب ، رفاقة
البشرة ، بديعة الملامح والقسمات ، الى آخر ما لايسبق
اليه وهم ، ولا يعلق به خيال ، ولا يخطر وجوده على
بال ، من الحاسن التي لا يحصرها عد ، ولا تنتهي
عند حد . ولا بدع أن تكون هذه المولودة الخالدة
الاخيرة في صورة الخلق وجهارة الحسن على هذا
الكمال ، فانها طلعت حين طلعت لتكون قالب الجمال
ومثاله الاعلى الذي صيغ على غير مثال .

وكانت افروديت « وليدة الزبد » - وهو الاسم
الذي عرفت به ربة الجمال في صورة ذلك الجسد
المستغرق لصفات الكمال - عارية متجردة ، حين طلعت
من تلك اللجة المريدة ، عارية متجردة تجرد الوليد
ساعة ولادته ، وقد تلالات محاسر جسدها كاللؤلؤة
اليتيمة العظيمة عريت من صدقها ، حاشا تلك الدوايب
الفيئانة من شعرها الطويل الذهبي ، المسترسل على
ظهرها المرمرى ، ضاربا الى حقوئها ، ولو أنها شاءت
التستر به لسترها بغير عناء ، ولكن أعفاها أن فضيلة
الخفر والحياء لم تكن في تلك الازمنة الاولى معروفة
عند الاحياء .

ولم يشهد مطلع افروديت ربة الجمال ، وهى على تلك الحال متجرده الجسد عارية الاوصال فيما عدا أويها الازيلين : السماء والماء ، الا ثالث لا يخلو منه فضاء ، هو الهواء . هو ذلك الهواء الذى لايزال خافق الاحشاء ، دائم الانين ، منذ ذلك الجين الى ابد الابدان .

وما كاد الهواء يراها ، حتى ضمها واحتواها ، وقد هاج هائجه وجن جنونه لفرط ما بلغ منه هواها . وجعل الهواء الولهان يعتسف السواحل مندفعاً الى الاشجار المتفتحة النوار ، يهز الفروع ويهتصر الاغصان منتزعا اكاليل من ورقها العطر وزهرها الابيض الباهر ، يحملها مسافات من البر الى حيث افروديت عروس البحر ،

فيرتمى متنهدا عند قدميها ، وينثر ازاهير العرس الناصعة حوالها ، حتى صارت الامواج فى تلك الناحية ، أشبه بقطع الرياض الحالية . ولم يزل الهواء - من فرط الهوى - تتوجه الى افروديت زفراته ، وتتابع تنهداته ، فاذا افروديت تنساق الى تحت قدميها

الناصعتين صدفة لؤلؤية عظيمة بيضاء ، وقد نشرت شعرها الاثيث الذهبى فى شعاع الشمس الذهبى الوضاء ، ربة الجمال الفرعاء ، فانساب الصدفة بها فى لطف على الماء ، فى وجه هذه الانفاس المتنهدة المتصعدة من الهواء . ويظل الهواء العاشق كالمجنون يلاحقها بقبلائه ويدافعها بلمساته ، وهى على صدفتها مندفعة تمخر الماء فى لطف وخيلاء ، فتأخذ الماء فى طريقها قشعريرة للذبة ، ورعدة ممتعة وجيزة . وتظهر على لبعته ، فى حيثما مرت افروديت على صفحته رغبة منتفشة وموجات مرتمة ، وقد أقبل سكان الاعماق يتجمعون زرافات حول مركبها فرحين محبورين ، وقد

استخفتهم نشوة الطرب وأخذتهم هزة المرح ، افتتنا بهذا الجمال واحتفالا بمطلعه. فكانت الجنيات الحسان، من بنات آلهة البحر ، سابحات حول الصدفة العظيمة ممسكات حوافها بأيديهن الرخصة الناصعة البياض ، وكانت أفواج الخيلان من أبناء آلهة البحر - وأدناها سمك وأعلاها انسان - تتقدم بين يدي الموكب المائي نافخة في أبواق من الودع الكبار ، ترجع فيه الأذان في اثر الأذان ، وتعلن البشائر في لحن من أعذب الألحان وعلى مسافة قريبة ، تتوثب مسرورة محبورة ، دواب البحر من اطم لماعة الوبر ، حداد العيون طوال السبال، ومن دلافين طافية كالزقاق المنفوخة ، فضية الألوان منقوطة ، ومن ورائها جميعا حيتان البال ، ترسل الماء من نافورتى هامها ذاهبا في الفضاء ، وكأنها من ضخامة الجثث كسلانة في سببحا متثاقلة ، وهى من فرط فرحها تشق على نفسها في السبح جادة متحاملة وانسابت افروديت على هذه المصفاة ، تهفو بها أنفاس الهواء المتصعدة ، حتى ساحل اقريطش وكانت الجزيرة في ذلك الزمان لم يطأها انسان ، وانما هى برية أنف معطار ، وريفة الأشجار موشاة بمختلف الأزهار، وكان في استقبال المولودة الخالدة الجديدة للترحيب بمقدمها الميمون من قبل الارباب الخالدين الاقدمين جنيات الطبيعة الموكلات بتدبير الاطوار والاحوال ، المعروفات بـ « الساعات » وهن صبايا من الحسان الناضرات متشحات بحل من الزهر شتى الألوان والشيآت ولما كانت افروديت عارية الا من شعرها الاثيث العبق ، فقد اقبلت عليها الساعات باللباس والزينة فأفرغت احداهن عليها غلالة من الشفوف بديعة الألوان ، يبدو لابسها من

رقة النسج بين المكتسى والعريان . وعكف بعضهن على ذوائب شعرها الفينان الذهبى ، تسرحه وترجله بمشط ذهبى . ثم تضفره غدائر مسترسلة كامواج البحر اللجى ، ثم تضم الغدائر بعضها الى بعض باكليل من الورد الاحمر الجنى . وحمل بعضهن الاقراط الى اذنيها الصغيرتين والقبلائد حول جبهدها الاتلع ، والمرسلات على ترائب صدرها المصقول كالسجنجل ، وكلها من عجائب الحلى ، صنعة صناع عبقرى ، متخذة من الزمرد والياقوت واليزجد الاصفر القبرصى ، ثم كان الختام أن ادير حول حقويها وشاح مفصل بالدر والجمان ، جاذب للنظر ، مستدع لكوامن الفكر ، كأنما ينطوى على أسرار غريبة ونجاوى غامضة عميقة . وهكذا تولت « الساعات » تعليم الربة الشابة ما فى الزينة من فتنة ، وما فى بعض الحجاب من استهواء .

ولما أن اجتمع فى افروديت الى سحر الحسن المطبوع غوايات الحسن المصنوع ، نظرت ربة الجمال نظرة متطلعة خفية ، الى مرآة من الفضة المجلوة ، عرضتها عليها ، ورفعتها اليها وصيفة من وصائفها القائمات على خدمتها . فامتلات رضى عن نفسها واعتازا بحسنها الذى جاوز الفاية وفاق النهاية ، ولم تملك أن سرت فى اعطافها خفة وشاعت فى وجهها اشراقة الفبطة ، فعاد قوامها فى اختيال ، وابتمست فى دلال وتلفتت تتبين حوالها ، كيف يكون الافتتان بها والصباية اليها .

فراعاها ما استبان لعينها من غلبة سحرها على الخليقة بأسرها . فهذا الهواء مدنف ، قد براه الهوى وشفه الضنى ، وعند قدميها نسيم الصببا ، خائر القوى متهالك طليح ، كالخمار الطريح . وهذا البحر عجاج

متلاطم الامواج منذ ان اخذه مخاضها لا يقر له قرار
كالمقلب على الفضا ، لهفة عليها واسفا على فراقها .
وهذه الشمس مضطربة من الوجد ، كلما احست مغالبة
الاسى توارت خلف نقىاب من متراكب السحاب ،
واجهشت بالبكاء والنحيب حتى ليحول الثرى الجديب
من ابل دموعها وهو جد خصيب ، وهذا الفضاء الواسع
الجنيات يجيش بالوف الالوف من الذرات التى تدق
عن رؤية العين وتخف عن ان يقام لها وزن وهى مشوقة
الى التكثر والتطور ، وهذه الدواب والطير والزواحف
والهوام وسائر انواع الحيوان من الهولاء . الجسام
ذوات الاجلاد والجثث الضخام ، الى اللويبات الدقاق

الميكروسكوبية الوحيدة الخلية . هذه جميعا قد دب فى
اجسادها - لطيفة كانت ام كثيفة - هزة تنزع بها الى
التعانق والتواصل والتخفف من فيض الحياة الذى
حفلت به واكتظت حتى نسي الفرد منها ذاته فى سبيل
استدامة النوع .. وانبعثت من هذه الخلائق جميعا

غمغمة مبهمه لا يفصح بها اللسان ، ولكنها مستغنية عن
اللفظ مبينة من غير بيان ، لانها تهليل الحواس وتكبير
القلوب وهتاف الوجدان . وهى تتوالى على افروديت
من كل صوب وتحفها من كل ناحية ، فتحتويها من هذه
المشاعر المحيطة بها الحلقة حولها امواج حارة مسكرة .

ووقفت « الساعات » من جلال الموقف خاشعة
ساكنة ..

وأما ربة الجمال ، فقد لبثت جامدة فى وسط هذه
الحلقة المغناطيسية ، وقد اطبقت جفניה وغابت من
على شفيتها ابتسامة الدلال الفريرة الصبانية ، وتبين
عليها التأمل العميق والخلو الى النفس واستجماع

شوارد الفكر ، بعد ان بان لها سلطانها الرهيب وما يستتبه هذا السلطان من التبعات والامباء .

وبقيت افروديت لحظة على هذه الحال تنفّس - وهي كالنائمة الحاملة - من خياشيمها المتفتحة الخافقة ، ومن فمها المنفرج المنفعل ، أنفاسا عميقة مطردة في هذا الجو الحادث من حولها حتى تشبعت به انسجة جسمها وامتزج بكيانها .

لحظة من اللحظات القدسية التى تتقرر فيها المقادير الكونية ..

لقد صارت افروديت ربة الجمال الذى لا يضارع ربة العشق الذى لا يدافع .

وأقبلت « الساعات » فوضعن على هامة الربة الجميلة الجليلة تاجا لا من الذهب والجوهر بل من النور تبلور وتجوهر .

ومضين بحرا وبرابها والخلائق تضطرب وتجيش فى البحر والبر فى طريقها حتى أوفت الرحلة على غاياتها ، فمرجن بين يديها منفردات بخدمتها ، وهى فى الموكب الحافل من بهائها وفتنتها الى مشارف « الاولمب » منزل الآلهة ومتبوا عروشها .

هيلين فاتنة طروادة

منذ اكثر من ثلاثين قرنا من الزمان ، طلع على الدنيا من ارض يونان ، المثال الاعلى للجمال في صورة انسان ، وكان هذا الانسان : هيلين .

انها « هيلين » ابنة ملك اسبرطة « تيتداريوس » من زوجته الحسناء ليدا . وكانت الصبية اليونانية من الجمال بحيث زعم اليونان في خرافاتهم ، ان امها حملت فيها من كبير آلهتهم « زوس » نفسه ، حين زارها في شكل طائر رائع من جنس البجع الطويل العنق الابيض الناصع

في بلاط ملك اسبرطة اليوناني

ذاعت شهرة جمال هيلين في أنحاء بلاد الاغريق ، فلم يبق أمير من امرائها الا تطلع الى زواجها ، فاخذوا يتوافدون على أبيها ، وفيهم من غلب الابطال ببراعته في الحرب وشجاعته ، ومن فاق الاقران بقوة بأسه ووثاقة بنيته ، ومن اشتهر بطائل غناه وثروته ، ومن زانه رونق صباه ووسامته ، والكل تحذوهم فكرة واحدة وتستحوذ عليهم رغبة واحدة : الظفر بملكة ذلك الجمال النادر المثال . وكان الشيخ ملك اسبرطة يطاولهم ويماطلهم حتى اخذ يضيق صدرهم وينفذ صبرهم يوما بعد يوم وسرى التلذذ بينهم وظهر التملل منهم ، واوشك ان يستبد بهم السخط وتنفجر مراحل غضبهم !

ولقد تنبه « عوليس » ملك جزيرة اتاكا الى خطر الموقف ، وكان انفسد امراء الاغريق فطنة وابرعهم رأيا وامكرهم تدبيرا ، فاشفق على الملك الشيخ فقصده واسر اليه :

— يا عاهل اسبرطة العظيم ! ستحدث خطوب في بلاطك الكريم اذا انت لم تعجل باعلان قرارك في شأن زواج ابنتك هيلين . . ان الخاطبين في قلق يرداد يوما بعد يوم ، وانت اعرف بطباعهم من ان تتوقع صبرهم على هذه الحال .

— انت على حق يا عوليس الحكيم ولكن ما الحيلة ؟ لو انهم في مثل حكمتك ورجاحة عقلك ما ترددت في اعلان قرارى ، ولكنى مشفق ان انا اعلنت اختيار احدهم زوجا لهيلين ان اثر عليه حسد الآخرين وينشب النزاع وتحل بنا كوارثه اجمعين . فهل ترى لى من ذلك مخرجا يا عوليس — من أجل هذا وخيت لقاءك ، فان عندى لك المخرج ، وهو غاية فى البساطة واليسر .

— أحقا تقول ؟ هات اذن يا عوليس الحكيم . . وساكون طوال العمر شاكرا معروفا ذاكرا لك حسن سعيك

— يا ملك اسبرطة ! هذه نصيحتى اليك :

واقترب عوليس من الملك الشيخ وهمس فى اذنه ما ارتآه من الراى . وأخذت تنبسط من الشيخ المهموم غضون وجهه وتبرق اساريره . وما انتهى عوليس من همسه حتى كان مجيا الملك يطفح بشرا ، وكاد على تمسكه وزغم شيخوخته بطير فرحا . واستاذن بملها عوليس وانصرف والملك يردد :

« شكرا يا صديقى ، شكرا . ارى اليونانيين لم يكونوا مبالغين حين قالوا انك خير الناصحين »

ودعا الملك يرسله فانفذهم الى امراء يونان يعلمونهم

ان الملك قد اتخذ قراره فى شأن زواج ابنته هيلين ،
ويدعوهم الى موعد الاجتماع فى قصره لاعلانهم بالقرار .

وفى الموعد المضروب ، اجتمع فى قاعة العرش فى القصر
الملكى بأسبرطة طالبو الزواج من هيلين وهم خلق كثير
كلهم من بيت ملك كبير . وكانوا من عظم الرغبة وفرط
اللهفة يتساءلون فيما بينهم ، اذا كان قد نـمى الى
بعضهم علم ما انتهى اليه قرار الملك تينداريوس . فلم
يشف احد غليلهم . بيد انه لم يطل انتظارهم اذ طلع
عليهم الملك الشيخ ومعه ابنته هيلين بيضاء هيفاء ..
شعرها الذهبى بلون الشمس وعيناها النجلاوان لهما
زرقة البحر ، وقد أفرغ قوامها فى قالب من الجمال
لا يضارعه بين نساء العالم جمال . واستوى الشيخ
على عرشه وهى الى جانبه . ثم تكلم فحيا الامراء
الوافدين اطيب تحية ورحب بهم .. ثم قال :

— ساختار اليوم من بينكم يا أمراء يونان زوج ابنتى
ولكنى اطلبكم قبلها أن تؤدوا اليمين بين يدى ، فتصايحوا :

— أبة يمين يا ملك اسبرطة ؟ ومن منا تريده على
اداء هذه اليمين ؟

— أريدها منكم أجمعين .. أريدكم على القسم باغلق
الايمان الا يكون زواج هيلين مـثارا بينكم للتحاسد والاضغان
وأن تؤيدوا حق الزوج الذى سيختار منكم أيا كان
وأن ترعوا حرمة هذا القران وتدفعوا عنه كل عدوان .
ولما لم يكن من الامراء واحد الا وهو كبير الامل فى
أن يكون ذلك الزوج المحظوظ فقد هتفوا بصوت واحد :
— فلنقسم ..

وهنا أمر الملك الشيخ فجىء بالحملان والجديان ثم
قدمت أقداح النبيل للامراء الشبان . وعندها ارتفع صوت

الملك وهو قائم يتהל : « نشهدك يارب الارباب ، وانت ابنتها الالهة المنتقمة من الحائثين ، نشهدكم أجمعين على هذا القسم العظيم » .

وتلا ملك اسبرطة القسم وردده الامراء من بعده :
« نقسم بأغلظ الايمان ، ان نؤيد حق الزوج الذى سيختار منا أيا كان ، وأن نرعى حرمة هذا القران وندفع عنه كل عدوان » .

وكان لأصواتهم - وهم يرددون القسم فى قاعة العرش - دوى عظيم رنان ترددت أصداؤه وتجاوبت بها الجدران وعلى أثر ذلك نحرت الاغنام ، وشرب الامراء الشبان جرعة من أقذاحهم ثم اهرقوا ما بقى على أرض المكان وهم يرددون فى صوت واحد : « هكذا فليهدر دمه من حنث بقسمه »

وبعدها ساد السكون وثقلت وطاته على هذا الجمع من المحبين ، وهم سكوت يتطلعون الى الملك الشيخ وقد تعلقت أبصارهم وقلوبهم بشفتيه وأخيرا قال :

- أيها الامراء ، انكم جميعا من شرف القسدر وكرم العنصر وعلو الهمة والشجاعة ، بحيث يشق على المفاضلة بينكم واختيار واحد منكم أكون به أعجب منى بغيره فأننا من أجل هذا أدع الخيار لك يا هيلين ! فاختارى زوجا من ترين .

ولما أتم الملك تينداريوس مقاله رفعت «هيلين» الفاتنة ' الذهبية ، وأجالت عينها بزرقتها اللازوردية فى أنها الامراء ، وهم قائمون تجاهها يتابعون من الشمس المتحركة شعاعها ، وكلهم
... شفاهها .

وبدأ على هيلين الحيرة ، فأعادت الكرة ورددت الطرف

ثانية وثالثة فى صفوف الامراء ، فكان فى ذلك التكرار زيادة من حيرتها فى الاختيار . واخيرا وقفت بنظرها الحائر عند أحدهم والتفتت الى أبيها تقول فى صوت خافت : « اخترت الأمير منلاوس »

كانت هذه كلمة هيلين وقد لبث الجميع من دهشة المفاجأة مبهوتين وكان أشدهم مفاجأة وأعمقهم اندهاشا «منلاوس» نفسه . فهو لم يكن ابرز الحاضرين شخصية ولا أكثرهم ثراء ولا اقواهم بأسا ولا أجملهم رواء . وكان موقفه من هيلين كلما رآها اقرب الى العابد منه الى موقف الخاطب . ولكن هيلين قالت كلمتها والمشية فى ذلك مشيتها .

ولقد ظهرت بوادر الاستياء على الامراء ولكنهم ذكروا اليمين التى اقسموها واللعة التى استنزلوها على الحائشين واحتفلت اسبرطة بزواج هيلين وأقيمت الاعراس بين الاناشيد وتحايا الاشعار واکاليل الازهار . فلما أن أصبح الصباح أعلن الملك الشيخ انه نزل عن العرش لصهره بمثابة الهدية لعمره . ولم تمض سنوات حتى كان الشيخ قد مات تاركا على عرش اسبرطة صهره منلاوس والملكة هيلين وابنتهما الصغيرة هرميون والجميع فى وئام وسلام .

فى بلاط ملك طروادة الاسيوى

كان فى تجاه اليونان فى البلاد الواقعة شرقى بحر ايجيه على الشاطئ الاسيوى مدينة عزيزة الجانب شديدة المنعة قوية غنية هى طروادة . وكانت المدينة واقعة بين جبل « ايدا » الشامخ والبحر ، قائمة على رأس ربوة تشرف على الاودية الخصبة الناضرة عند سفحها ، وتحكم كالسيدة الأمرة الناهية فيمن حولها .

وكان الجالس وقتئذ على عرش هذه المدينة العظيمة « بريام » وهو في قصره المرد الفخم سعيد باستقرار ملكه الضخم ، فخور بأولاده الخمسين ، وكان أشجعهم « هكتور » وأجملهم « باريس » .

وفي ذات ليلة رأت الملكة « هيكوبا » في منامها قبل ولادتها « باريس » حلما عجيبا . . رأت نارا تنسدلح من بطنها ثم أخذت هذه النار تعظم ويمتد لهبها الى المدينة وتستشرى فيها حتى حرقت طروادة كلها . وهبت الملكة من نومها مدعورة وقصت على الملك رؤياها فجعل يسرى عنها وهو في دخيلة نفسه ليس أقل انزعاجا منها . فلما أسفر الصبح دعا بالكهنة العرافين فتوافدوا واحدا بعد الآخر وهم جميعا كهول قد شابت لحاهم الطوال وشعورهم المسترسلة . فلما احتشد جمعهم واكمل حفلهم دخلوا الى قاعة العرش حيث كان الملك والملكة في انتظارهم فسلموا بالتعظيم ووقفوا في انتظار الامر مطأطئين رءوسهم ضاربين بالاذقان صدورهم وأذن الملك لهم بالجلوس في حضرة وأبلغهم السبب الذي استقدمهم من أجله . ثم دعا الملكة أن تقص عليهم رؤياها .

وأصغى الكهنة الى تفصيل الرؤيا في صمت مطبق وسكون مطلق . فلما فرغت الملكة هيكوبا من روايتها . قام أكبرهم سنا وقال بصوته الخافت وهو ينفض رأسه الأشيب أسفا : « رؤياك أيتها الملكة رؤيا محزنة . . فالولد الذي سوف تلدين سيكون سببا في حريق عظيم يدمر طروادة ، ذلك مبلغ علمي » . وقام على الأثر سائر الكهان فرددوا ما قاله كبيرهم وهم يهزون رءوسهم المبيضة أسفا ثم أخذوا ينصرفون .

فلما صار الملك والملكة وحدهما وخلت قاعة العرش الا منهما أجهشت الملكة بالبكاء . وكان الملك حزينا مهموما

ولكنه أقبل عليها يحاول التسرية عنها . فلما هدا روعها قليلا سألته عما هو فاعل ؟ فقال :

— نحن — بحمد الآلهة — غير محرومين من الولد وعندنا منهم الكثير . فلا بأس إلا يكون لنا هذا الأخير فليس من الصواب في شيء أن نحصر عليه إذا كان حريق طروادة على يديه .

— وإذا كان الكهنة مخطئين ؟ وإذا كان الوجه في تعبير الرؤيا غير ما ذهبوا اليه ؟

— كلا ، الكهنة لا يخطئون وقد رأيت كيف هم على هذا التأويل مجمعون . لا ، لا ، لا يمكن أن نحتفظ بالوليد . سيحمل عند مولده إلى الغابة البعيدة ويتترك هناك وبهذا تكون قد كفلنا الخلاص لمدينتنا .

— ولكن ماذا يكون أمر الطفل المطروح في الغابة ؟ انه هالك لا محالة وتكون نحن سبب هلاكه .

— اننى المسئول عن هذا البلد والواجب يقضى على أن أقدم بلادي على أولادي . أن فجيعتى في ولدى واقعة على وحدى . أما الوطن فالفجيعة فيه تشمل الاجداد والابناء والاحفاد والاجيال المقبلة جميعا .

ولم تجد الملكة الحزينة المسكينة غير التسليم . ولما وضعت وليدها لفته في قماط من الخز المطرز ودثرت بدثار من الصوف ذى الوبر وأودعته سلة لطيفة كانت قد أوصت بصنعها ، ثم انحنى عليه وقبلته فى لهفة مرات ودفعته الى الملك وهرولت وقد تبادرت عبراتها وأغلقت عليها باب غرفتها تبكى وليدها وتفكر فى مصيره .

واحتمل الملك الأمير الصغير وأرسل فى طلب راع من رعااته الامناء وناول الوليد قائلا : « هذا الطفل يجب هلاكه فأحمله الى جبل « ايدا » بعيدا عن المدينة وعن العمار

واتركه وحده على القمة ولا تعد اليه . هذه مشيئتي ،
وانفذ الراعى مشيئة الملك وعاد الى كوخه فى سفح
الجبل . ومنذ ذلك اليوم تكررت على نظر الراعى ظاهرة
غريبة ، فهو يرى من بعيد دبة من الدبة تزقى الجبل فى
صباح كل يوم وتهبطه فى المساء . وقد بلغ من الراعى
العجب ان دفعه الفضول ذات يوم الى ان يرقى الجبل
خلفها ويقفو أثرها ، فاذا الدبة تبلغ القمة وتقترب من
السلة المطروحة وترخم عليها لترضع الطفل ثم تعود
ادراجها . وقد عجب الراعى مما رآه وكان لا يكاد يصدق
عينيه . ولما عاد الى كوخه قصص على امراته القصة ،
فقالته وهى لا تمالك نفسها من العجب :

— هذا من خوارق المعجزات وهو دليل على ان
الآلهة تريد خيرا بالامير الصغير ، فينبغى أن لا ندعه يهلك
وصادف هذا الكلام هوى فى نفس الراعى ، فذهب
تحت ستار الليل الى قمة الجبل وحمل الطفل فى سلاته
الى الكوخ . وقام هو وامراته على العناية بأمره على انه
ولدهما وقد أفعم بالسرور قلباهما ان يكون لهما ولد
بهذا الحسن والرواء .

وشب الفلام على اعتقاد انه ابن الراعى وقد اطلق
عليه اسم « باريس » . وكان حين كبر يتولى عن أبيه
رعى الغنم ، كما كان يخرج احسانا للطرد ويعود الى
الكوخ محملا بالصياد وكان يزيد مع الايام ريعانا
وحسنا ويشتد عنفوانا وبأسا ، وكان عليه من نبالة
السمت ووجهة الشارة ما ينم عن الامارة ، وكانت
تعرض له الفتيات من بنات الرعاة وهو معرض عنهن
ولم تقع فى نفسه الا الصببية « اينون » ذات القلب
الحنون التى كانت تسكن على جبل « ايدا » فلقينته فى

صباح يوم رائق رقيق الهواء شفاف النور . وكانت مثل
غصن الزنبق في ثوبها الابيض تقطف الزهر البرى وتجعل
منه كل زينتها فهو الطاقة في يدها والتاج لشعرها
والحلية لمنطقتها وكانت وسط هذا الزهر العميم تظفر
وتغنى بصوتها الرخيم . وهكذا لقيها « باريس » أول
ما لقيها فاستمالته وتولع به قلبها .

في وليمة الآلهة على جبل الاولمب

تروى الاساطير ان آلهتهم كانوا في معظم ولائهم
يغفلون دعوة الهة الخلف والشقاق « ايريس » حتى
لا يعكر وجودها صفو اجتماعهم وكانت « ايريس » تنكر
ذلك منهم وتضطفنه عليهم وتأخذها لهم حمية وحزازة .
وقد بلغ الى علمها قيام حفلة شائقة من ابهى حفلات
الامراس دعيت اليها الآلهة جميعا ولم يستثن من
الدعوة سواها فانتهزت اجتماع الآلهة في قاعة الاحتفال
حول المائدة وألقت عليهن فحاحة ذهبية منقوشا عليها :
« الى أجمل النساء » . فكان طبيعيا أن تدعى الحق فيها
جميع الحاضرات ، ثم انتهى الامر بأن انحصرت المنافسة
بين « افروديت » و « هيرا » و « بالاس اتينا » وقد
طلبن الى كبير الآلهة « زوس » أن يكون الحكم ولكنه
كان أحكم من أن يقضى بينهن لاسيما وفيهن « هيرا »
زوجته ، وأشار عليهن أن يذهبن الى جبل « ايدا »
بالقرب من طروادة فيحتكمن الى ابن ملكها الأمير الشاب
« باريس » الذي يرعى هناك الاغنام جاهلا شرف محنته
وما كان أشد تعجب الفتى ودهشته ، حين مثلت أمامه
وتجلت قيد عيانه هذه الصورة الرائعة للربات الثلاث
وعندها أقبل عليه « هرmez » وكأنه يطير من خفة قدميه
المجنحتين . وقال له في لطف وإيناس كأنه يعرفه منذ

سنين طوال : « لا تعجب مما ترى يا د باريس
هؤلاء الربات الحسان انما هبطن من سماء ا
ليحتكنهم الى البشر ايهن ابرع حسنا . وقد اختاروا
الالهة « زوس » لتكون الحكم ، فمن وقع عليها انا
بعد التأمل والروية فامنحها هذه التفاحة الذهبية

فجعل الفتى يتأمل الربات الحسان الثلاث وهو
لنفسه حتى يستجمع حسه ويصدر حكمه ، فتقــ
احداهن نحوه ولما صارت على خطوات منه أسر

— تعال يا ابن ملك طروادة ، فانا ربة المعرفة و
وسيكون عليك أن تكافح عن بلادك وتدفع الصد
أسوارها وتحمل ذمارها ، فاذا أنت منحتني التذ
الذهبية جعلتك من أهل التدبير والمعرفة ، وكنت
بلادك ونصيرتك على سائر المحاربين الابطال .

قالت « بالاس اتينا » ذلك ثم تراجعت الى
وتقدمت « هيرا » حتى صارت في محاذاته وقاله

— انا زوجة « زوس » ابى الأرباب ، وانت ا
وابن ملك كبير ، وفي مستطامى اذا أنت قضيه
بالتفاحة ان أجعلك ملكا على آسيا كلها واضع في
خزائنها وأجعل كلمتك فوق ملوك الارض أجمه
وأخيرا اقبلت عليه « افروديت » واقتربت منه
لاصقته ، وقالت في دلال بصوتها الرخيم :

— انظر الى « افروديت » ربة الحب والمتعة .
انت واجد في السيادة على الخلق او احتوائك
الارض ؟ انك أمير ، وابن ملك كبير ، ولا ينقصك
من علو النسب وشرف المحتد . فاذا أنت جعلت
نصيبى التفاحة ، جعلت من نصيبك « هيلين »
نساء الدنيا ، فعرفت طعم السعادة التى لا تعدلها

وكان في هذا العرض ما يغرى الفتى «باريس» الذي كان يقضى أيامه في رعى الغنم ولياليه مع بنات الغاب مستسلما لحياة الدعة بعيدا عن مطامع الملك ومنافسات أهله . وزاد في اغرائه ما تشييعه « افروديت » حولها من جو مشبع بالسحروالاشواق والنشوة الحسية الغرامية

وهكذا لم يسع «باريس» الا ان يلقي اليها بالتفاحة الذهبية ومنذ ذلك الحين تغير حال « باريس » مع فتياته ومنهن « اينون » التي كانت أحظاهن عنده فكان مع بقاء اتصاله بهن قليل الاقبال عليهن ظاهر الفتور نحوهن وصار يكثر من العزلة خاليا بنفسه يفكر في السبيل الى العودة الى مكانه بين أهله .

واتفق ان اقيمت في طروادة وقتلد مباراة من تلك المباريات الرياضية التي جرت العادة باقامتها في كل عام ، فاعتزم الفتى أن يشارك فيها . وودع الراعى وزوجته وكان الوداع شديد الوقع عليهما ، كأنمالقى في روعهما أن في الأمر سرا وانهما هذه المرة يضمنانه للمرة الاخيرة الى صدريهما ، وكذلك كان وداعه للصبية « اينون » وداعا أليما فاضت له دموع الفتاة مدرارا وتصبعت زفراتها نارا وقد وقر في نفسها انه فراق الابد .

وكان قد اعلن في انحاء المملكة دموع الشبيب الطرواديين الى المساهمة اجمعين في المباريات ، فجاءوا افواجا دون تفرقة بين الاغنياء والفقراء ما داموا جميعا اصحاء البنية اقوياء . وكان فيهم من يعرفهم شهود المباريات السابقة اشتراكهم أكثر من مرة ، كما كان فيهم خلق كثير لا يعرفهم الجمهور لدخولهم المباراة للمرة الاولى . ولما بدأت المباراة كان بدؤها سباق العدائين وكانت جموع الناس تهلل لمن يعرفونهم كلما مروا بهم

هاتفين بأسمائهم . ولم يكن « باريس » من هؤلاء فلم يعرفه أحد الثقات ، ولكنه لم يمض القليل حتى ظهر تفوقه على المتسابقين فأخذ المتفرجون يسأل بعضهم بعضا : « من يكون ؟ » . فلما انعقد له النصر آخر الأمر قاده المكلفون بالمباراة الى المنصة الملكية فظهر له الملك رضاه وأثنى عليه ، وهشت الملكة في وجهه وبان سرورها به وانجذابها اليه . ثم سئل عن اسمه ، فقال في غير تردد ولا افتعال :

— أنا الأمير « باريس » بن بريام ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها . فلما ظهرت عليهما الدهشة ، اتاهما في الحال بالسلة والقطاء ذى الطراز . وكان قد احتفظ بهما ، فتلقى الملكان ابنهما الذي كان في عداد الأموات في أحضانهما ، وصاح المنادي على الملا يعلن اسم الفائز: « باريس » ابن ملك طروادة وابن هيكوبا ملكتها .

وتناسى الوالدان قصة الحلم وتأويله حين أبصرا وليدهما يرد إليهما فتى بلغ مبالغ الرجال ، قوى الأسر وفى النشاط رائع الجمال قد فاق على أقرانه واترابه وهو بعد في ريعان الشباب .

وهكذا عاش « باريس » في كنف والديه مع سائر أخوته وأخواته ، وأخذ يتأدب عليهم ويتلقى عنهم حتى انسلخ عن عادات الرعاة الفقراء ، وصار مسلكه في كل شيء سلوك الأمراء . وعندما فكر والده الملك أن يوفده في بعض الاسفار ليفيد منها المعرفة والخبرة .

ولما كان الملك منذ مقتل أبيه على يد العملاق هرقل وسبى أخته الصغيرة وارغامها على الزواج من ملك جزيرة سلاميس غير مطمئن البال على مال أخته بعد أن تواترت الاخبار بما تلقاه على يد زوجها اليونانى من المهانة وسوء المعاملة فقد فكر الملك أن يكون سفر ولده

« باريس » لزيارة عمته في الناحية الاخرى من بحر ايجه فلم يعتم الفتى أن أبحر على مركب كبيرة مجهزة ومعه من الهدايا والالطاف كل نفيس ، وما برحت المركب تمخر به عباب الازرق اللجى حتى اذا بلغ مياه سلاميس ، قصد من فوره الى القصر الملكى حيث استقبله الملك على ماجرى به رسم استقبال الامراء ، ولكنه أحس بما وراء ذلك من الجفاء ، وعلى الرغم من أنه لم يقض فى ضيافة عمته الا يومين ، فقد لمس ما تلاقيه الملكة المسكينة من الفظاظة والضيم ، فلم يطب له أن يطيل المقام عندها . ويضاف الى ذلك انه طوال رحلته فى البحر كان يسرح بخاطره مع الأمواج المتسدافقة المطردة الى أرض هيلين فى جنوب شبه الجزيرة اليونانية فكيف يطيل مقامه فى سلاميس بعيدا عنها ، وليس يفصله عنها الا مسافة يوم أو بعض يوم .

غواية هيلين

رفعت المركب مراسيها من ميناء سلاميس وانطلقت منشورة الشراع متجهة الى اسبرطة وكانت الريح مواتية ولكن « باريس » لم يكفه من المركب انتفاخ شراعيها ، بل أمر بالمجاديف ليزيد من سرعة اندفاعها . فما وافت الظهيرة حتى كانت رسله قد تقدمته على ظهور الخيل بالهدايا تستأذن له فى مقابلة ملك المدينة .

وبعد لحظة أقبلت عجلة يجرها جوادان من عتاق الخيل وكانت جوانب العجلة موشاة بالذهب ومن داخلها بطانة الديباج ويستقلها فارس جميل الصورة فى حلة فاخرة وزينة باهرة . وكانت نظرة واحدة الى مظهره تدل على انه أجنى قادم من الشرق الفنى . واستقبل الملك منلاوس فى مظهره المخشوش البسيط

ضعيفه الملكى القادم من الشرق الفنى . وبعد أن بادله التحية وسأله عن موطنه وعن البلاد الآسيوية ، دعاه فى غير كلفة الى مائدته . فقدمت الجوارى أقذاح النبيد والخبز الابيض وقطع اللحم المشوى ونحو ذلك من المأكول البسيط . فما أن فرغا من الطعام ورفعت آنيته اذا بامرأة أشبه بحور الجنان تدخل وعليها مسحاة من السأم الحزين وتلقى الى ملك اسبرطة قولا يبدو انها كانت قد كررته عليه منذ هنيئة : « ألا تزال معتزما السفر ؟ وهل لا تزال عند رايك فى السفر وحده ؟ »

وينظر منلاوس الى زوجته كالمنكر لدخولها مع وجود غريب فى حضرته . ولا يسعه الا أن يبادر بتعريف الاثنين ثم الاعتذار لها بأن الوحدة تثقل عليها . وهو مضطر للرحيل الليلة ، فهى تحاول أن تثنيه عن السفر أو تقنعه بالذهاب معه . ولما كان كلا الأمرين متعذرا فهى عابئة غاضبة تكاد من الغضب تنسى نفسها وتخرج عن طورها وما كاد « باريس » يرفع نظره اليها حتى راعه جمالها واضطرب قلبه هياما بها . وما كان هذا الاضطراب ليخفى على هيلين . ولقد أعجبها ذلك وراقها وأرضى كبرياءها التى جرحها الزوج برفضه اصطحابها وإظهاره الصبر على بعادها . وقد زاد من ارتياحها فى هذه اللحظة الى ما أحدثه جمالها فى نفس الغريب من الروعة انه كان أنصر من زوجها شبابا وأفضأها وأجمل طلعة وأنصر حلة وأبهى زينة .

ولما كان منلاوس على أهبة السفر بعد قليل ، فقد استجمع « باريس » بقية عزمه وتحامل على نفسه واستأذن فى الانصراف ، وعلى الاثر خرج ملك اسبرطة فى زمرة من أتباعه بعد أن ودع زوجته وابنته قاصدا الى جزيرة كريت فى زيارة للملكها فى شأن من الشؤون .

وبقيت هيلين في الدار وحدها خالية بنفسها تفكر في حالها مع زوجها وانصرافه الى شواغله الكثيرة التي لا آخر لها . ثم تتذكر موقفها الاخير منه والحاجتها عليه في السفر معه ، وتتخيل دخولها عليه وفي حضرتها ذلك القريب وعندها تتوقف بتفكيرها عند هذا القريب فيستحضره خيالها في عنفوان شبابه وريمان حسنه وجمالها وحفل زينته وهندامه . وهي لا تنسى تصرف هذه الصورة عن مخيلتها ، ولكن الصورة كانت لا تنسى تعاودها وتتشبث بها .

وكان اليوم عيد « افروديت » والناس يحتفلون به كافة وقد ازدحمت بهم الطرقات وطافت جموع الفتيات والفتيان ينشدون ويرقصون ، وتتجه مواكبهم الى معبد الربة وقد ازدان تماثيلها بقلائد الجواهر واسماط الدر واكاليل الزهر .

ولم تلبث « هيلين » حين جن الليل ان احست في نفسها حاجة الى التعب للربة ، فذهبت ومعها بعض جواربها يحملن القرايين . فما كادت تضعها على المذبح وتستغرق لحظة في ابتهالها حتى كان الى جانبها « باريس » يسأل الربة ان توفي له بوعدا .

وقامت « هيلين » فاذا بها و « باريس » وجها لوجه . واذا هو يمسك بذراعها فلا ترده ، واذا هو يخرج بها من المعبد فتنقاد له ، واذا هما تنطلق بهما العجلة كالشهاب الهاوى الى الميناء . وسرعان ما ينشر الشراع للهواء وتتحرك المجاديف في الماء . فاذا السفينة الطروادية تغادر الارض اليونانية حاملة معها آية الجمال ، حتى اذا صارت السفينة في عرض البحر تراءى على ظهرها تحت القمر عاشقان متعانقان وكانهما في غناقهما الحار شعلة نار .

اول حرب بين الشرق والغرب

شعلة نار كان ذلك الحب ، فهو الذى اضرم للعبة
الاولى نار الحرب بين الشرق والغرب .
غضبت يونان كلها للمهانة التى لحقت بها فحمل
السلاح نحو مائة الف يونانى بقيادة اخى الزوج المفضوب
« اجاممنون » ملك ارجوس ومشاركة غيره من ملوك
المدن اليونانية . وقد اقلتهم الف مركب مجهزة ابحرت
بهم من ميناء « اوليس » عابرة بحر ايجة الى الساحل
الاسيوى حيث تقوم على مقربة من مضيق الدردنيل
« طروادة » العظيمة .

وهنا وقع الصدام الذى تفنى باحداثه العظام اول
الرواة المنشدين « هوميروس » واليه فليرجع من شاء
من القارئ . اما نحن فحسبنا ان نذكر هنا على سبيل
الاختصار ان المدينة الحصينة امتنعت على جيوش
اليونانيين ولم يسفر القتال المرير بينهم وبين الطرواديين
عن انتصار مبين لاحد الفريقين فاعتمد اليونان على
الحصار آخر الامر واقاموا على ذلك سنوات عشا ،
ولولا ركونهم الى الخيانة والحيلة لما كان لهم الى طروادة
من وسيلة . وهؤلاء هم قد دخلوها خلسة واخذوا اهلها
على غرة فنهبوا اموالهم وسببوا نساءهم وامعنوا في
رجالهم واطفالهم تقتيلا ، ثم اضرموا النار اخيرا في
المدينة ، فلم تزل نار الحريق ترعى في نواحيها وتأتى
على اسوارها ودورها ومغانيتها حتى صارت أثرا بعد عين
ولقد فقد اليونانيون في هذه الحرب الكثير من
رجالهم وفجعوا في معظم ابطالهم ، ولكنهم عادوا ومعهم
هيلين آية الجمال العديمة المثال لتشرق من جديد على
اسبرطة وعلى يونان كلها في ذلك الحين ، ثم من بعده
حتى اليوم والى ابد الابد في مخيلة العالمين جيلا بعد جيل

شهرنادر

- ١ -

رسالة شاهانية

« يا شقيقى وحبـة قلبى ! لقد انقضى زمان طـويل
ولم تشرق فى سماننا شمس طلعتك وانى وكافة الشعوب
من رعيتى لـنرغب اليك الشخصـوص الينا ، الى أخيك
شهریار الذى يحبك ويـجلك . فتعال يا أخى واقض بين
ظهرانينا إياما كلها نور وحيور .. »

تصفـح شهرمان الرسالة الرقيقة ، واسترسل فى
الذكریات . تمثل السنين الخوالى وكيف آثرت أمم
الفرس والهند والصين مبايعة أخيه شهریار الباسل
المقدام والفارس الفوار ، المشرق الطلعة الرائع الحسن .
أما هو شهرمان ... ولكن هذه أمور اندثرت وعفا
أثرها ، فقيم انبعاثها ! ان شهرمان متربع على عرش
سمرقند ، متملك على أمة قانعة سعيدة ، تقاسمه الجاه
زوجة معبودة الجمال ، وهو مشغوف بها حبا .

ولقد شاء شهرمان ان يطلع فى كامل ابهته على أخيه
شهریار . فأمر بتهيئة القافلة وتحميل التحف والهدايا .
وأزفت ساعة الرحيل فذرفت السلطانة البهية المحبوبة

(*) اهداء هذه الترجمة الى مؤلف القطعة الفنية المرحومة
الموسومة بهذا الاسم الاستاذ توفيق الحكيم

هتونا من الدمع مدرارا ، وطوقت زوجها الملك ، وجعلت تقول وهى تمزق شعرها وتدق صدرها :

— يا الله ! اتحرمنى يا صاحب العظمة من نعيم اتملاه فى رنة صوتك ونظرة طرفك آواه ! ما اطول أيامى فى بعادك !.. آواه !.. ماذا انا صانعة من غير حبيبى ؟ !
وطفقت السلطانة تنتحب ، وطفقت السلطانة تتوسل :
— ابق ، يا مولاي احب السلاطين ! ابق !

فقال شهرمان فى نفسه :

— شهريار أخى جميل الصورة ، شهريار أخى ملك موفق على ممالك ثلاث . أما انا فأملك سمرقند ، وأملك تركستان ، وأملك فوق هذه وتلك سلطانتى ، أبهى المليكات طلعة وأبهى رواء . الا أنه لابد مفارق سلطانه ، برغم هذين الذراعين اللذين يطوقانه

- ٢ -

الخيانة الاولى

ورحل شهرمان فى قافلة ممتدة طويلة مليا دعوة شهريار . حتى اذا اجتاز أبواب سمرقند ، أبوابها المشيدة من المدر والقرميد الوردى اللون ! وأخذ الشفق يضرع قباب المدينة ومساجدها ويكسوها بمثل مطارف المخمل القرمزى ، تذكر شهرمان فجأة أنه نسى على احدى المناضد الخاتم الفروز وهو خاتم ذو فص كبير الحجم أعده هدية لأخيه . فخطر له أول الامر أن يعهد الى أحد رؤساء الجند بالذهاب لاحتضار الخاتم ، غير أن شيطان السوء الذى يلزم الأزواج الظاعنين — وللأزواج الظاعنين عن زوجاتهم سوء يلزم — زين له أن يعود بنفسه لتفقد الخاتم . وبذلك يتاح له ايضا أن يتملى برؤية سلطانه فضلا عن أنها ستكون

- ٣٢ -

مفاجأة يأنس مقدما حسن وقعها في نفسها ، اذ تأخذها ولاشك هزة الطرب عند رؤية السلطان شهرمان . وعلى ذلك قفل شهرمان الى المدينة دون أن يشعر به احد . ووسوس له شيطان السوء بعينه الذي يلزم الأزواج أن يربط جواده في سكون الى شجرة في الحديقة ، وأن يجوب في سكون مفارش العشب ومسالك القصر حيث تقع خطاه لينة من غير صوت موقع خياله المنكس على لجة الماء في الحياض المفروشة بالمرمر .

ثم أفضى من سلم خلفى الى مخادع السلطانة ولم يتكلف الطرق على الباب بل فتحه على آخره فاذا مشهد فظيع ينكشف لعيناه ، سلطانته يراها راي العين متبهرجة في أفخر ثيابها وفي حال منادمة مع كبير من ضباط قصره . حيال هذا المشهد هاج هائجه ، واستل حسامه ، واطاح بضربة مربعة رأس الأئمين ، وترك الهامتين حيث سقطتا غارقتين في دم الاثم والقصاص . وانكفا في حلة من الدم القاني الى جواده فركبه ولحق بالقافلة .

لكنه كان ملتذع النفس طافح القلب بالحسرة ، يذكر ما فعلت من قديم أمم الفرس والهند والصين وكيف أثرت شهريار عليه هو نظرا لدمامته ، وها هو ذا للسبب عينه ولاشك قد خائته زوجته . وعز على شهرمان تمالك غضبه ومضى محنقا يبذى ويعيد في نفسه كما يلوك الجواد لجامه .

- ٣ -

لقاء الشقيقين

اقام شهريار افخم الاعياد والافراح اكراما لشهرمان، فلما أن وافى كانت حفاوة أخيه بالفة منتهى الحب والحنان ، فتعانقا طويلا وتبادلا وابلا من الأسئلة . غير

أن شهرمان قلما يجيب على أسئلة الماجد شهريار الذي
ما أنفك اغر الطرف ، أوطف الحاجبين مقوسهما ،
عريض المنكبين متوازنهما ، مرهف القامة ، بل كان
يسرح طرفا فائرا في هذا الصرح وهو صرح أبويه وفيه
قضى أيام الطفولة الصافية الوضيئة . ولا غرو فنفسه
تخيم عليها سامة وإى سامة .

وأمر شهريار بالمزاهر والفتيات والراقصات البارعات
والاغاني المطربات والوجوه الملاح ليسرى عن شهرمان .

وكان هتاف الجموع المحتشدة فى الخارج يدوى ويتجاوب
صداه ، الا أن شهرمان ما برح حزينا لا يغلب على حزنه

فتساءل شهريار عما به . . ثم سأل :

— كيف مملكتك ؟

— مملكتى مزدهرة ازدهار البستان فى الربيع

— وكيف شعبك ؟

— سمرقند فى رخاء وعز ، ورعاياى يحبوننى حب
العبادة ، ويقبلون مطارح ظلى على أرض مجلسى الرفيع
— وأولادك ؟

— يركضون مئات فى حدائق الفناء التى تبلغ
المائتين ، من عذارى فائنات وفتيان مهرة فى الرماية ،
أصطحبهم فى غزواتى البعيدة لفرط شجاعتهم جميعا .

فقال شهريار فى نفسه : اذن فى الامر امرأة .

ولكنه لم يجرؤ على سؤال أخيه فى هذا الصدد .
فان شريعة الحياء فى الاسلام تنهى الرجل عن التحدث
فى هذه الأمور ، والواجب أن تظل هذه عندهم أشبه
بالمصاييح المستورة لا تفضى بنورها وحرارتها الا لمن لهم
حق الاقتراب منها .

وعدل شهريار عن تسلية شهرمان من هذا السبيل ،

وعرض عليه آخر الامر نزهة طرد وقنص فاعتذر شهرمان وقال :

— سامحنى يا أخى وأجز لى البقاء فى القصر أجوس مدى النهار عرصاة الرحبة فانى فى هذه الدار الفخمة لاستجمع ذكرياتى القديمة ، ولربما فهمت قليلا من هواجسى فلم يسع شهريار حىال هذا الرجاء الا أن يستجيب له ، وأنصرف . ودوى نفخ الابواق وركض المطايا والحياد ، ثم اخذت الاصوات تخف على تطاول المدى .

— ٤ —

الخيانة الثانية

واذ ذاك جعل شهرمان يجوب عرصات القصر دون أن يدبر ناظره فيما حوله ، وانتهى به الحال أخيرا الى رواق فسبح طويل مفروش بالقرنفل والياسمين . وفى نهاية الرواق لمح شهرمان نافذة بلغ مسامعه منها أصوات رخيمة لاغطة ، وضحكات رنانة نافمة ، ووسوسة الحللى والقلائد ، فادرك شهرمان أن هذه ولا شك النافذة التى يتطلع منها شهريار الى حريمه والى رقصهن وأفانين دلالهن . فتراجع تسترا منه وحكمة ، ولكن دفعه الفضول — وعلى الاخص ذكرى سلطانه ورغبته فى أن يرى أن كان بين أولئك النسوة من تضارعها — ونظر شهرمان فكان المنظر السانح لعينييه يفتن الابواب حقا ، فثمة حشد من النساء من أقاليم ممالك شهريار الثلاث ، من فارسية مزججة الحاجبين لدنة المعاطف ، وهندية مفتولة الجسم مذهبة البشرة ، وصينية محدبة الجفون أنسيلة الخد . وكن يتضحكن جميعا ويظفرن ، وعلى حين بفتة ساد السكون . لقد جلست بينهن أربعهن حسنا — السلطانة ذات الحظوة

ولاشك - على مقصد مرتفع مغطى بديباج مزركش بالذهب ، ورفعت ذراعها البضتين وصفت بكفيها فاذا جميع أبواب الحريم العديدة تنفتح ويدخل منها دخول الوحوش الى الحرم فوج من العبيد ضخم الخلقة أشداء . فارتفع من النساء عند رؤية العبيد تصفيق عال وتهليل . ودارت بينهم وبين النساء شر الملابس

حيال هذا المشهد جاش رجل الفضب في صدر شهرمان وامتلاً غيظاً متميزاً وحنقاً وثقمة مستطيرة ، فان الذى عاينه هذه اللحظة من المنكر يتعدى كل شناعة أخرى ، حتى الذكرى الكريهة المطوية في قرارة قلبه عن الخيانة التى ابتلى بها . وهم أن يأمر بقتل العبيد والنساء معا ، وأنطلق ... الا انه وقف فجأة : وكما ينساب خيط من الماء بين صخرتين وعرتين فقد بدأت بادرة سرور سرعان ما استفاضت حتى غمرت مشاعره

بالله : حتى شهريار الجميل ، شهريار ذو القامة الوافية والعيون النجل والحواجب الوطفاء ! ذو الخصر المستدق يتيه صاحبه بأنه ليمسك ويحتويه بين ابهامه وسبائته ! شهريار المحبب الذى رغب فيه كل هذه الامم ، شهريار هو ايضا . . يا لله ! يا لله !

تأسى شهرمان ، وابتهج وطابت نفسه . ولما كان لم يشته الطعام ثلاثة ايام متوالية ، وقلما تذوق الالوان التى كانت تحفل بها مادبة اخيه ، فقد أصدر الامر بأن يمد له سماء فاخر في الحال ، وجلس الى الصحاف ، واتهم كل ما قدمه اليه الخدم المبادرون ، ثم غط يديه في السلال الحافلة بالفواكه والثمر الجنى ، واكب عليها مستأنفا للأكل! وعلى هذه الحال من الانبساط والمرح ، وفى عنفوان هذا الإنس الفاه شهريار عند عودته من القنص

فوقف شهريار تجاه هذا الموقف مبهوراً ، ثم قال :
— ماذا دهالك يا أخى ، وفيهم هذا الطرب المفاجيء
بعد كل ما كنت عليه من الكآبة التى أبيت إلا أن
تحفى عنى سرها ؟
أما شهرمان فانبرى يسأله متادباً (وهو لا يتمالك
نفسه من الضحك) ؟

— والصيد ؟ ها ! ها ! ها ٠٠ هل أصبت رمايا كثيرة ؟
الصيد ؟.. ها ! ها ! ها ! الملاهى .. الجمال ،
ها ! ها ! ها !

فتساءل شهريار : ياسبحان الله ! فيم هذه الاسئلة
المنبئة الصلة ، وهذه الضحكات التى تشف عما تحتها ،
ومضى شهرمان يضحك لأقل كلمة . ولم يهتد شهريار
إلى تفسير اللغز فالحف على أخيه بالاسئلة :

— وبعد كل هذا ، ألا تجيبنى ؟ انى لا أطيق احتمال
الاستهزاء أكثر مما احتملت . فلما أن أبصر شهرمان
أخاه على وشك الغضب ، قال :

— أما سبب كآبتى الأولى فلا يصعب شرحها ومن
السهل تحديثك عنها . وأما سبب انشراحي بعد ذلك
فاسمح لى يا أخى بكتماته عنك

ولكن ألح شهريار ، فروى له شهرمان قصة
الخيانتين . ولما أن انتهى طأطأ الأخوان الحسيران
هامتيهما المتوجتين

— ٥ —

ملبحة لى العريم

ولكن شهريار لم يشأ تصديق هذه المخزية النكراء .
وقال فى نفسه وهو ينظر مرآة خياله :
— محال ! هذا غير ممكن ! ان شهرمان واهم ولا شك ،

كما انه يحتمل اختراعه المنكر يلصقه بسلطانات حريمى
ليركبنى الخزى كما ركبه ، واستشعر الصفار مثلما
استشعره واذ ذاك قال شهرمان :

— عليك بالحيلة التى يتدرع بها الناس فى مثل هذه
الطوارق . واصطنع الحيلة الثالثة ، الحيلة القديمة
العهد قدم الهواء والكواكب ، ذلك ان تتظاهر بأنك
سوف تتفیب آیاما ثلاثة ثم لا تكاد تنصرم ساعتان حتى
تعود ادراجك على حين غفلة . وافتح وقتئذ نافذة
الرواق مثلما فتحتها وانظر حيث نسائك
وعمل شهریار بنصیحة أخیه ، وانطلق ، ثم عاد
وقد شاهد المنظر الفظیع .

ولقد جن جنونه من الهول والاستنكار ، وسارت
سورة غضبه ونقمته فأمر فى الحال بأعمال القتل فيهن
جميعا ، واشترك فى المذبحة مشمرا محتدا ، يقتل بيديه
طعنا بالسيف العريض الصفحتين ، وبالخنجر المطرور ،
وسنان الرمح ، يقتل ، ويقتل من غير رحمة نساء حريمه
المنكودات . وفاض رشاش الدم من القصر ، وقد استحال
الى مجزرة . وتصاعد الانين ثم أعقبه سكون الموت الرهيب

- ٦ -

المرأة تغلب الشيطان

ارتاع شهریار وشهرمان نفسيهما من هذا المشهد ،
فوليا عنه معرضين ، ومضيا يتمشيان معا بمحاذاة
شاطئ البحر حيث تقبل الامواج جائشة زاخرة
الفوارب ، وتموت عند قدميهما . وكانما جلبة العباب
وعليه أشعة الشمس المتكسرة المرفرفة كالفسراش على
ذوائب اللجج قد سحرت أنظار هذين التعسين وأنامت
نبوطهما الثائرة المعذبة .

فاذا بهما يبصران عمودا هائلا أسود يرتفع من جوف البحر العميق ويتعالى مقبلا عليهما تصحبه زمجرة كزمجرة البركان ، فداخلهما شيء من الفزع على رغم شجاعتهما المتهودة . ولما كان العمود يتابع الاتجاه صوبهما وتزداد جلبته شدة على شدتها ، ركنا الى الصعود فوق شجرة ينتظران ما يجرى .

انشق العمود على مقربة من الشجرة التي اعتصم بأعلاها المملكان ، وخرج منه جنى هائل ، عملاق ، فظيع المنظر ، حتى لقد ارتجفت الشجرة من شدة ارتعاف الملكين الشقيقين لدى رؤيته . وكان المارد يحمل في كفه صندوقا كبيرا مقلقا بسبعة أقفال لكل منها سبعة مفاتيح . وأقبل المارد على صندوقه يفتحه في عناية ورفق بمفاتيح لا يدخل عددها تحت حصر ، وأخرج منه علبة من البلور تشفعن افتن مخلوقة يتصورها الخيال . وأشرق وجه الجنى وهو مكب عليها ، يتأمل عينيها الدمجائين المتطلعيتين كعين الطفل الفريز ، وابتهامتها الحلوة الصافية كالوردة المفلترة . وقال لها بصوت حنون :

— ياسيدة الحرائر ، اخرجى من خدرك وفتح لها ابواب العلبة وهى ايضا ذات مراتيج ومغالبيج — اخرجى ، واجلسى على الرممل ومدى سساقيك لأوسدهما رأسى المتعب فانى أريد النوم . ياسيدة الحرائر التى قد اختطفتهما ليلة عرسها !

فخرجت الفادة ومدت للجنى ركبتهما وسرعان ما استغرق فى النوم ، واختلط شخيره المروع بهدير البحر واذاك سرحت الفادة الفاتنة حولها بصرا متحيرا ، ثم رفعت عينيها الى أعلى الشجرة فلمحت هنالك الملكين ، فرفعت من فوق ركبتهما رأس الجنى وأوسدته الارض ، ووقفت تحت الشجرة تشير اليهما بالنزول .

ولكن الملكين كانا من التحرز والعقل بحيث خافا ان هما نزلا ان ينتبه المارد النائم على حين فجأة ، فاشارا الى تلك الغادة المجهولة بأنهما بخشيان رفيقها ، فالتحت الغادة الفئانة عليهما من غير حياة وأرمأت اليهما بالطمأنينة وبأن الجنى فى سبات عميق لا يوقظه فى هذه الساعة موقظ . ولم تزل بهما حتى نزلا من الشجرة واشبعها شوقها اليهما . ثم قامت الى العلبة التى كانت رهيئة فيها فأخرجت حلقة من البللور نظمت فيها خواتم عدة وأخذت تهزها وتسمع لصليلها ، كان لرنين هذه الخواتم عندها لذة لا تعادلها لذة . وكان عدد الخواتم يربو على المائة خاتم

والتفتت الى الملكين وقالت :

— هذه الخواتم هدايا من السادة الأمراء والمغمورين وكافة من لاقيتهم من الرجال ولهوت واياهم على غفلة من هذا المارد . لقد اختطفنى ليلة عرسى وجبسنى فى هذه العلبة وأودع الصندوق قاع البحر العجاج المتلاطم الامواج . ومع كل هذا تمكنت كل هذه المرات من التغلب عليه . ذلك أن المرأة — يا سادة — لا تغلب على مآربها . فاعلموا ذلك . ومن ذا يستطيع أن يحول بينها وبين ماتريد اذا هى أجمعت رأيها وبيتت نيتها عليه ؟ فالغدر حشو ثيابنا . والرجل المعتوه من يخال انه خرج سالما موفور العرض بعد دخوله فى أسرها ، وقوعه فى شباك غرامنا . فقامت فى شهر يار وشهرمان عند سماع هذه الكلمات كراهية عامة للمرأة ، وأضمرأ لها المقت الشديد والنفمة التى لا مثيل لها .

- ٧ -

- فعل اليأس -

وفى هذه الحالة النفسية من زوال الايمان بعمهود

- ٤٠ -

النساء اجمعهن استأنف شهرمان طريقه الى ملكه .
اما شهريار فعاد الى قاعدة سلطنته ، وامر باصدار
مرسوم يعلن اسم الفرس والهند والصين بان ارادة الملك
شاعت من اليوم ان يتخذ كل ليلة عروسا جديدة ، وفي
الصباح يكون مصيرها الى الجلاد . وهذه العروس
يختارها في اول الامر من بين بنات خاصة البلاد
وعليتها ، ثم من كل أسرة فيها فتاة في ميعه الصبا
وريعان الحسن .

فلما ذاع هذا المرسوم من مملكة الى مملكة ، ومن
مدينة الى أخرى ، ومن بلد الى آخر ، ضج الناس وعم
العويل وغسلت الأمهات بالدموع أعتاب المنازل ، وضرب
الآباء كفا على كف توجعا والتيعا ، وأصعدت الفتيات
الزفرات في اثر الزفرات ، وأجهشن في النحيب ما
أسعفن النحيب . ولكن لا سبيل الى معارضة شهريار
الذي بعده رعاياه ويدينون له . وجرت الأمور على
حكم القانون الجائر فكانت تدخل الى مخدع السلطان
كل ليلة عذراء في حجابها ، ممثلة بحارة الحياة ووقدة
الآلم ، لتخرج في الصباح من الباب الآخر وتنزل الى
غيابة القبر باردة برد الأبد .

وكان الجلاد في قصر شهريار جالسا طيلة الليل على
سلم الباب الخلفي للمخادع الملكية وكم رأى الراءون تحت
أضواء القمر أو لمحات النجوم بريق فأسه المتربصة ،
المتعطشة للدم .

وقد طم العباب القاني ، واجتاحت اللجة القصور
ومنازل وجوه المملكة وكبرائها ، وهي الآن تطرق أسوار
بيت الوزير .

والوزير يعلم الأ مطمع له في رحمة السلطان وتجاوزه
على الرغم من حسن تقديره له ، وانه لا مندوحة مقدم

الى الملك ابنتيه واحدة بعد الاخرى شهر زاد الحسناء
التى ليس لها شبيه يضارعها ، واختها الصغيرة دنيا
زاد . وكان الوزير يتخاذل وتخور قواه عندما يتمثل
هذا الخاطر ، ولم تعد شفاته المتفتتان تفتران عن كلمة
فسألته ابنته الكبرى شهر زاد :

— يا أبتى ، ما بالك ساكتا هذا السكوت ؟ وما هذا
الوجوم ، حتى ليغيب عن بنتك معرفتك لتغير سماتك
الوضيئة ، وخفوت نغم صوتك المحبوس ؟ !
فلم يحر الوزير جوابا .

فرفعت شهر زاد هامتها وقالت :

— انا عالمة .. انا عالمة بعله همك وانشفالك .

وكانت شهر زاد فزيرة العلم ، متبحرة في كل شيء .
تحفظ عن ظهر قلب نيفا وعشرة آلاف قصيدة ، وقد
جمعت عشرين ألف كتاب من كتب التواريخ والسير
ودواوين الشعر والقصص . كما أنها تعرف أساطير
أمم ايران والصين .

واستطردت شهر زاد :

— انا عالمة يا أبى السبب في فرط حزنك . انا عالمة
به ، وانى متمنية عليك شيئا واحدا ، وهو أول سؤال
أسألك اياه في حياتي ، خذنى هذه الليلة الى قصر الملك
شهر يار ..

— ماذا تقولين يا بنتى ! او تقدمين نفسك للجلاد ،
ألا تنتظرين لعلى موفق فى اخفائك والنجاة بك من حكم
هذا المرسوم المهلك ؟ !
فقالت شهر زاد :

— كلا يا أبتى ، لست انتظر . ينبغي على انقاذ
اخواتى في الاسلام ، يجب أن ألقى جنسى من الفناء .
فاما أن أكون آخر من تعرضت للاقامة الموت على النطع ،
وأول من عاشت ونسخت حكمه ، أو أكون الحلقة

التي تختم سلسلة هذه الفطائع فافتدى بحياتي حياة
الألوف المؤلفة .

فناداها الوزير :

- بنيتي ! بنيتي ! اذكرى ما سوف تجلبينه علينا
من الألم المضيض ، وطرحت دنيا زاد الصغيرة بنفسها
عند قدمي شهر زاد متوسلة ولكن شهر زاد بقيت
راسخة لم يتزلزل عزمها . هي نفحة من عند الله
لاست هذه العذراء الفارسية فانبعثت فيها روح
التضحية في أعلى مراتب ناموسها ، وهو أن يضحي الفد
من صفوة الأفاضل نفسه من أجل الدهماء والسواد
الاعظم . من أجل الجميع .

- ٨ -

شهر زاد

هذه شهر زاد قريرة النفس مطمئنة رافلة في ثيابها
الشرقية ، لم تدرع من أسلحة النساء ووسائلهن الى
امتلاك القلوب والألباب بتبرج ولا بدلال وانما تدرعت
بأمضي اسلحتهن وانقلها الى الصميم : حسن الحديث
ورخامة الصوت .

هذه شهر زاد تدخل قصر الملك فيطلع اليها شهريار .
وكان غير الورد يسرى بنشوة المدنف ، والقمر
يفضض الشرفات الممتدة ، والياسمين يعبق والبلببل
أولهان يناغي الليل بهتفاته الحارة .. وثمة الفتاة
الحسنة الفضة الصبا عند قدميه ، في مخدع حافل
بالرياش ، يتضوع فيه شدا بخور المجامر المدلاة .

أتنعم النفوس التي شاع فيها الخيال الشرقي بمنظر
من مناظر السعادة أبهج من هذا ؟! ومع هذا فالوقت مائل

بين معالم تلك السعادة وشاراتها يقول الفتاة الغضة الشباب:
- غدا مع مطلع الفجر سيكون لى جسم اللذيد ،
وانفاسك العاطرة ، ووميض عينيك النجلاوين ، فى
الفجر ستكونين لى ! أنا الذى سأضمك وأنيخ على صدرك
ويوسوس الى الملك الشاب الجميل :

- لك الشكر أيها السلطان ، على ذلك القطاف
اليناع الذى تسمح لى كل يوم بجنيه . ولم ترتصد
شهر زاد وهى تتخطى عتبة المخدع ولم ترتجف ، مع
انه نذير الحمام ودنت الى الملك شهريار فأجفل وقال
فى أعماق طويته :

- يا للصبية الحسناء ! كانى بها لا تخاف ! سنرى .
وضحك . وذكر السلطان التى خائته ، فأحسن من
جديد بالقسوة البرمة ، وشهر زاد - كفيها ممن
سيقن - تستل ضيقه .
وكانت جالسة . وهى تلاعب عقدا طويلا من الزمرد
فتصطدم حباته بحبات الكهرياء « الكهرمان » فى سبحة
السلطان فتبسّم لذلك . وهى غير خائفة .
وبعد قليل شخصت اليه بعينيها الطاهرتين وهمست
فى دلال :

- مولاي لى رجاء اليك قبل أن يعالجنى الحمام
المنتظر ... وهو اذن باحضار أختى الصغرى لتكون
قبل الموت الى جانبى . فأنا أحبها وقد وعدتها أن أقص
عليها حكاية هى من زمان طويل متشوقة الى سماعها ..
واريد أن أبر بوعدى قبل أن ألقى حتفى فأذن لأختى بالمجئ
فتعجب شهريار لهذا الطلب ، واندesh لجرأة
شهر زاد وسكونها ، وأمر بدافع الفضول باحضار الصبية
راقبلت دنيا زاد . وقالت كما سبق أن أوصتها أختها :

- يا اختى ، قصى على الحكاية التى حدثتني عنها
منذ هنيهة قبل مفادرتنا .
فانشغل بال السلطان فجأة ، وساءل نفسه عما
ينطوى وراء كلمات الاختين . أهو شرك ؟ أهى مؤامرة ؟
واستأذنت شهر زاد فى الحديث ، فأباح لها فاستهله
ببيانها الساحر وصوتها الرخيم .

- ٩ -

نجاه الف عدواء وعدواء

وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت عن الكلام
المباح ، وكانت قد بلغت فى حكايتها الى أدق المواقف
وأشدها تشويقا الى ما بعدها .
فقالت دنيا زاد فى طهر وغرارة لأختها :

- يا اختى ، ما أطيب حديثك وأعذبه ، وما أشد -
فجيعتى أن يطلع الصباح ويحم نذيره ، وأحرم أبد الدهر
من تمة حكايتك ، ولكن ! لعل السلطان يبقيك لمدة أخرى
فتحير السلطان وتقاسمته الأفكار ، ولكن غلبت عليه
الرخامة الساحرة فى صوت شهر زاد وخلاصة بيانها فى
استحضار أشخاص الحكاية أحياء أمام عينيه ، فجاد
عليها بمهلة ليلة أخرى واحدة .

وتلاحقت حكايات شهر زاد متصلة متداخلة بحيث
لا يدركها الصباح فتسكت عن الكلام المباح ، الا والقصص
مقبل على أهم ما يتطلع الى معرفته السامع ، والمتعة
به على طرف اللسان ، لم ينقطع منها أرب السمتع .

وتعرف الملك لأول مرة فى حكايات شهر زاد ، رعيته
فى شتى خصالها وألوانها ، رعيته المسكينة الدائبة على
العمل ، الغنية الخيال ، الواسعة الحيلة ، المقحمان

المقدام ، الساخرة الماجنة ، الكدود ، رعيته الشديدة
البأس المفتولة العضل . تلك الشعوب التى عاشت فى
آسيا فى القرون الوسطى وخلدت ذكرها فى النقوش
والصناعات ، والتى لا يستعرض حياتها جيبيل من
الاجيال التى قدمت بعدها فى الغرب او الشرق .

ابصر السلطان شهريار فى هذه الحكايات - كانه منها
امام مرآة سحرية - احوال الامم التى وكلت نفسها الى
رعايته ، واحسن انهم جميعهم على اختلاف طبقاتهم اهله
وعشيرته ، بل اقرب من ذوى قرباه . فكيف يورد
بناتهم وافلاذ اكبادهم حياض المنية !
ولان شهريار شيئا فشيئا ، واستطردت الحكايات
يوما بعد يوم . اما الوزير والد شهر زاد فقد بكر الى
ديوان الحكم فى صبيحة الليلة الاولى يحمل الكفن لابنته
وحضر الملك ، وولى من شاء الى آخر النهار ، وانقض
المجلس ولم يخبر الوزير عن نعيها .

وفى اليوم الثانى بكر الوزير الى الديوان ومعه الكفن ،
وكذلك فى اليوم الثالث والسلطان يتفاضى ولا يشير
بكلمة الى مصرع شهر زاد . فترك الوزير الكفن فى
احدى زوايا بيته ، وعلت وجهه ابتسامة الزهو والحبور

وكانت شهر زاد تعد على اصابعها .
واحدة ، اثنتان ، ثلاث ، خمس ، سبع ، تسع ،
مائة ، مائتان ، ثلاث مئآت ، الف بنت وبنت نجون !
نجت عذارى ايران ، نجون على يدى !

وعقد الملك قرانه على شهر زاد استجابة لرغبة
شعبه ، وتلبية لداعى حبه ، واصبحت شهر زاد مليكة
مسيطرة على قلبه وعلى الممالك الثلاث

التاريخ

- سلامبو عذراء قرطاجنة
- حورية الغابة « مدام بومبادور »

سلاويو عذار قرطاجية

من الدول التي قامت على شواطئ البحر الابيض المتوسط منذ قديم : دولة شرقية فينيقية هي « قرطاج » في شمال افريقية ، كانت في القرن الثالث قبل الميلاد اعظم واغنى دولة تجارية ، بفضل أسطولها البحري الضخم الذي ملكت به السيادة على هذا البحر ، وأخضعت لسلطانها معظم جزائره حتى الشاطئ الاسباني ، فضلا عن بعض الموانئ الاسبانية - ودولة أخرى غربية لاتينية هي « روما » التي تمت لها بفضل فيالقها البرية الغلبة على سائر شبه الجزيرة الإيطالية وكان الحكم في كل من الدولتين وقتذاك يتولاها مجلس من الشيوخ أو القدماء ، الى جانبه في قرطاج مجلس يتألف من مائة - وقيل بعض مئات - من الاعيان الاغنياء ، وكان الحاكم ينتخب كل عام ويسمى في روما « قنصلا » ، وفي قرطاج « صوفيت » والحاكم في كل منهما اثنان . وكان الحكم في الجمهوريتين تحت اشراف هذه المجالس ويتوجيه منها

وفي ظل هذا النظام ، مضت كل من الدولتين تتزايد قوتها ، وتوسع رقعتها ونيسبتفعل أمرها وتقوى شوكتها ، حتى أدت المنافسة بين الدولة الفتية الغربية والدولة الفتيحة الشرقية ، على مد نفوذهما وراء

حدودهما ، وبسط سلطانهما على غربى البحر المتوسط ، الى ان وقع بينهما مالا بد من وقوعه من التصادم فى البر والبحر ، ونشوب تلك الحروب الطاحنة التى استفرقت اكثر من المائة عام ، وكان انتهاؤها رهنا بالقضاء على احدهما . .

وجدير بالذكر هنا ، ان قرطاجة على الرغم من طائل ثروتها ومظاهر قوتها كانت تكمن فيها مواطن ضعف ، خلت منها روما غريمتها

وفى مقدمة هذه المواطن الضعيفة فى قرطاجة ، ان اهلها كانوا فى شغل بالتجارة الواسعة ومكاسبها الوافرة عن الاضطلاع بحمل السلاح ومعاناة القتال فى الحروب التى تخوض قرطاجة غمارها ، اعتمادا على قدرتها المالية على تعبئة الجيوش التى تحتاجها من بين ألوف المقاتلين الاغراب المرتزقة ، كانوا الولاء والاخلاص والاستبسال مما يمكن شراؤه بالمال . فكان المشاة فى جيوشها من الغاليين والاسبان ، وكان النوميديون من بدو الجزائر هم الفرسان ، ولا أحد من أبناء قرطاجة غير القادة ، وهؤلاء الجند المرتزقة من شأنهم اذا كتب لهم الانتصار أن يأخذهم الاغترار الى حد التبجح حتى ليس تؤمن بأدبرتهم ، واذا استشعروا الهزيمة والانكسار سارع اليهم التخاذل حتى لتخشى خيانتهم

وفير خاف ان مواطن الضعف هذه وغيرها ، كان يصرف الانظار عن عوارها ، ويرجى ظهور معقباتها وآثارها ، ما كانت تدره على قرطاجة تجارتها المتوغلة فى شتى الاقطار وفيما وراء البحار من الارزاق والمكاسب الطائلة ، وما كان يحمله اليها أسطولها من مستعمراتها المتعددة المنتشرة - قريبها وبعيدها - من الفضيلة

والمعادن ، فضلا عما جاد به الزمان عليها - في تلك الحقبة التاريخية - من الرجال ذوي العبقرية الحربية النادرة المثال ، حتى شهد لهم أعداؤهم الرومان أنفسهم بالبطولة في القتال ، مثل « هاميلكار برقة » الشهير ، ومن بعده ابنه الأشهر « هانيبال » الذي تبارى المؤرخون الرومان في وصف ما كان من زحفه على روما ، عابرا إليها جبال الالب الشهقة بألوف الرجال ، ومعه الكثير من عدة الحرب والافياء

كانت هذه الحال بخيرها وشرها ، حال قرطاجة القديمة حين وقع أول صدام بينهما وبين روما الفتية

وكانت روما هي البائدة في تعجيل هذا الصدام حين عبرت في ربيع سنة ٢٦٤ ق.م . المجاز الضيق الذي يفصل بين آخر حدودها الجنوبية في الجزيرة الايطالية ، وبين صقلية التي كانت قرطاجة تحتل معظمها وتعتبرها داخلية في حوزتها

وهذه الحرب من أجل صقلية ، تعتبر صفحة جديدة في تاريخ روما الحربي ، لأنها كانت أول الحروب البحرية التي اشتبك فيها الرومان ، اذ لم يكن للرومان حينذاك أسطول . فلما أدركوا مبلغ الحاجة اليه ، بادروا الى بناء ما يربو على مائة سفينة في شهرين . وحاربوا القرطاجيين في البحر بالقرب من « ميليس » وهي ميناء من موانئ صقلية سنة ٢٦٠ ق.م . فسجلوا انتصارهم البحري الاول . ثم دامت الحرب بينهما سجالات عدة سنين . ولكن نكبات الاسطول الروماني اخذت تتكرر المرة بعد الاخرى بسبب العواصف والأتواء وهياج البحر واعتلاج أمواجه ، حتى رسخ في الجيش القرطاجي في صقلية في هذه المرحلة الأخيرة من الحرب ، قائد نابغة

خلد التاريخ اسمه ، وهو هاميلكار برقة

ولقد واصلت رما توجيه الفيالق بعد الفيالق لمحاربتة على أرض صقلية ، فكان يرد قادتهم مدحورين ، الواحد بعد الآخر ، وأخيرا أخذ الاثرياء الرومان على انفسهم بذل الوافر الكثير من ثرواتهم لبناء أسطول كبير اتاح للقائد الرومانى ان ينتصر على القرطاجيين فى معركة بحرية تاريخية فاصلة بالقرب من جزائر « ايجانيس » سنة ٢٤ ق.م. وهذه السنة تعتبر نهاية الجولة الاولى للحرب بين روما وقرطاجة . وفيها تم الصلح على أن تنزل قرطاجة للرومان عن جزيرة صقلية كلها وكان الفريقان مع ذلك يعلمان أن هذا الصلح لن يدوم ، وانما هى هدنة الى حين

ولكن قرطاجة فوجئت بعد الهزيمة بما هو شر منها ، وهو خطر الثورة فى عقر دارها ، على أيدي الالوف من جندها المرتزقة الذين يطالبون - قبل تسريحهم - بالاعطيات المتأخرة لهم ، وكانت خزائن الدولة التى استنزفتها الحرب تعجز عن الوفاء بحقوقهم

ونحن اذا ذكرنا ما يعقبه الانكسار عادة من سقوط هيبة الحكم والحاكمين ، لم نعجب من انفساح المجال وقتذاك لظهور شخصيات بين الثوار بارزة السمات غير عادية الاطوار . ولقد عنى المؤرخ القديم « بوليبيوس » بتدوين اسمائها وذكر طرف من فعالها ، ولكن التاريخ لا يذهب الى أبعد من ذلك ، بل يكتفى بذلك وأقل من ذلك ..

وهنا ، لا نجد اماننا - نحن المتأخرين - غير مؤلف القصص التاريخي ، فهو وحده الذى يحتفى بأمثال هذه الحقبة التاريخية ، مستعينا بما أوتى من قوة

الاستحضار ، والقدرة على التصوير ، ودقة التحليل وروعة التعبير ، فضلا عن الخيال المبدع الخلاق ، لاعادة كتابة التاريخ بعد ملء الفجوات ، وترميم المتكسر هنا وهناك ، واستكمال مقومات الحياة . فاذا الحقبة التاريخية التي لا نذكر منها غير أسماء الاعلام وأرقام التواريخ ، قد أصبحت حقبة حية ، جياشة بالحياة ، موصولة بنا ، ممتزجة بحياتنا ، مخلوطة بنفوسنا ، حتى لتغشى في النوم أحلامنا ، ولا تكاد في اليقظة تفارق أذهاننا . وهذا كله بفعل التعاون الوثيق بين القصة والتاريخ ..

بين التاريخ والقصة

هذه الحقبة التاريخية الخطيرة التي قام فيها هؤلاء الجند المرتزقة في قرطاجة بشورتهم الدموية المشيرة ، اجتذبت اليها الروائي الفرنسي الشهير « جوستاف فلوبر » وكان وقتئذ تحت تأثير الملل من استغراقه أربع سنوات طوال اختنق فيها بالجو الواقعي الثقيل الذي صحبه زمانا في نورمانديا بأقصى فرنسا الشمالية ، حيث كان يقضى سنوات حياته في قراءة الادب وحيث تمثل شخصيات تلك الآلة الاولى من رواياته وهي « مدام بوفاري » القصة الواقعية العصرية التي استقبلت حين ظهورها عام ١٨٥٧ أسسوا استقبال من القراء والقضاء معا ، وان كان تعرض القضاء للمؤلف كان بمثابة الاعلان للقصة التي ذاع بعد ذلك أمرها ، فتكرر نشرها وتعددت طبعاتها ، وترجمت الى سائر اللغات العالمية ، ومنها ترجمة كاملة باللغة العربية للأستاذ بولس غانم في سفر كبير

ولما كان فلوبر تقترن في طباعه ، مع الروح الواقعية

ممثلة فى ملكة الملاحظة ، روح الرومانتيكية ممثلة فى النزوع الى الخيال ، فقد كان الجو الواقعى العصرى للقصة الاولى « مدام بوفارى » دافعا للمؤلف على التطلع بعيدا عن جوها ، الى آفاق ابعد ، الى عوالم مثل عوالم الاحلام لفرط بعدها فى المكان والزمان ، مثل مصر القديمة التى زار آثارها سنة ١٨٤٩ على أمل تأليف قصة قديمة من وحيها . ولكن ، انى له بمعرفة مصر القديمة حق معرفتها وليس بالامكان الاحاطة بتاريخها الطويل وآلهتها الكثيرة ، وعلى الاخص فنها العظيم فى آثارها الخالدة العظيمة ، مع ما عليه فلوبير من عمق الشعور بصديق القول المأثور « الفن بعيد الشقة والحياة قصيرة المدة »

وسرعان ما انصرف الروائى الفرنسى بتفكيره عن مصر الى غيرها من بلاد الشرق الى فارس وأشور ، هنالك حيث يرمز الى الجبروت الملكى بتلك الثيران المجنحة وعلى رأسها التيجان المثلثة ، ثم الكهان وعليهم الطيالسة ذات الأهداب المذهبة ، والعلماء الاعلام من حملة الاقلام ذوو اللحي المصفرة المزرفنة فضلا عن تلك الصنفوف الكثيفة المدججة السلاح من المقاتلة . ولكن الباحثين من أهل التخصص الأثريين كانوا لم يفرغوا بعد من نفوذ الغبار عن معظم الآثار فى العواصم القديمة الفارسية

وأخيرا تراءت لخيال المؤلف الفرنسى من وراء ذلك المرتفع الداخل فى البحر الأبيض المتوسط ، تلك المدينة البحرية القديمة «قرطاجة» التى كانت وروما الخصمين اللدودين طوال أكثر من مائة عام استحكم فيها بينهما كالقدر المحتوم ذلك الخصام الذى لا سبيل معه الى السلام بعد أن تملكته شهوة الانتقام . وإذا كانت

قرطاجة آخر الأمر قد خرت صريعة ، فانها ما زالت في سجلات التاريخ الرومانى ذلك الكابوس الجميل المخيف الذى يتبارى في وصفه اعلام المؤرخين اللاتين وكأنه لا يزال يتحدى وراء غياهب الماضى بلادهم فيملكهم الاعجاب والروعة والهول معا ، وهم يستحضرون عظمة هذا العدو اللدود ممثلة في أساطيلها البحرية وجيوشها البرية وفي طليعتها الأفيال الأفريقية تحت أمرة هذا أو ذاك من عباقرة الحرب ، وبخاصة العملاق « هاميلكار برقة » وابنه « هانيبال » بطل الإبطال

وكذلك ما كان من مظاهر الثروة عند هذه « العدو الفنية » التى تزهو بما يزين عاصمتها من ضخام المعابد وفخم القصور ، ويعيش تجارها الأغنياء في النعيم البالغ حد الترف والبلذخ في الأرجوان والذهب ، بما يحوزون من خيرات البلاد وما يحمل اليهم من أقاصى المستعمرات ..

أمام هذه الصور من القوة والثروة التى كانت تمثلها ذكريات قرطاجة لم يكن يجد مؤرخو الرومان متنفسا لما لا يزال يأكل صدورهم من الحقد القديم الا أن يبالغوا في تصوير أمدائهم القرطاجيين في أبشع صور ذوى الشهوات المنحطين وأهل الفدر والقسوة المتوحشين ، لكى تظهر دولة روما الى جانبهم ، مهما ارتكب ساداتها من المظالم في حق الرعايا المحكومين ، ومهما أنزل قادتها من الويلات بالأعداء المهزومين ، في مظهر التمييز وحدهم بالحضارة والقانون ، والتميزين فوق ذلك بأنهم أهل المروءة وصفوة الكرماء المتسامحين

ولم يكن للروائي الفرنسى « فلوير » مندوحة من الرجوع الى تواريخ هؤلاء المؤرخين الرومان ، لعدم

وجود غيرها بين يديه ، وخاصة ان المؤرخ القرطاجي الذي كان يمكن المطالبة بالرجوع اليه غير موجود . ولكن فلوير الذي لا تخلو موضوعاته العصرية الواقعية من عنصر رومانتيكي في الصميم من مفاهيمها الخفية ، ما كان يسمعه الا الاستجابة للرومانتيكية كل الاستجابة امام موضوع يرجع تاريخه الى الزمن القديم ، وفي حقبة بطولية يحمى فيها القتال بين العمالقة الأبطال من شتى الأجناس ، ويلعب فيها الحب والجمال دورهما الفعال

لا عجب اذن أن يستجيب فلوير الرومانتيكي اشد الاستجابة للرومانتيكية ، فيتحول من الكاتب الروائي الى الشاعر الملحمي ، من الروائي الذي واجبه الاول الملاحظة وتسجيل الواقع ، الى الشاعر الذي له فوق ذلك حق الابداع والخلق . وليس الابداع والخلق هنا من العدم ، كما قد يزعم لأنفسهم بعض أهل الفن ، بل من المواد الكثيرة المتفرقة التي عكف الفنان على جمعها ، وبعد جمعها أطلق العنان لنفسه لظهار كل ما يكنه من النزوع الرومانتيكي ، ولو بلغت به شطحات الخيال الى المدى القصي ، واشتدت به الانفصالات الى الحد الهستيري . .

ولقد اعتمد فلوير فيما جمعه من معلوماته التاريخية عن ثورة الجند المرتزقة التي قام عليها صرح قصته « سلامبو » على المؤرخ الروماني « بوليبيوس » ، وهو أقرب المؤرخين الأقدمين عهدا بتلك الثورة وما بعدها ، وأوثقهم مصدرا لتاريخها بالنسبة الى المصادر الاخرى - ولكن الروائي الفرنسي لم يجد في هذا المصدر المتحفظ الوقور غير الخطوط العريضة العامة لمشروعه القصصي ، فأخذ يتصيد المعلومات عن قرطاجة

خاصة والشرق عامة من سائر المؤلفين ، من الأقدمين اليونان واللاتين ومن المحدثين الفرنسيين سواء أكانوا مؤرخين أم جغرافيين ، أو من علماء التاريخ الطبيعى أو الشعراء أو المتخصصين فى الفنون الحربية وغير الحربية ، أودى الخبرة بالحجارة الكريمة أو المشتغلين بالطب ، فضلا عن الرجوع الى تقارير الحفريات والكتابات الأثرية والموسوعات الكبرى

هذا جميعه فرضه المؤلف على نفسه ، ولكن هذا جميعه لم يكن كافيا لاقتناع ضميره فتكلف السفر فى أبريل سنة ١٨٥٨ ليرى بعينه رأسه موقع قرطاجة شمالى تونس وبطيل التامل فى آثارها ويتجول فى ضواحيها وأطرافها ، يسرح طرفه فى طبيعة أرضها وصفحة سمائها ، متنسما لوافح رياحها التى تسفو رمال الصحراء وتحمل وقدة رملاتها . وامتدت اقامته بين آثار قرطاجة ثلاثة أشهر طوال ، فلما عاد بعدها الى باريس قال وهو راضى النفس مطمئن البال : « انى الآن أعرف قرطاجة حق المعرفة »

وعكف فلووير منذ ذلك الحين أكثر من أربع سنوات على كتابة قصته عن قرطاجة أثناء ثورة الجند المرتزة ، معتمدا بوجه عام - كما أسلفنا القول - على الاحداث التاريخية التى رواها المؤرخ القديم بوليبيوس ، مع الاحتفاظ بالشخصيات التاريخية فى أدوارها الحقيقية سواء فى ذلك زعماء الثورة أو القادة من سادة قرطاجة نفسها أو بعض الحلفاء من زعماء فرسان البادية الكبرى الذين يعرفهم التاريخ باسم النوميديين

وحتى الشخصية النسائية التى أدار عليها العقدة الروائية فانها كذلك حقيقية من حيث كونها ابنة للقائد

القرطاجي العظيم هاميلكار والزوجة التي وعد بها
حليفه زعيم فرسان البادية الأمير نارهوا

وأما ما عدا ذلك من تفصيل للوقائع التاريخية ،
ورسم الملامح الجسدية والسمات النفسية للشخصيات
التي لم يسجل التاريخ غير أسمائها وأدوارها الرئيسية ،
ثم الكثير مما قيل في وصف المظاهر الحضارية والحياة
الاجتماعية وسائر ما يتعلق بالوقائع العاطفية والقصص
الغرامية ، كل هذا من نصيب فلوير ، وهو - كما قلنا
- لم يخلقه من لا شيء ، بل هو من قبيل التأليف
الفني للصور التي جمعها عن قرطاجة وما يشبه قرطاجة
من الشعوب القديمة السامية ، نفخ فيها المؤلف بعد
تأليفها من روحه الشعري وخياله الرومانتيكي وتصويره
الحسي ..

ولم يكتف بذلك بل أكثر من المؤثرات ، فكان من
تكديسها مع المبالغة في أحجامها ألوانها ما جعل اللوحات
الوصفية العظيمة لهذه القصة القرطاجية شبيهة
بالديكور المسرحي ، ثم جاءت مواقف الحب فيها كذلك
ذات تأثير ميلودرامي . وهذا يفسر لنا ما نالته هذه
القصة العظيمة من نجاح عظيم حين أعدت بعد ذلك
للاخراج على المسرح الفئائي ، ثم تضاعف بعد ذلك
نجاحها حين أخرجها على الستار الفضي أعلام الفن
السينمائي ..

وليمة في قصر هاميلكار

وراء أسوار قرطاجة في حدائق قصر القائد هاميلكار
في ضاحية « ميجارا » ، يقيم المجلس الأعلى وليمة من
قبيل الاسترضاء والتهذئة للجيش الجرار من : الجند
المرتزقة من شتى الاجناس الذين تعذر على الدولة أن

تؤديهم اعطياتهم المتأخرة . .

وقد اقيمت الوليمة في غيبة هاميلكار وان كانت على نفقته ، وذلك تحت شعار الاحتفال بالانتصار الذي أحرزه مع جنوده بالاستيلاء في غربى صقلية على المدينة الحصينة « أريكس » التي اتخذها مقر قيادته ، وأقام مع جنوده أربع سنوات بها يقطع الطريق على الرومانيين

وكان من الطبيعي في مثل هذه الوليمة ان نرى هؤلاء الجند المحرومين الناقمين يفرطون في الأكل وخاصة في الشراب ، ومن بعدها يأخذون في العريضة فيشبع كل بعضهم النار في أشجار الحديقة ، وينشل بعضهم السمك المقدس من البركة وينضجونه ويأكلونه امعانا في انتهاك الحرمات ، وينقض آخرون على سجن الأسرى العبيد يطلقونهم ، وما الى ذلك من ضروب الشغب والتخريب

ويصل هذا الى مسامع ابنة هاميلكار في القصر . . وهي سلامبو الفتاة العذراء المحتجبة عن الناس المنعزلة ، ذات النزوع للتصوف الدينى ، المنصرفة الانصراف الكلى الى عبادة « تانيت » آلهة القمر ، فلم يسع ابنة هاميلكار الا الخروج الى الجند لتزجرهم عن سوء فعالهم وتهديء من ثورة نفوسهم

وها هو ذا القصر فجأة أضىء من أعلى سطوحه ، وفتح الباب الاوسط ، وبدأت على عتبة فتاة حسناء متشحة بالثياب السود ، ثم أخذت تهبط درج الطابق الأعلى ، فالذى بعده ، ثم الذى يليه ، حتى استقرت على الشرفة التى تعلو سجن العبيد

وهنا وقفت محنية رأسها ، لا حراك بها ، تنظر الى الجنود . وكان يقف وراءها وعلى جانبيها كهنة الربة « تانيت » ، وهم ممدودو القامة ، شاحبو اللون ، لا

لحى لهم ولا شوارب ولا شعر ، انهم من الخصيان ،
تتلا الخواتم فى أصابعهم ، وفى أيديهم عيدان يوقعون
على موسيقاها التساييح الدينية للربة

وبعد فترة تحركت سلامبو للنزول الى الحديقة
يتبعها الكهنة ، فمشيت متباطئة ، سالكة طريق اشجار
السرو ، ما بين موائد الضباط الذين كانوا يوسعون
لها فى مرورها وهم يرمقونها

واخذت سلامبو بنت هاميلكار تمشى الهوينى ،
محنة الرأس ، ممسكة بيسراها بعود صغير من خشب
الابنوس ، وهى تردد التساييح للربة بصوت مهموس
وكان الجنود يتجمعون حولها وينصتون . كانوا
لا يفهمون ما تقول ، ولكنهم كانوا معجبين بملامح محياها
وجمال حلاها . فالقت عليهم واحدا بعد واحد نظرات
ملؤها الرعب ، ثم مدت ذراعيها وصاحت بهم كالمعاتب
مرارا :

— ما هذا الذى فعلتموه ؟ ما هذا الذى فعلتموه ؟
واشتدت نبرة صوته ، واتقد خداها فى غضب
وتقريع :

— أين أنتم هنا ؟ فى مدينة مغلوبة على أمرها ، أم
أنتم فى قصر سيدكم ؟ السيد ، وأى سيد ! والذى
الزعيم هاميلكار خادم الآلهة الكبار . هل عرفتم قائدا
فى أوطانكم يساويه حنكة فى تسيير الجيوش وكسب
المعارك . انظروا الى سلام قصرنا هذه تروها مليئة
بآثار انتصاراتنا

ثم اخذت تتغنى بأساطير الآلهة وأمجادها ، ولم يكن
يفهمها الجنود الافريقيون من قبائل البربر ، فقد كان
كل اهتمامهم منصرفا الى الفتاة ينظرون اليها ، وكان

أكثر هذه الجموع التفاتا وتحديقا إليها أمير شباب من
النوميديين يجلس الى مائدة من الموائد ولم يكن من
الجند المرتزقة بل ضيفا من الضيوف المختارين . وكانت
منطقته مشكوكا فيها عدد من الحراب القصار ، وكان
رداؤه الثمين يخفى وجهه فلا يبدو منه الا بريق عينيه
المحدثين في الفتاة

وغير بعيد منه ، في صف آخر من الموائد ، ضابط
من المرتزقة ليبي ، مدبد القامة ، ضخم الهيكل ، جعد
الشعر ، لحيته قصيرة لا يرتدى الا سترته الحربية
التي كانت النصال الحديدية المثبتة فيها تمرق ارجوان
المقعد المتكىء اليه . وقد تدلت على صدره قلادة تضل
في كثيف شعره ، وكان متكئا على مرفقه محملى العين ،
يتسم فاجر الغم

وكان هذا الضابط الليبي « ماتو » أسرع الجنود
المرتزقة انعطافا اليها واقبالا عليها ، فتقدمت ابنة
هاميلكار بحركة لا ارادية وقد مازجت كبرياءها عاطفة
من عرفان الجميل ونزوع الى حسن السياسة . فصبت
له في كأسه خمرا وقالت : « خذ واشرب » . فما كاد
يهم بتناول الكأس حتى انتصب الأمير النوميدي
« نارهوى » واقفا ، وأخرج من منطقته حربة ورمى
بها « ماتو » فمرت وهى تصفر بين الأكواب ، ونفدت
من ذراع الليبي الى السماط فسمرتها فيه تسمرا .
فأسرع « ماتو » بانتزاع الحربة ، وحمل المائدة المثقلة
بالصحاف والماكولات بكلتا يديه على الرغم من اصابته ،
وقذف بها ناحية « نارهوى » . وبين ذلك الحشد من
الجموع الذى اشتد فيه الهرج والمرج حاول « ماتو »
أن يشق طريقه الى حيث كان الأمير ، ولكنه كان قد

اختفى ، كما اختفت كذلك سلامبو

ومنذ ذلك الحين ، والفتى الليبى لا تفارق عينيه صورة سلامبو فى أبهتها وكبرياتها ورقة جمالها وغموض سحرها ، وقد صار ما به فى الحب لها ، أقرب شىء الى الجنون ..

وكان الجند المرتزقة حين ثارت ثائرتهم - بعد ما كان من سكرهم وعريدتهم فى الوليمة التى اقيمت لهم فى حدائق قصر هاميلكار أن هجموا - كما قدمنا - على سجن الأسرى العبيد واطلقبوا سراحهم . وكان من بينهم أسير قصير القامة مكر ذكى ، يجيد عدة لغات منها اللغة القرطاجية ، كما يعرف الكثير عن قرطاجة ، وهو الاغريقى « سبندىوس » الذى شهد مع من شهدوا اصابة الضابط الليبى « ماتو » بالجرح البليغ فى ذراعه ، من جراء اعجابه بالعداء سلامبو ابنة هاميلكار فتبعه بعد الحادثة متطوعا بتضميد جرحه . وانتهز هذه الفرصة للتقرب منه بخدمة غرامه الجنونى ، ليتمكن من الاستيلاء على مقاده للبلوغ الى غرضه الحقيقى من وراء ذلك ، وهو الثأر لنفسه من قرطاجة ، وشفاء ما يأكل قلبه من الحقد على هاميلكار قائد القرطاجيين

وفى أثناء سيرهما أخذ سبندىوس يصف للضابط الليبى ما فى قرطاجة من الخيرات ، وما عندها من ثروات . ثم انتقل من ذلك الى التلميح ثم الى التحريض الصريح :

- ان معك هنا رجالا اقوياء أشداء بلغ بهم الحقد الذى يحملونه لقرطاجة حده الاقصى ، وأوشك رجل هذا الحقد أن ينفجر ... ولا غرو ، فلا شىء يربطهم بها : لا الأسرة ولا الآلهة ولا الايمان المغلظة . فإذا أردت ،

أصبحنا حكام الاقاليم نروح ونغدو في ثياب الارجوان .
فماذا تنتظر ؟ تنتظر جزاءهم لك بالنعيم المقيم في يوم من
الايام او على الأقل بالراحة ؟ اجل ، قد يكون ذلك يوم
ينزعون عنك درعك ليلقوا بجثتك طعاما لجوارح الطير ،
او يوم تخرج من قتالك من أجلهم تتكىء على عكاز وانت
اعمى أعرج عاجز ، تقرر الابواب متسولا تقص احاديث
شبابك على الصغار وعلى بائعى السمك .

— ان رجلا شجاعا مثلك لو يفعل ما هو الاجدر به لكان
له السلطان والثروة ومعهما الحياة الهنية في مقاصير
القصر يستمتع الى الانفسام الشبجية ، ومن حوله
المضحكون ، وفي احضانه اجمل النساء . فما يمنعك ؟
ما الذى يقف في وجهك ؟ ان هاميلكار بعيد متغيب وكل
من عداه هنا من الضعاف الجبناء . فسر على رأس
هؤلاء المرتزقة المتدمرين من المماطلة في دفع متأخر
اعطيائهم والخلف بالوعود المدولة لهم . كن لهم نعم
القائد ، فانهم لياتمرون بأمرك . هيا بنا ننقض على
قرطاجة ، تكن قرطاجة لنا

ولحق الاثنان بالجند المرتزقة ومعظمهم من البربر .
وكانت السلطات في قرطاجة قد أمرت بان ينقد كل
منهم قطعة من ذهب ، على شرط ان يرتحلوا عن المدينة ،
ويعسكروا بعيدا في الجنوب الغربى منها في بلدة
« سيكا » — (وهى المعروفة الآن بالكاف) — بعد ان
منوهم اجمل الامانى ، وزادوهم من مصول الوعود

في ارض المنفى

انخدع الجند المرتزقة بحيلة الحكام القرطاجيين
وارتحلوا ، وكان خروجهم صفوفا ولكنها كانت صفوفا
غير منتظمة ، اختلط فيها الحابل بالنابل ، والفرسان

بالمشاة ، والضباط بالجنود من شتى الاجناس ، وقد
ملأوا الشوارع حتى ضاقت بهم ، وحتى كادت تنقوض
جدرانها وهم يمرون كتلا متراسة امام البيوت

وخيم الليل ، وتراءت للجند أنوار قرطاجة وقد
غادروها في طريقهم البعيد الى منفاهم « سيكا » .
وأخيرا بعد مسيرة سبعة أيام في ثنايا الجبال ، داروا
جهة اليمين ، فإذا بصف مديد من الاسوار قائم على
صخور بيض ، ووراءه مدينة سيكا المقدسة . وكان
معبد الربة « تانيت » يشرف من أعلى سيكا وقد
ارتفعت أعمدته الحديدية وسطوحه الذهبية . وكان
طبيعة الارض هنا بوهادها ونجادها ، وتقليات مناخها
وغرائب نباتها وأشكال أزهارها ، وخاصة جبالها ٠٠ وكانها
صدور النساء عارية بارزة الائداء ٠٠٠ كل هذه المشاهد
كانت مظاهر التجلى في هذه البلاد لروح « تانيت » ربة
الحب بمختلف أسمائه وأوصافه

في هذه المدينة ، اضطربت نفس الضابط الليبي
« ماتو » ، وصارت تفشاه نوبات من الدهول ثم أخذت
هذه النوبات تطول .

وأخيرا رفع السيد رأسه ومال نحو تابعه الاغريقي
بعينين زائفتين ، وقال له بصوت خفيض أجش وقد
وضع سبابته على شفتيه :

— ان ما بى من غضب الآلهة . ان ابنة هاميلكار تقتفى
خطاى . لاشك في انى ضحية محرقات وعدت بها
الآلهة . انها تربطنى بقيد خفى غير منظور . اذا مشيت
مشيت ، واذا وقفت وقفت . ان عينيها تحرقانى . انها
تحرق بى ، انها قد حلت بى وملكتنى ، لقد أصبحت
هى ذات نفسى . ومع ذلك فانى أحس أن بينى وبينها

أمواج بحر محيط لا خد له ولا قرار ... »
فقال « سبنديوس » مشفقا على مولاه :

— كن رجلا قويا يا مولاي . يعز على أن أراك تبكى .
ألا يحقرك أمام عينيك أن تتعذب وتتلوى في سبيل
امرأة ؟

— لا . لا . ليس فيها ما يغيرها من بنات الانس .
أرايت عينيها الكبيرتين تشعان تحت حاجبيها المقوسين
كالشمس تبدو من تحت أقواس النصر . ألا تذكر ساعة
طلعت في الحديقة أثناء الوليمة كيف تضاءلت أنوار
المشاعل واصفرت ؟ ألا تذكر تلك المواضع العارية من
صدرها بين ماسات عقدها كيف كانت أشد لمعانا ؟ ثم
شدا المعابد الذي كان يتضوع وراء أذيالها المجرورة ؟ لقد
كان ينبعث من كيائها كلها ، من كل ما فيها ، شيء اللد
سكرا من الخمر ، وأشد هولا من الموت ...

وظل مشدوها جامد الحدقتين ، ثم صاح :

— انى لا كاد أموت شوقا وحنينا اليها . وإذا تخيلت
أنها بين ذراعى أضمها ، تملكتنى من سورة الفرح هزة
لا قدرة لى على احتمالها . ومع ذلك ، فانى أمقتها ،
وبودى لو أوسعها ضربا . لقد قلت لى يا « سبنديوس »
أنك كنت عبدا لها ، وأنه كان فى إمكانك أن تلمحها وهى
تصعد كل ليلة على سطح قصرها فى قرطاجة لتنعبد للربة
ثانيت ، للقمر الذى أعارها شحوبها ، أليس كذلك ؟ قل
لى اذن ، أما رأيت — ليلة ذاك — الحجارة تهتز شوقا
تحت قدميها ، أما كانت الكواكب تنحط لتنظر اليها ؟

وكان البربر يقضون الايام ، وهم يعيدون حساب ما لهم
عند حكام قرطاجة من الاجور ، يعيدون حسابها خطوطا
على صفحات الرمال ، أو عدا على أصابع اليد ، انتظارا

للمندوب الذى وعدوهم بايفاده من قرطاجة ، يحمل اليهم السلال على ظهور البغال ملؤها الذهب . .

واخيرا سمعت جلبة تقترب من المعسكر ، ولاحت محفة كبيرة مكسوة بالارجوان ، ومزدانة الجوانب بريش النعام . ونزل منها متساندا على اثنين من العبيد ، رجل ضخيم الجثة منتفخها ، جامد الحركة بطيئها ، عرفوا فيه الزعيم الاخر القرطاجي « هنون » الذى كان جموده وبطؤه سببا فى خسارة معركة جزائر « اجات » ، وجعل يخطبهم بالقرطاجية التى لا تفهمها جموعهم ، واخيرا انفرد بالضباط ، واخذ ييسط لهم المسئوليات والاعباء الملقاة على عاتق الجمهورية بعد الهزيمة التى انزلتها بها روما ، وكيف ان الفرامة الحربية التى فرضها عليها العدو المنتصر قد افقرتها وتركت خرائنها خاوية

وما ان علمت جموع البربر بفحوى ما كان يقول ، حتى نفد صبرهم ، وعلت أصواتهم بالتدمير والاحتجاج . . ثم جاءتهم الاخبار بما هو شر من ذلك ، وهو ايقاع القرطاجيين بمن تخلفوا من زملائهم الجنود البليسا فى قرطاجة ، وتقتيلهم خيانة وغدرا ، ففلت مراجل غضبهم ، ونادوا بالزحف على قرطاجة وقد جن جنونهم . فآخذوا ينتزعون عمد الخيام ، ويشدون امتعتهم ويسرجون خيلهم . ولبس كل منهم خوذته ، وتقلد سيفه او اعتقل رمحه . ودخل سبنديوس العبد الاغريقى على « ماتو » فى خيمته ، وصاح بأعلى صوته :

— هيا يا مولاي ، لقد انعقد الاجتماع فى المعسكر كله على السفر
— الى أين ؟

— الى هناك ، الى قرطاجة

فوثب « ماتو » من مكانه الى حيث كان ينتظره جواده ،
فامتطاه ، والى جانبه سبنديوس على جواده ، وانطلقا

حصار قرطاجة

بلغ من شدة غضب الجند المرتزقة الشائرين أن قطعوا
المسافة بين سيكا وقرطاجة في ثلاثة أيام
وكانت العاصمة ذات أسوار منيعة ، أوصدت أبوابها
الضخام في وجه هذه الجموع
وكانت تحصيناتها تمتد على طول البرزخ ، كما كان
من حولها خندق ، وعلى أسوارها أبراج ذات شرفات
للمدافعين ..

ومن وراء هذه السدود المانعة ومعدات الدفاع الرادعة
تبسط المدينة بيوتها ذات الأشكال المكعبة ، وترتفع بينها
المعابد الفخمة الرائعة ، وتترج الشوارع العديدة
الضيقة ، وتنفس الميادين الرحبة الواسعة فضلا عن
الأسواق العامرة . والمدينة كلها تعج بالناس حتى ليسمع
عجيجهم خارج الأسوار

وكان منظر قرطاجة بصورته تلك يهيج البربر . كانوا
يعجبون بها ويكرهونها ، كانوا يتمنون في وقت ما أن
يمحوها من الوجود ، وإن يسكنوا منها في مثل الفردوس
الموعود ..

وفي مثل هذه الحالة النفسية بل أشد منها كان
« ماتو » المهتاج المصاب من النعمة على طول الحصار
والبقاء خارج الأسوار

وفي ذات مساء ، مضى سبنديوس ومعه سيده ماتو
الى شاطئ البحيرة ، وهنا قال له :
إذا كنت مقداما شجاع القلب ، فاني سأقودك الى
حيث تكون داخل قرطاجة . وفي اليوم التالي بعد مغيب

الشمس ، كان الاثنان عند القناطر الحجرية للقناة التي تشق الجبل حاملة المياه الى قرطاجة . فأنحدر اليها الرجلان ، وألقيا بنفسيهما في التيار . ولم تلبث القناة أن ضاقت ، فصارت تصطدم صخور جانبيها بجسميهما وتمزق جلودهما ، وفي بعض المواضع كان سقف السرداب يطبق عليهما ، فيضعان راسيهما تحت ابطيهما ويفوصان في الماء حتى القاع . وبعد خطوب لا عداد لها ، ولا يتسع المجال لوصف هولها ، انتهز الرجلان بلوغهما آخر القناة واجتيازهما بعض المنافذ التي تغطيها شبكة من القضبان الحديدية ، فعالجاها حتى انفتح جانب من الشبكة الحديدية ، فاذا بهما على درج سلم ، صعدا منه الى حيث أمتلات رثتاها بالهواء الطلق ، وكان الليل ساكنا وقرطاجة كلها نائمة .

معبد تانيت

وسار الرجلان يجرران أرجلهما ، فاذا هما أمام معبد تانيت . فاراد « ماتو » أن يمضي قدما نحو قصر هاميلكار حيث سلامبو ، فاستوقفه الأغريقى وقال :

— أيها السيد ، ان في قدس هذا المعبد ، معبد تانيت ، وشاحا هبط من السماء يغطى الربة ، وهذا الحجاب مقدس لانه جزء منها لا يتجزأ
— انى أعلم ذلك

— اذن ، فاعلم انه اذا كانت قرطاجة قوية ، فلانها تملك

هذا الوشاح

ولم يكن هذا الذى قيل صادرا عن اعتقاد سبنديوس ، بل صادرا عن اقتناعه بأن القرطاجيين بحكم اعتقادهم الراسخ فى الوشاح سيملكهم اليأس لا محالة ويستسلمون للهزيمة اذا صار وشاح الربة الى غيرهم

كان هذا هو الهدف البعيد الذى من أجله مال
« سبنديوس » ناحية سيده ، وهمس فى أذنه :

— لقد جئت بك معى لتخطف هذا الوشاح

— اثم فطيع !

— ان قوة قرطاجة ستصبح بين يديك

عندها صاح ماتو :

— اذن هيا الى المعبد

وكانت الفرصة مواتية فى تلك الليلة ، لانها ليست من
الليالى القمرية ، كما ان الطقوس فى مثل هذه الليالى تكون
معطلة والمعبد خاليا من القائمين على خدمته

ولم يكن يدور فى خلد أحد فى قرطاجة ، ان فى الامكان
ان يقدم انسان ايا كان على نزع الحجاب عن الربة .
ولذلك لم تتخذ أدنى حيلة لمنع مثل هذه المقامرة لاستحالة
وقوعها ، بل مجرد خطورها على الاذهان . ان الرهة من
الالهة فى كل مكان تحمى المعابد أكثر مما تحمى الجدران ،
وخاصة الرهة من الربة « تانيت » وذلك الرعب الشديد
من لعنتها الكبرى التى لا بد فى العاجل القريب ان تميت
المخطيء شر ميتة

ولكن ذلك العدوان الذى لم يكن فى الحسبان قد وقع .
لقد امتدت يد المارد الجبار « ماتو » بتحريض القصر
المكار « سبنديوس » الى نزع الحجاب المقدس عن الربة ،
وكان وشاحا خفيفا شفافا ، يبدو فى وقت ما أزرق
كالليل ، أصفر كالفجر ، أرجوانيا كالشمس .

وها هو ذا الوشاح المقدس الذى ما كان يجسر أحد ان
ترفع اليه عيناه قد انتزعه « ماتو » . ولما أصبح فى حوزته
أدخل رأسه فى فتحة ، ثم لفه حول جسده فأبحا ذراعيه
ليزداد تأملا فى بهائه وتمتعا برؤية لآله

وقال سبنديوس : « والآن ننصرف »
وظل ماتو في وقفته وهو يلهث وعيناه محمقتان ، وفجأة
تحرك وكان خاطرا وثب الى باله :
— ولكن ماذا لو ذهبت اليها ؟ انى لم أعد اخشى
جمالها .. ما الذى يمكن أن يكون فى مقدورها الآن ؟ انى
الآن أكثر من رجل . سأقتحم النيران ! سأمشى على موج
البحار ! انى أحس بدافع يدفعنى ... سلامبو ! سلامبو !
أنا سيدك

وكانت قامته كأنما طالت على طولها ، وكان صوته
يدوى كالرعد . وفجأة سمع وقع خطوات تقترب ، وفتح
باب ، وولج منه كاهن يتطلع الخبر ، فعوجل بطمئة خنجر
قاتلة . وتسلسل ماتو وتابعه الى خارج المعبد

فى مخدع سلامبو

وكان على سبنديوس أن يتجه مع ماتو الى قصر
هاميلكار . وكانت آثار عريضة الجند المرتزة ابان الوليمة
لا تزال بادية فى الحديقة . واتجه الرجلان فى حذر نحو
القصر ، ورفع ماتو رأسه فخیل اليه أنه يلمح بصيص نور
فى اعلاه ، فاندفع الى السلم وعبثا حاول « سبنديوس »
أن يستوقفه . وأخذ يرتقى الدرج حتى بلغ الطابق الاخير
الذى كان يبدو فى ضيقه كأنه قمع الخياط فوق ذرى
السطوح ..

وهنا دار ماتو شديد الحذر متمهلا .. وما أن وقع
نظره على بصيص من إحدى الكوى فى جدار مقصورة ،
حتى عرف أنها مخدع سلامبو ، ووثب قلبه فى صدره .
ولكنه دفع الباب فانفتح
وكان فى أقصى الغرفة سرير من ذهب ، فوقه كلة زرقاء
شفافة ، وعليه فرش أحمر ، وقد انعكس النور الخافت

على قدم عارية شديدة البياض ناحلة . فتناول ماتو المصباح بلطف ، وادناه من السرير . فاذا سلامبو ابنة هاميلكار « عذراء تانيت » نائمة وخدها على يدها ، والذراع الاخرى مبسوطة ، وشعرها الاسود متهدل منشور حولها . وقميصها الفضفاض ابيض من نسيج ناعم ينسدل عليها في طيات تتناسق مع تقاطيع جسمها المبتل الالهيف . فوقف « ماتو » عاكفا على النظر اليها وببده المصباح ، فاذا النار تشب في الكلة الزرقاء الشفافة وتنطفئ في الحال . فتهب سلامبو من نومها . وقبل ان تنبس بحرف ، تكون على بصيص المصباح قد لمحت الوشاح امامها ، فتهمس كالحالة :
— ما هذا الذي اراه ؟
— وشاح الربة ؟

فتصبح مرددة مستنكرة « حجاب الربة »
وقد انكأت على قبضتي يديها ومالت الى خارج السرير وهي ترتعش . فيجيب « ماتو » متوددا :
— لقد جئت به من قدس المعبد . وهل كان في امكاني ان اجترئ على الدخول عليك لولاه ... لنرحل ، يجب ان تتبعيني ، أو ابقى هنا اذا لم تريدي اتباعي ... أنا احبك . .
فتمتمت العذراء ، وهي تحلق النظر في الوشاح ، ونور الفجر قد لاح :
— اعطنيه . .

واقتربت في قميصها الابيض الضافي الدليل ، وعيناها الكبيرتان محمقتان الى الوشاح ، و « ماتو » جالها بحمق فيها مبهورا بجمالها ، ثم مد اليها بيديه طرف الوشاح وقد هم في اللحظة نفسها ان يحتضنها ،

فدفعت ذراعيه . ولبثا برهة مبهوتين صامتتين يتبادلان النظرات . وكانت لاتدرك كنه مايريد منها في تلك اللحظة ولكن غلب عليها السرعب والاشمئزاز ، فقطبت ما بين حاجبيها النحيفتين ، وضربت - وهى تنتفض - على نحاسة معلقة تطلب الموكلين بخدمتها ، وصاحت بملء فيها :

- الى الوراء ايها الدنس المرذول ! الى الوراء ايها الكافر الملعون !

واقبلت الجوارى فأخذن يولولن ، فجاء على صراخهن الخدم والعبيد يهرولون الى المخدع ، وبأيديهم الحراب والهرافات . وهموا بالانقضاء عليه ، ولكنها استوقفتهم في جزع :

- لا تلمسوه ، فهذا حجاب الربة
وخطت نحوه خطوة وقد مدت ذراعيها العاريتين ثم
صاحت به :

- لتحل اللعنة عليك يا سارق تانيت . لتنزل الربة بك مالا طاقة لك به ، من البغضاء والالم والارزاء ومن بعدها الموت الزؤام كأقطع ما يكون الانتقام
فأرسل « ماتو » صرخة كمن أصابته ضربة سيف

وعادت سلامبو تكرر صارخة « اذهب .. اذهب »

وانتحي الحشد الحاشد من الخدم والعبيد ناحيته .
ومر « ماتو » بينهم بخطا وئيدة وهو منكس الرأس .
ولكنه توقف عند الباب اذ علق ذيل الحجاب ببعض النجوم الذهبية المسمرة في البلاط ، فشده بعنف .
وانحدر الى السلم ومنه الى الطريق العام

وما لبث الناس أن شاع بينهم الخبر وعرفوا حقيقة ما وقع ، فشملهم السخط والغضب وعلت جلبتهم ،

ولكنهم على الرغم مما تسلحوا به من الفئوس والعصى والسيوف . لم يجرؤوا على مد أيديهم إليه . وهو متلفع بوشاح الربة الذى يؤمنون بأن رؤيته اثم كبير ، ولملمسه موت مهلك ..

وعلى هذه الحال بلغ ماتو الباب الكبير ، فإذا به مغلق . كان من خشب متين ، كما كان متناهيا فى العلو . فحل به اليأس حتى أحس بالدوار وكاد يغيب عن وعيه . ولكنه لم يلبث أن لمح سلسلة الحديد الطويلة التى يتخذها الموكلون بالباب لشد المزلاج . فوثب « ماتو » إليها وتعلق بها موترا عضلاته . وبعد لأمى انفرج الباب الضخم ، فانفلت منه الى الخارج

ولما صار فى الخارج ، خلع الوشاح المقدس عن رقبته ورفعه عاليا فساعدت الريح على انتشاره ، كما ساعد نور الشمس على تألقه ولمعانه . وفى هذه الحماية القدسية سار « ماتو » فى أمان حتى بلغ خيمته فى معسكر الثوار ، بينما كان شعب قرطاجة فوق الاسوار ينظر الى كوكب سعد قرطاجة موليا مع وشاح الربة ، مؤذنا بأن حظهم مند اليوم فى انحدار وادبار

الحلف الكبير

كان الجيش قد حيا « ماتو » بالهتاف العظيم لما عاد وهو يحمل حجاب الربة ، حتى ان أولئك الذين لا يدينون بالديانة القرطاجية ، أحسوا وهم يشتركون فى الهتاف أن هنالك ربة أقبلت عليهم

وعند المساء ، خلا « ماتو » فى خيمته بتابعه « سبندىوس » ، وكان قدلقى الوشاح فى ركن من أركانها ووضع فوقه جزء من الصوف ليخفيه وسرعان ما سمعت همسات ، وبدت مشاعل تتقدم

فارسا بعد ترجل ، وترجل معه ثلاثون من الاعوان ، وكانوا يرتدون أردية من الصوف الابيض ، ويتمنطقون بخناجر طويلة ، والجميع مقبلون على خيمة « ماتو » حيث وقفوا على العتبة متكئين على رماحهم ، على حين دخل رئيسهم ، وكان رئيسهم أرشقهم قامة وأجملهم شكلا ، تزين ذراعيه النحيلتين سيور رصعت بالآلئ ، ويحيط برأسه أكليل من ذهب يتدلى من تحته على كتفيه اللقاع الحريري . وهو يبتسم ابتسامة عريضة تكشف عن بريق أسنانه البيض النضيدة ، كما تلتمع عيناه حادثين كراءوس السهام . وكان مظهره فى جملة يتم على اليقظة وخفة الحركة ..

لم يكن هذا الرئيس الفارس الذى قدم الساعة على «ماتو» الا ذلك المزاحم الذى لقيه فى الوليمة ، وكان بينهما ما كان عند مرور سلامبو بين صفوف الضباط فى الحديقة . انه أمير التوميدنيين « نار هوى » يعلن أنه جاء للوقوف الى جانب جيش المرتزقة الثائر لان قرطاجة ما برحت ماضية فى سياستها التى تهدد ملكه فمن مصلحته مساعدة الثائرين عليها وامدادهم : « سأمدكم بالوّن والسلاح لتشدّدوا الحصار ، سأمدكم بالافيسال ، وبالالوف من الفرسان ، واذا كنت يا « ماتو » أوجه الكلام اليك فذلك أن استيلاءك على حجاب الربة قد جعلك المقدم الاول بين رجال الجيش . فلنكن صديقين حليفين »

وأظهر ماتو الموافقة ، وأجريت الرسوم المعتادة توثيقا لهذا الحلف ..

واجتمع ماتو ، ونار هوى وسبنديوس ، وأرسلوا الوفود الى جميع القبائل النازلة فى البلاد القرطاجية للانضمام الى الثورة . وكانت قرطاجة تضرب على هذه

البلاد فادح الضرائب ، وكان التكبيـل بالاغلال فى
السجون أو قطع الرؤوس بالفتوس أو الموت البطيء صلبا ،
هو عقاب المتأخر عن الوفاء ، وميله التساكى المتدثر سواء
بسواء . ولهذا كانت هذه الدعوة الى الثورة مستجابة
وهكذا تكاثرت الجموع الوافدة للانضمام للثورة ،
فتعاظمت قوتها ، وأصبح لا مناص من تقسيمها الى ثلاثة
جيوش توزع على القيادات الثلاث . وبلغ بذلك عدد
الثائرين ثمانين ألفا على وجه التقريب

الكاهن الاكبر

شدد الجند المرتزقة الحصار على قرطاجة فاشتدت
مطالبة أهلها بعودة الزعيم « هاميلكار » أكبر قوادهم الى
العاصمة ليتولى بنفسه الدفاع عنها
وما أن رست سفينة هاميلكار على شاطئ قرطاجة حتى
احتفل بمقدمه أهل قرطاجة احتفال الانتصار . وبالفعل
استفتح هاميلكار أولى معاركه مع الثوار فكان النصر
حليفه . ولكن النصر لم يدم ، فقد تلاه الانكسار بعد
الانكسار ، على الرغم من تقديم القرابين ، حتى الادمية
منها - الى ملك الالهة البعول « ملوخ » ومن ثمّة عاد
الشعب يردد القول بأن فقدان قرطاجة وشاح ربتها
« تانيت » وانتقاله الى حوزة الثوار هو علة ما حل
بالقرطاجيين وهاميلكار أكبر قوادهم من تلك الهزائم
المتكررة ..

وكان على الكاهن الاكبر للربة « تانيت » أن يجد
السبيل الى علاج أزمة اليأس التى استولت على القرطاجيين
وأفقدتهم الثقة بأنفسهم وبالنصر ، منذ فقدت قرطاجة
حجاب ربتها ، رمز الخصب والحياة ، ولم يكن هنالك
بطبيعة الحال أى سبيل لاستحياء الأمل الميت ، وإعادة

الثقة المفقودة الا باستعادة الحجاب المقدس بأية حيلة
أيا كانت الوسيلة

وكانت ابنة هاميلكار « سلامبو » أولى عذارى الربة
« تانيت » . فهي واقعة تحت تأثير كاهن الربة الأكبر
« شاهبريم » وهو كهل واسع المعرفة ، مطلع على أسرار
الالهة ، حتى لا تكاد تخفى عليه خافية ، ثم هو قد أفنى
جسده بالعبادة والتهجد حتى أصبح شديد النحول
والذبول ، جلده بارد الملمس ، وجهه أصفر وجمجمة
الرأس معوجة . يكاد الناظر اليه يحسبه من الاموات لولا
عينان له تلتمعان كسراجين معلقين على قبر

فلا غرو ، اذا اتجه تفكير الكاهن الأكبر الى سلامبو
العدراء خادمة الربة في هذه الازمة ، فأخذ ينتقل في
الحديث معها مبتدئا بما يجره تدنيس الاشياء المقدسة
من الكوارث ، ثم انتقل فجأة الى التحدث عن الخطر
المهدق بوالدها القرطاجي الذي تهاجمه الان ثلاثه حيوش
يقود أكبرها « ماتو » الذي أصبح في نظر القرطاجيين
شبه ملك على البربر لحيازته الحجاب المقدس .

وأخيرا استطرد شاهبريم الكاهن الأكبر وقال :
— ان سلامة قرطاجة ، واخلاص أبيك هاميلكار يتعلقان
بك وحدك . .

فقالت في دهشة : « بى وحدى . . كيف ؟ »
وأطال الكاهن السكوت وهي تعيد السؤال وأخيرا
قال :

— اذهبي الى « ماتو » في معسكر البربر ، واستردى
الحجاب المقدس

تحت الخيمة

كان الدليل انذى أمره كبير الكهنة بمصاحبة سلامبو ،

رجلا من أهل ثقته من خدمة معبد « تانيت » يعرف معالم الطريق . وقد امتطى كل منهما جوادا وانطلقا فى بكرة الصباح لا يتوقفان . وقد غطت سلامبو شعرها ، وأدارت بقبة الغطاء على هيئة اللقاع على وجهها الساحب ، فكانت تبدو كالغلام المريض فى صحبة الدليل . ولما خيم الليل كان المبيت على شروج الخيل تحت قبة حظيرة فى الخلاء لامرأة ساحرة . ثم استأنفا السفر من بكرة الصباح . وما زالا يركضان الخيل طوال النهار ، حتى اذا أقبل الليل وكاد ينتصف كانوا على مقربة من معسكر أبيها هاميلكار ، فمالا بعيدا عنه . وأسرعوا حتى تجاوزوا الى معسكر بعيد فى مواجهته ، يبدو أكثر عددا ، وان لم يكن أكثر عدة ..

انه معسكر البربر ..

هنا تركها الدليل تتقدم وحدها . وكان فى أعلى برج الحراسة ديدبان جعل يأمرها بالوقوف ، فلما لم تقف رماها بسهم طويل أصاب أسفل معطفها ، فظلت تصرخ فظنها قد أصيبت ، فاقترب ، فقالت له :

— أريد التحدث الى القائد « ماتو » . وأردفت ذلك بقولها : « انى هاربة من قرطاجة »

وانتظرت سلامبو طويلا ..

وأخيرا كان القائد أمامها يسألها ما تريد ، فقالت :

— لا أستطيع الكلام هنا . خذنى الى خيمتك

فلما صارا فى الخيمة ، قال ماتو : « من انت ؟ »

فلم تحر جوابا . بل أخذت تقلب طرفها فيما حولها ، فرأت فى أقصى الخيمة على سرير من سعف النخل شيئا صافى النور متالىق اللمعان . فتقدمت نحوه بخطوات سريعة وبدرت منها صرخة . فابتدورها ماتو محتدا :

— من جاء بك ؟ ولم قدمت ؟

فأجابت وهي تشير بيدها الى الحجاب المقدس :
— جئت لأخذه

وباليد الاخرى نزع الغطاء الذى كان يغطى رأسها
وجانبها من وجهها

وما كاد يراها « ماتو » حتى ارتد الى الوراء فاغر الفم
مدهوشا ..

وأحسست سلامبو بقوة الرتبة تمدها بالتأييد ، فنظرت
اليه وجها لوجه غير خائفة ولا مذعورة . وطلبت منه
الحجاب بقول عذب طلى غنى بالمعاني . ولكن ماتو كان
يسمع ، بل يرمق ويحدق ويتأمل . لقد اختلط فى ناظره
جسمها وملابسها وحليها . فكان نسيج أثوابها يتمرج
ومعه للاء بشرتها الناعمة ، وهو للاء خاص بهـا ليس
لامرأة غيرها . وعيناها وماس حلاها يلمان ويشرقان معا .
وكانت فصوص الخواتم التى تغطى أصابعها ان هى الا
امتداد لمخضوب بناتها ومصقول أطرافها . وقد استوقف
نظرة خاصة هذان المشيكان المغروزان فى غلالتهما اللذان
يرفعان قليلا نهديها فيتقاربان . هنا سرح به فكره ، فاذا به
يضل بين ذينك النهدين ، حيث تبدل شريط يحمـل
صفيحة مرصعة بالزمرد كالتعويذة تختفى فى صدرها وراء
غطاء شفاف من الحرير البنفسجى ..

ووقف ماتو مأخوذا يرنو ، ويرنو

ومثل طفل يدفعه الفضول ، مد يده وهو يرتجف ، ولمسها
فى أعلى صدرها بأطراف أصابعه لمسا خفيفا ، فانطبع فى
جسدها أطراف أنامله بعد مقاومة لينة لطيفة . هى لمسة
تكاد تكون غير محسوسة ولكن أثرها تجاوز حسه ، وسرى
الى نفسه فهز كيانه كله ، فأمسكها بقبضتى يديه وجذبها

اليه ، وجلس فوق درع بقرب سريره المصنوع من النخل
المغطى بجلد أسد ، وصار يرمقها وهي ناصبة القوام أمامه ،
كالتمثال يسند به بساقيه المضمومتين ، وهو يصعد فيها
النظر ويصوبه مرددا : ما أجملك أ كم أنت جميلة

وكانت عيناه فى اطالتهما التحديق بها ، تسببان لها
عذابا وضيقا . . فأخذها منه نفور جعل يزداد حدة ، حتى
كادت تصرخ لولا استمساكها ، وتذكرها وصية الكاهن
« شاهبريم » لها ، بالاحتياط على استرداد الوشاح بالملاذنه
الى حد طرح المقاومة ، والاستسلام

وظل ماتو ممسكا بيديها الصغيرتين ، وهي تحاول من
وقت الى اخر - على رغم ما أمرها به الكاهن - أن تقلت منه
بشد ذراعيها . وهو كالعائب عن وعيه ، يفتح منخريه
ليتلذذ بشم العطر القوى المتصاعد من جسمها المثير للدوار
كبخور المجامر

وكان لا يصدق عينيه وهو يراها بالقرب منه تحت خيمته
رهن ارادته . كذلك كان لا يريد التفكير فى أنها انما جاءت
لاخذ الوشاح المقدس ، فلم يتمالك أن رفع صوته
يسألها كالمتكرر :

- لا ، أنت لم تأت طلبا للوشاح

فصاحت فى وجهه وأسنانها مطبقة ومنخرارها
يرتعشان :

- لكان كل ما ارتكبته فى المعبد من انتهاك الحرمات
المقدسة لم يكن كافيا ، فاقطعت مخدعى ليلا وأنا نائمة ،
وتعرضت لى والوشاح المقدس يفتيك ، لم أفهم ما كنت
تقول ، ولكنى أحسست بأنك آت لتجرنى الى شيء فظيع
رهيب ، لتلقى بى الى أعماق الهاوية

فصاح ماتو :

- لا ، لا . انما جئت لاعطيك اياه ، لارده اليك ، لانه
خيل لي أن الالهة جميعا نازلة لك عن أثوابها ، وأن وشاح
الربة قد أصبح ملكا لك سواء أكان الوشاح في معبدها
أم في بيتك . ألسنت مثلها صاحبة الحول والسلطان .
العدراء التي لا عيب فيها ولا دنس . الجميلة المتلألئة مثل
تانيث ؟ ..

ثم استدرك وهو يلقي عليها نظرة ملؤها العبادة التي
ليس لها حد :

- .. الا اذا كنت أنت تانيث نفسها

وتمتتم سلامبو تحدث نفسها « أنا تانيث ! »

وسكتا لا ينبسان بحرف . وأخذ الرعد يدوى من بعيد ،
وسلامبو ترتعد فرائصها للعاصفة . وعاد ماتو يقول :

- آه ! اقتربى منى ، اقتربى ولا تخافى شيئا ، ماكنت
فيما مضى الا جنديا مغمورا من حثالة الجند ، بل كنت
وديعا متواضعا أحمر مثل الحطب على ظهري للآخرين
فماذا يهمنى اليوم من أمر قرطاجة ؟ ان رجالها عندي
غبار يثور ، كالغبار المتطاير تحت نعليك . ان جميع
كنوزهم واقاليمهم واساطيلهم ومستعمراتهم لاتستهوينى
كما تستهوينى شفتاك واستدارة كتفيك . لقد كنت
أريد تدمير أسوارها حتى أصل اليك فاستحوذ عليك

« وفي انتظار ذلك صرت لئنقم . صرت أسحق الرجال
كانهم أصداف ، وارتمى على الكتائب ، وانحى ييذى
الرياح ، واوقف الجياد ممسكا بخياشيمها ، حتى
الجانيق صارت لا تقوى على قتلى

« آه ، لو كنت لدرين كم أفكر فيك في ساحة الوغى
كلما استبحر القتال . انى هنالك أرى عينيك فى قاذفات
النار ، وأسمع صوتك فى صليل السيوف ورنات التروس

ثم التفت فلا أراك . عند ذلك أعود فأخوض في حومة
المعركة ومعركة القتال أطيح بالرقاب وأفلق هامات
الرجال ..

وكان ماتو يرفع ذراعيه ، فتبدوان حيث تتوتر
العروق ، كاللبلاب على جذوع الدوح الضخام .
والعرق ينصب من صدره ويسيل في شعره وبين
عضلاته . وقد اشتد تنفسه حتى كان يهز خاصرته
المشبوذة بنحزام تتدلى سيوره على ركبتين كالغولاذ
صلابة . وكانت سلامبو التي اعتادت رؤية الخصيان
من عبيدها وخدام الربة مأخوذة بقوة هذا الرجل ،
يخل لها أنه « مولوخ » نفسه بجبروته وسلطانه ولغحات
نيرانه ..

وكانت أنوار المصباح ترتجف من هبوب الريح
الساخنة . وكان البرق يومض المرة بعد الأخرى فتتخلل
ومضاته فترات ظلام مضاعف السواد ، فلم يكن في هذه
الظلمة المضاعفة إلا أنسانا عيني « ماتو » تتقدان كأنهما
جمرتان في فحمة الليل .. كانت سلامبو العذراء تحس
بالخطر المحدق بها ، وكانت تحس في الوقت نفسه أنه
كالقدر المحتوم نازل بها ، لا معدى عنه ولا مهرب منه .
ومع ذلك حاولت أن تتحامل على نفسها ، وأن تقاوم
وتبدل ما بقى عندها من جهد . فتقدمت إلى حيث كان
الوشاح المقدس ومدت يدها لتمسك به . فصاح بها
ماتو :

— ما الذي تفعلينه ؟ وماذا تنوين ؟

— أعود إلى قرطاجة

فتقدم نحوها وهو مصلب يديه على صدره ، وقد
بدأ مظهره مرعبا جمدت سلامبو لرؤيته :

— تعودين الى قرطاجة اه ! لقد جئت لتأخذى
الوشاح لتكونى الغالبة ، ثم تذهبين متعالية . لا ، لا ،
انك نملك لى ، ولن يقوى بشر على انتزاعك من يدى

وهذا « ماتو » جاث على الارض امامها ، وذراعاها
ملفوفتان حول قامنها ، ورأسه الى الوراء ويداه تائهتان
فى الفضاء ، وصفائح الذهب المعلقة بأذنيه تلمع على
رقبته السمراء ، والدموع تنهل من عينيه كأنها كرات
من فضة ، وهو يتنهد وكان تشهداته مداعبات وملابسات،
ويهمس وكان الفاظه نسيمات الليل بل أحن منها وألطف

وهلدى « سلامبو » قد تملكته فترة من التضعضع
واللين فقدت معها كل احساس بوجودها ، وكان هناك
شيئا خفيا وأمرا علويا يدفعانها الى الاستسلام وكأنما
احتوتها غيوم تعلو بها ، وتعلو بها حتى فقدت الشعور
والسيطرة على نفسها . فانتقلت خائرة القوى بين لبد
الاسد الذى يغطى السرير المصنوع من سعف النخل .
وأمسك بها ماتو فانقطعت السلسلة الذهبية بين عقيبها،
وتطاير طرفاها كأنهما حيتان تفران ، وهوى الحجاب
المقدس الذى كان قد احتوته بداها ، ففقطاها . وفجأة
أزاحته عن وجهها وأطلت من خلاله عينها ، فرات وجه
« ماتو » مهنحيا فوق صدرها ، فتمتمت وهى بين
الواعية وغير الواعية :

— انك تحرقنى بنار يا مولوخ !

وكانت قبلاته المتنقلة لتشملها كلها أشد التهابا
والتهاما من النار ، أما هى فكانت كأنها محمولة على
أعصاب ، مأخوذة بقوة الشيس

واستسلم بعد « ماتو » الى اليوم . وأقابت سلامبو
الى نفسها ، وأفلتت من بين ذراعيه . وألقت فى نزلها

من الفراش باحدى قدميها على الارض ، فتنهبت اذ ذاك الى أن السلسلة التي كانت تربط عقيها قد تحطمت . وكانت كبار الاسر في قرطاجة تلزم بناتها العذارى بالتزام هذا القيد والمحافظة عليه فريضة مقدسة من مقدسات الدين . وذلك ما ذكرته في هذه الساعة « عذراء قرطاجة » ودار في رأسها الصغير فاحمر وجهها ، ولفت حول ساقها قطعتى السلسلة الذهبية . وكان عند رأس السرير خنجر صغير موضوع على منضدة من خشب السرو . فأضرم فيها مشهد الخنجر نار شهوة دموية جامعة ، وطنت في أذنيها من بعيد مناحب قادمة في جنح الظلام ، وكأنها توحى اليها بما يجب عمله الآن . فاقتربت من المنضدة وقبضت على مقبض الخنجر . . وإذا ماتو يفتح عينيه وقد سمع حفيف ثوبها ، فأدنى فمه من يديهما ليقبلهما فتراخت قبضتهما وسقط الخنجر

ومضت لحظة وإذا بصرخات تعلو ، وأشعة مخيفة تتوهج وراء الخيمة ، ورفع ماتو الستر ، فوقع نظره ونظر سلامبو على نار عظيمة تحرق خيام الليبيين ، والفيلة والأبقار والخيول تعدو بين الزحام ، فتدوس الرجال والامتعة والدخائر الحربية . وكانت الأبواق تنفخ والجنود ينادون : « ماتو ! ماتو ! » ثم تقدم الى الخيمة رجال يحاولون الدخول وهم يصيحون : « هلم عجل ! هذا هاميلكار يحرق المغسكز »

فقفز ماتو الى الخارج

وبقيت سلامبو وحدها في الخيمة . فأخذت تتفحص الحجاب المقدس ، وأطالت فحصه . وإذا بها تصاب بخيبة أمل ودهشة لعدم شعورها بتلك السعادة التي كانت تعيها في الحصول عليه

وظلت مكتئبة حزينة برغم أن حلمها قد تحقق
ولفت سلامبو الحجاب حول قامتها ، والتقطت بخفة
براقمها ومعطفها ولقاعها . وفرت لا تاولى على شيء . ولم
يعترضها أحد ، فقد كان الجميع فى شغل بالحريق
وعاد ماتو بعد برهة الى خيمته ، وكان المصباح يدخن
ولا يكاد يضىء . فنادى سلامبو ولا من مجيب . فأنزع
جانبا من ستر الخيمة ليرى على نور الفجر ، فلم ير أثرا
لها ، كما اختفى الحجاب المقدس معها .

هزيمة ماتو

لم تمض على ماتو فى الخيمة لحظات بعد استيلاء
ابنة القائد القرطاجى هاميلكار على حجاب الربة المقدس ،
واذا بالارض تهتز من شدة هرج الزحام ووقع الاقدام
وارتفاع الصباح ، وصهيل الخيل ، وجلبة الصدام ، وقعقة
السلاح ، فضلا عن نفخ الابواق مؤذنة باقتراب القرطاجيين
بزعامة هاميلكار المعروف بهجماته الثائرة كالاعصار ،
الخاطفة كالبرق المستطار

عندما ثارت ثائرة ماتو ووثب الى أسلحته فتقلدها
واندفع من الخيمة واذا صفوف طويلة من البربر منحدره
من الجبل على غير نظام وكأنما الجبل نفسه يتحرك وراءها
بما عليه من المربعات القرطاجية الزاحفة فى أعقابها تطاردها
وتضرب فى اقفيتيها . وفى ناحية أخرى من الافق يظهر
الامير « ناهورى » على رأس جند كثيرين من قومه النوميديين
وقد مدت الخيل رعوسها وهى مطلقة الاعنة وقد اشتد
عدوها حتى كادت تلمس الارض بطونها . وتنسبط أساري
ماتو المتقبضة . حين يرى حليفه قادما لنجدته . ولكن ما بال
هذا الحليف يتوقف ثم ينحرف عن وجهته . وعلى حين
فجأة يقصد الى الخطوط الامامية لجيش هاميلكار ، وبطلب

الى رجاله الانتظار خارجها ، ويتقدم هاميلكار ، وهنا
جثا أمامه وقال :

— يابركة ! جثتك برجالى . الكل فى طاعتك وتحت
رايتك ..

وكان الامير « نارهوى » حتى هذه الساعة يتظاهر
بنجدة البربر وهو يخلد لهم فلما رأى كفة هاميلكار ترجع ،
وقدر ان سيتم النصر له فى اخر الامر ، وجد الفرصة
سانحة للمجاهرة بالانضمام اليه ، بدافع من طمعه فى
ولاية المزيد من الاقاليم ، فضلا عما يكنه من الحسد
والبغضاء لما تو الذى أصبح زعيم الثائرين ، وربما كذلك
لانه كان يعلل نفسه بتحقيق حلم غرامى قديم .

وادرك هاميلكار بثاقب نظره ما لمثل هذا الحلف فى هذه
اللحظة الحاسمة من شأن فقام الى الامير وضم صدره
ثلاث مرات علامة على ما صدر بينهما من العهد والميثاق
ثم قال :

— لا أدرى ما سوف تكافئك به قرطاجة ولكن هاميلكار
لا يجحد جميلا ، على كل حال عد الآن الى جنسك ، ومر
فرسانك بمدافعة مشاة البربر الى ما بين افيالك وافيالى ،
حتى نحصرهم ولا نبقى على احد منهم

وفى هذه اللحظة ، وصلت سلامبو على حين فجأة الى
معسكر أيها . وقفزت من جوادها وفتحت معطفها واخرجت
منه الحجاب ، فلعبت به الريح ونشرته على مرأى من جميع
الجنود فأرتفعت من القرطاجيين صيحات المهللين استبشارا
بنصر مبين . وفى الناحية الأخرى ارتفعت من صفوف
البربر صيحات أخرى معبرة عن الكمد الأليم والاستنكار
والسخط العظيم ، على من كانوا سببا فى ضياع الوشاح
مع التهديد بعقابهم وانزال شر النكال بهم

وكان هذا الذى فعلته سلامبو مفاجأة لاييها القائد الاعظم هاميلكار . ولكنه لم يسمعه الا ان يشكرها باشارة من رأسه ، وعيناه تتنقلان من الحجاب المقدس اليها ، ومنها الى الحجاب المقدس ولم يلبث ان لاحظ ان سلسلتها الذهبية مقطوعة ، فاعتبرته انتفاضة لما داخله من شك فظيع ، ثم استعاد رباطة جأشه وأخذ ينظر بطرف عينه الى الامير النوميدي الشاب دون ان يظهر منه ذلك ، مبالغة فى الستر على ما انعقد عليه عزمه ..

وكان الامير « نار هوى » منتحيا ناحية من الخيمة استعدادا لتنفيذ الامر الصادر اليه ، فتقدم الزعيم هاميلكار منه وملامح الجذ تبدو عليه وقال :
— مكافأة لك على ما بذلته وتبذله خدمة لنا ،
يا « نار هوى » قد زوجتك ابنتى . فكن لى ابنا ، ودافع عن أبيك !

فبدت من « نار هوى » حركة تدل على الدهشة ، وارتمى على يدى هاميلكار يمطرها بقبلااته ، وسلامبو هادئة كالتمثال تبدو وكأنها لم تفهم ، وقد علا وجهها احمرار خفيف ، ثم أسابت جفניה فأرسلت أهدابها الطوال ظلالا على خديها ..

وشاء هاميلكار ان يربطهما دون تأخير برباط الخطبة الذى لا يفصم . فوضعوا فى يد سلامبو رمحا قدمته لنار هوى وربطوا ابهاميهما بسير من جلد البقر ونشروا القمح على رأسيهما ، فكان لصوت حبات القمح المتساقطة حولهما صوت حبات البرد المتساقط على الارض

ونحن اذا رجعنا الى اقوال المؤرخين الاقدمين ، وعلى رأسهم « بوليبيوس » نجد ان المعارك التى دارت بين قرطاجة — بعد هزيمتها فى حربها مع الرومان — وبين جندىها من الاغراب المترزقة ، لم تكن الغلبة فيها على جيوش البربر

الشجعان - وعلى رأسهم قائدهم الليبي الثائر الجنسان « ماتو » وزميله الاغريقى « سبنديوس » - بالامر الهين اليسير ..

والواقع أن انضمام الفرسان النوميديين آخر الامر الى الزعيم القرطاجى هاميلكار فى بلاد مثل قرطاجة اكثرها سهول منبسطة كان كفيلا بانتصاره . ولقد حقق هاميلكار بعد هذا الحلف نصرا على الجند المرتزقة الثائرين كلفهم عشرة آلاف قتيل وأربعة آلاف جريح

وقد رأى هاميلكار ان يحسن معاملة الاسرى ، ليجذب اليهم مودة أبناء جنسهم فضلا عن حسن عرفانهم للجميل فينضوى أولئك وهؤلاء تحت لوائه . وقد فطن لذلك « ماتو » و « سبنديوس » ورئيس الغاليين « أوثاريب » فأرادوا أن يأتوا عملا يكون من القطاعة بحيث يدعوا الى القطيعة الدائمة التى لا سبيل بعدها الى الصلح وعودة السلام ، فأشاعوا الشائعات بأن هاميلكار إنما يتظاهر بحسن معاملة الاسرى لأن فى نيته الايقاع بهم ، وأن الاجدر بهم فى هذه الحالة أن يكونوا هم البادئين ، وبأدروا فاعملوا التقتيل فى أسراهم من القرطاجيين وعددهم سبعمائة قطعوا أيديهم ، واصطلموا آذانهم ، وكسروا عظام سيقانهم ، وبعد ذلك حفروا لهم الحفر وألقوا بهم فيها أحياء ، فلم يسع هاميلكار الا معاملة أسراهم مثل هذه المعاملة أو شر منها للأخذ بالثأر

واستمر القتال بين قرطاجة والجند المرتزقة دون رحمة ولا هوادة عاما بعد عام ، وكان من أسباب الاطالة ما اتبعه قادة الجند المرتزقة - بعد خذلان الفرسان النوميديين لهم - من اجتناب المعارك فى السهول حيث المجال متسع لهجمات الفرسان على صهوات الخيول ، والعدول الى حرب

العصابات فى شعاب الجبال . فلما أن أدرك هاميلكار ذلك وضح عنده ، أطمعهم فى لقائه فى الجبال . وما زال بهم حتى استدرج الفريق الأكبر من جيشهم بقيادة « سبندىوس » الى فج ضيق - يقال له « حد الفأس » أو « حد المنشارة » - حصرهم فيه حتى نهد ما كان عندهم من الطعام ، واشتد بهم الجوع حتى أخذوا يأكل بعضهم بعضا وأخيرا ثار الباقون على من كانوا يتولون قيادهم ، وهم سبندىوس الاغريقى و « أوثاريب الغالى » وثمانية اخرون وقد اضطروا هؤلاء تحت تهديد جنودهم أن يطلبوا مفاوضة هاميلكار ، فطلب عشر رهائن من جيشهم يختارهم بنفسه ، وكانوا يعرضون عليه مجردين من سلاحهم ، ومن تيابهم الا القميص الذى على جلودهم ، ولما انتهى العرض قال للقادة العشر : « أنتم الرهائن » واحتجزهم ، وأدرك الجميع الحيلة بعد فوات الاوان ، فارتكضوا نحو سلاحهم ، ولكنهم كانوا قد أحيط بهم ، وكان عددهم أربعين ألفا ، فلم ينبج منهم أحد ..

ولم يكن فريق الجند المرتزقة الاخر تحت قيادة ماتو ، أكثر توفيقا واسعد مصيرا فقد أفناهم هاميلكار فى موقعة كبيرة عن بكرة أبيهم ولم يبق منهم حيا غير قائدهم العنيد الجبار «ماتو» الذى اقتيد الى قرطاجنة ليلقى على يد الجماهير أفضع مصر

وهنا نستأذن فى العدول عن التاريخ الى القصة لنحصل على بعض التفاصيل

كانت فلول جيش البربر قد اسندوا ظهورهم الى تل ، ون إن يكون لهم فى النصر أمل ، ولا فى الحياة . ولكنهم كانوا من خيرة الرجال واكثرهم اقدا ما وأصلبهم عودا ، فضلا عن اليأس وانقطاع كل رجاء . وقد انتهى أمرهم بأن كانوا

إذا اندفع القرطاجيون هاجمين عليهم تظاهروا بالاستسلام حتى إذا اقترب القرطاجيون منهم أرسلوا صيحة استهزاء فى وجوههم ، وقتلوا أنفسهم بضربة واحدة . وعلى جثثهم كان يعلو رفاقهم ليدافعوا ما استطاعوا عن أنفسهم ، ثم ينتحرون . وهكذا دواليك حتى تعالت الجثث على شكل هرم أخذ يزداد ارتفاعاً

ولم يمض وقت طويل حتى نقص عدد المقاتلين الباقين الى خمسين ، ثم عشرين ، فثلاثة ، ف اثنين فقط : رجل من قبائل السمنيين الايطاليين يحمل فأساً ، والقائد ماتو الذى كان سيفه لا يزال فى يده

وكان ماتو قد عرى من غطاء كتفيه ، ومن خوذته ودرعه ومن ثيابه ، واصبح لونه اشد صغرة من لون الموتى وشعر رأسه اغبر اشعت ، وعلى طرفى فمه طبقات من زبد . وكان سريع التحريك لسيفه بحيث يرسم فى دورانه حالة حوله ، ثم أصيب السيف بضربة حجر فانكسر مقبضه . كما ان زميله الوحيد الذى كان باقيا الى جنبه قتل بضربة حجر . . .

وهذا « ماتو » وحده وقد تجمع القرطاجيون حوله حتى لامسوه ، فرفع نحو السماء يديه المجردتين من السلاح ، واغمض عينيه ثم فتح ذراعيه وارتمى - كمن يلقي بنفسه الى البحر - على الرماح ليموت على حدها . ولكنهم نحوا الرماح من امامه ، فهجم مرة اخرى واخيراً عثرت رجله بسيف فانحنى يلتقطه فاذا بجبال معقودة تنمقد على يديه وركبته

وكان صاحب الجبال المعقودة غريمه الامير نارهوئى الذى كان يتتبع خطاه وكل جرعة من حركاته منذ حين ، وبيده شبكة عريضة من الشباك التى تصاد بها الوحوش

الضارية ، فاعتنم فرصة انحناؤه الى الارض فغطاه بها .
فبادر الحاضرون ، وجروه أسيرا .
وكانت بشرى وقوع « ماتو » حيا في الاسر ، قد سرت
في جميع قرطاجة في الهزيع الاول من الليل ، فكانت
المشاعل والمصابيح تملأ البيوت ضياء حتى بدت المدينة
شعلة من لهب . وتعالى تهليل الناس وصخبهم حتى
وصل الى اذنيه وهو في محبسه منطرح على ظهره ينظر
ساهما الى النجوم كأنه يستطلع الغيب . ثم أقفلت
عليه النوافذ والابواب ، فاحتواه الليل في انتظار ما
سيأتى به نهار الغد

في مهرجان الزفاف

في الصباح الباكر خرجت قرطاجة عن بكرة أبيها .
فالיום يوم عيد . والجماهير المحتشدة على السطوح
ترتدى الثياب المزركشة . واغصان الاس تملأ الشوارع ،
وفي زوايا مفارق الطرق يرتفع دخان البخور . والناس
يتبادلون التحيات والتهاني . أنه يوم زفاف « سلامبو »
ابنة هاميلكار الى « نارهوى » أمير النوميديين .
وكانت على شرفة معبد « خامون » ثلاث مناضد
ضخمة ، يجلس اليها الكهنة والقدماء والاغنياء ، فضلا
عن منضدة رابعة في مكان أعلى ، للزعيم هاميلكار ، والامير
نارهوى ، ولها . أن ابنة هاميلكار « سلامبو » التي
استرجعت الحجاب المقدس وأنقذت الوطن ، قد
استحققت أن يجعل الشعب يوم زفافها يوم فرح عام
وعيد وطني ..
وكان أبناء الشعب كلهم وقوفا في الميدان ينتظرون
ظهورها ..
ولكن كان هناك أيضا شوق آخر ، لعله أشد العاجا

يستنفذ صبرهم . انه مشهد نهاية « ماتو » التى وعدوا
برؤيتها فى هذه الحفلة

فقد أشيع انه سيسلخ جلده حيا ، وقيل ان
الرصاص المصهور سوف يصب فى أحشائه ، كما تردد
غير ذلك من ألوان التعذيب

ولكن ، من هو المواطن الذى سيتولى شرف تعذيبه ؟
ولم يختص بهذا وحده دون سائر المواطنين ؟ . ان أبناء
قرطاجة كلهم بمختلف طبقاتهم ، ليشتهون نوعا من
التعذيب تشترك فيه المدينة كلها . نعم ، جميع
الأيدي ، وجميع الأسلحة ، وكل شيء فى قرطاجة حتى
بلاط الشوارع وأمواج الخليج ، من حقها ان تشترك
فى تمزيقه وسحقه وفنائه

من أجل ذلك ، كان قرار القدماء ان يكون خروجه من
سجنه الى « ميدان خامون » دون حراس ، ويدا
مشدودتان الى ظهره ، وذلك فى آخر النهار . والناس
اجتمعون على الصفيين يشتركون فى ضربه بالكفهم أو تمزيقه
بأظافرهم ، مع الامتناع عن ضربه على قلبه اطالة لحياته
قدر المستطاع ، ومع الامتناع كذلك عن سمل عينيه حتى
يرى ما يصيبه من صنوف التعذيب حتى النهاية . لكن
ذلك لم يكن ليبدأ الا بعد موكب الزفاف

هذه هى مراوح الريش العالية تبدو من بعيد مرتفعة
فوق الرؤوس . لقد طلعت سلامبو من قصرها ، فتنفس
الناس الصعداء وظهرت عليهم أمارات الارتياح . ولكن
الموكب تباطأ وصوله من جراء طوله ، وتقدمه خطوة
خطوة ..

وكان فى الطليعة كهنة الالهة على مراتبهم ، مختلفو
الشارات والاعلام والثياب والألوان حسب صفات وطبائع

الهتمهم . وكان كهان الربة « تانيت » يتقدمون بخطا المعجب بنفسه ، وعيدانهم فى ايديهم ، ووراءهم الكاهنات بأثوابهن الشفافة صفرا وسودا ، وهن يقلدن غناء الطيور ويرقصن متلويات كالافاعى ومقلدات دوران الكواكب

ثم اقبل أساطين المال وحكام الاقاليم وتعالى الضوضاء وازداد الزحام . كان خدمة المعبد يدفعون الناس الى الوراى ضربا بالعصى ليحولوا بينهم وبين القديماء . وفى الوسط كانت محفة تعلوها مظلة من أرجوان كانت قبلة الانظار ، فمن تحتها لاحت للناظرين « سلامبو » متوجة بتاج من الذهب

وعندها ارتفعت الاصوات ، وتعالى ضربات الصنوج ورنات الجلاجل اكثر من ذى قبل ، وزادت عليها دقات الدفوف حتى اختفت المظلة داخل المعبد الضخم

وعادت المظلة عاطلة ممن كان فيها . وعلى الاثر ظهرت سلامبو فى الطابق الاول تتقدم ببطء حتى اجتازت الشرفة ، وجلست فى اقصاها على عرش منحوت . فوضعوا تحت قدميها موطنًا من عاج ذى ثلاث درجات ، على طرفى الاول منها غلامان زنجيان ، كانت تسند الى راسيهما من الحين بعد الحين ذراعيها المثقلتين بالدماليج والخواتم ..

وكانت سلامبو فارعة القوام فى ثوب يشده من الكعبين الى الردفين خط من حلقات ضيقة هى تقليد لقشور السمك وان كانت تلمع كالعاج . كما كان يشد خصرها نطاق أزرق ابرز تهديها فبديا من خلال تجويفتين كأنهما هلالان وغطى حلمتيهما اقراط مدلاة من الياقوت الجهرى . وكان تصفيف شعرها الى أعلى رأسها مزينا بريش طاووس علقت فيه حجارة كريمة بشكل نجوم . وكان

يتدلى وراءها رداء أبيض شبيه بالثلج . وكانت سلامبو
في جلستها منتصبه القامة وعلى الهيئة التى تفرضها
الطقوس الدينية ، فكان مرفقاها مستندين على جسمها
وركبتيها مضمومتين . وتطوق معصمها حلقات من الماس
وعلى مقعدين دون مقعدها جلس أبوها وزوجها .
وكان « نارهوى » يرتدى رداء ذهبى اللون ، وقد عقد
على رأسه تاجا مرصعا بالجواهر ، نفرت من تحته
خصلتان مجذولتان على هيئة قرنى آمون .
وكان هاميلكار فى حلة بنفسجية عليها طراز
بالذهب يمثل غصون عنب مورقة ، وهولايزال يتقلد سيفه
وأخذ كبار المدعويين أماكنهم على الشرفة على حسب
التقليد المرسوم ..

وكانت الجماهير تملأ الشوارع ، ومنهم من تسلقوا
السطوح وقد تكدسوا واتصلت صفوفهم عالية حتى أهالى
الأكروبول ..

وافتحت المادبة ، فبلغت الى أوجها . ازدحم السماط
بانواع الاطعمة والاشربة . والخدم والعبيد مشغولون عن
أكمالهم للخدمة يروحون ويجيئون على أطراف الأصابع .
وفى الحين بعد الحين تضرب العيدان نغما من الانغام ،
أو ترتفع بالفناء أصوات القيان . وقد استسلم المدعوون
الى احلام السعادة . وقد خفت وقدة الحرارة حين بدأت
الشمس تزول ، والقمر يصعد فى الجهة الأخرى من
السما ..

وكان هاتفا أهاب بالعروس . ورائها الشعب فتنبع
مرمى طرفها ..

هنالك كانت قمة الأكروبول . وقد انفتح باب السجن
المظلم المنحوت فى الصخر فى أسفل المعبد . وعلى

عتبة هذه الظلمة وقف رجل خرج من سجنه محنئ الظهر
وعليه ملامح الوحوش الضارية المذعورة التي يطلق سراحها
على حين فجأة . وكان النور يبهز عينيه . فظل حيناً وهو
جامد لا يتحرك . وعرفه جميع الناس ، فأخذوا يكتمون
أنفاسهم . ذلك ان جسد هذه الضحية ذو صفة خاصة
لديهم أقرب ما تكون الى الصفة الدينية . فهم يتتبعون
قدومه باهتمام شديد . .

وأخيراً تقدم الرجل الى الامام . فزالت عن الناس
صدمة المفاجأة ، وارتفعت اذرع لا عداد لها كادت تخفيه
وراءها . .

وكان سلم الاكروبول عشرين دركة وكان يهبها مترنحاً
كما لو كان يتخطى في وسط سيل متدفق من جبل . وقد
لمحه المتطلعون اليه من بعيد يطفر ثلاث مرات ثم يسقط
في أسفل الدركات على عقبه . وهاتان كتفاه تدميان .
وصدره ينتفض من فرط لهائه وتقطع أنفاسه ، وهو يبدل
مجهود الجبابة ليقطع وثاقه حتى بدت ذراعه من تصلب
العروق كقطع من ثعابين مقطعة

ومن المكان الذي كان فيه ، بدت امامه شوارع عديدة
تمتد السلاسل على طولها من أول الشارع الى آخره في
خطين متقابلين . والجمهير متواصلة الى الجدران على
الجانبين . .

وفى الوسط خدم القداماء يمشون جيئة وذهاباً
وبأيديهم سياط من جلد .

ويدفع أحدهم « ماتو » الى الامام بضربة قوية . فيبدأ
« ماتو » مسيرته في الشارع الطويل متهاكاً من الاعياء والالم
الشديد . والناس على الجانبين يمدون أذرعهم جاهدين

من فوق السلاسل ، وهم يشكون مما ترك للرجل من سعة
فى طريقه ، مع أن أيديهم بالغة اليه تتحسس موضع القرصه
كما تعمل اظافرهم على تمزيق جلده ولحمه . فاذا بلغ
نهاية شارع بدأ غيره . وكان كثيرا ما يرتدى على من يعنفون
به لينهشهم بأسنانه ، فيتنحون مسرعين ، وتصد السلاسل
فيستفرقون فى الضحك ساخرين به مستهزئين

وكان بين الفتيان من مرق اذنه ، كما شقت فتاة خذه
برأس مغزل كانت تخبئه فى كمها . وانتزع آخرون ملء
قبضاتهم خصلا من شعره وبتفا من لحمه . وتدفق الدم
غزيرا من جرح فى فخذه ، ودار به رأسه وخارت قواه
فالتوى عرقوباه ، وهوى شيئا فشيئا الى الحضيض على
البلاط . فاسرع رجل الى رواق الاعمدة فى المعبد
وتناول من موقده قضيبا حماه بالجمر حتى احمر ، ومده
من خلال السلاسل حتى بلغ الى «ماتو» وهو طريق على
الارض ، وشد به على جرحه العميق فتصاعد الدخان من
اللحم المكوى . . ولكنه كتم صراخه عندما سمع هتاف
السخرية والتشفى الذى ارتفع من الشعب . وانتصب
ماتو واقفا . .

وسقط ماتو مرة ثانية على بعد ست خطوات ، وتوالى
سقوطه ثالثة ورابعة . . وكان ينهض فى كل مرة نوع
جديد من التعذيب

وظل ماتو يسير من شارع الى شارع حتى عجز عن
المسير ، فاستند الى الحائط تحت طنف حانوت ، وتوقف
عن السير . فجلده العبيد بسياطه من جلد جاموس البحر
جلدا مبرحا ، دام طويلا حتى تبللت اثوابهم بالعرق وهو
فاقد الاحساس . واذا به يتحفز ويأخذ فى الجرى بلا
هدى ، ومن شفتيه يخرج صرير وفحيح . وكانت قد أخذته

تسعريرة البرد الشديد . ووصل على هذه الحال الى « مبدان خامون » فأصبح الآن مملوكا للكهنة رجال الدين . وكان العبيد قد نحوا جماهير الشعب عن اقتحام الميدان وهنا نظر ماتو الى ماحوله فوقعت عيناه على سلامبو وكانت سلامبو قد انتصبت واقفة منذ الخطوة الاولى التى خطاها . وكانت كلما أقترب تقدمت هي شيئاً فشيئاً ، وبدون ارادة منها ، نحو حافة الشرفة ، وبعد قليل كانت قد انمحت جميع الاشياء الخارجية من أمامها ، فلم تعد ترى الا ماتو

وفى وسط كل هذه الجلبة خيم الصمت على نفسها . انها وهدة من تلك الوهداث التى يغيب فيها العالم بأسره تحت ضغط فكرة متسلطة ، أو ذكرى ، أو نظرة . . فهذا الرجل السائر نحوها كان يجتذبها لم يكن باقيا لماتو من مظهر الانسان الا عيناه ، فهو فيما عدا ذلك شكل من الاشكال مخضب بالحمرة تتدلى منه حبال وثاقه فلا يمكن التمييز بين هذه الحبال وبين اطرافه الممزقة ، المعروقة المجردة من اللحم . وكان قمه لا يفتأ فاغرا ، ومن محجريه يخرج لهبان كأنما يرتفع وهجهما حتى شعر رأسه . . وكان هذا الشكل البائس الفاجع لا يزال ماضيا في مشيته المتهالكة بلغ ماتو الى أسفل الشرفة ، وتوقف تماما حيث كانت سلامبو منحنية على سورها وكان انسانا عينيه شاخصين يتأملانها . وكأنما انفجر فى وجدانه ذكر ما قاساه من العذاب فى سبيلها . وفى هذه الوقفة وعلى الرغم من انه كان يلفظ اخر أنفاسه ، تراءى ماتو فى عينى سلامبو كما كان فى خيمته ، فى أوج سلطته ، جاثيا أمامها ، محبطا

قامتها بدراعيه ، متمهما أعذب الكلمات .. انها الساعة
عطشى للاحاساس بعدوبة تلك الكلمات ، وسماعها مرة
ثانية . انها لا تريد أن يموت

وفي هذه اللحظة ، انتفض ماثو انتفاضة شديدة
فاوشكت أن تصرخ . ولكنه كان أسرع منها فقد هوى
منطرحا على ظهره وقد فارقتة الحركة الى الابد

وأوشك أن يغمى عليها فحملها الى عرشها على الشرفة
الكهنة الذين يحفون بها ، وهم يهنئونها ، لان هذا صنع
يديها ومن فضلها . وكانت الجماهير كلها تصفق وتضرب
الأرض بأقدامها هاتفة باسمها

وعندها أخذت نشوة الخلاء عريسها « نار هوى » ،
فلف ذراعه اليسرى حول خصرها أشعارا بامتلاكه لها ،
ثم تناول بيمنه جاما من الذهب ، وقام يشرب نخب
قرطاجة ..

وهبت سلامبو واقفة كما وقف زوجها ، وفي يدها
جامها لتشرب هي أيضا . ولكنها هوت على عرشها .
واستلقى رأسها فوق مسند العرش متصلبا ، وقد شحب
لونها كل الشحوب . وهذه شفتاها مفتوحتان ، وهذا
رأسها العالي بشعره الطويل المصفف المزدان بريش
الطاووس يتدلى على الأرض

لقد مات « ماثو » زعيم الثوار ، وماتت « سلامبو »
ابنة هاميلكار .. مات كل من لمس حجاب ربة الحب
ثانيت ..

حورية الغابة ”مدام بومبادور“

نبوءة .. !!

كانت أمها كسائر الامهات تتمنى لابنتها حظا اسعد من حظها وحياة مستقبلية خيرا من حياتها وكان من تسلط هذه الرغبة عليها ان ذهبت مع الصغيرة وهي في التاسعة من عمرها عند مدام « ليون » قارئة الورق المشهورة وقتئذ. لتستخير ورقها عن مستقبل الفتاة وما ينتظرها من حظوظ الحياة . وكانت العرافة باريس تدرك خفايا النفوس فلم تر بأسا من ان تمعن في الغلواء وتضربها ضربة عشواء فألقت نبوءتها في صوت الواثق : « ان الفتاة لن تكون ملكة ولكنها ستكون شبيهة ملكة » وخرجت الام وقد احتضنت صغيرتها الجميلة في حنان وشفف وعادت بها الى المنزل تحلم بالمستقبل الباهر المنتظر ويتراعى لها كل ما حولها أزرق قد انتشرت عليه زهرات الزنبق مطرزة بالذهب ، على هيئة الشعار الملكي . ولم تفتأ منذ الحين تدعوها بصيغة التصغير « مليكة » ثم تكرر التصغير وهي تدلها : « يامليكتي الصغيرة » .

وكانت الصغيرة «جان انطوانيت» Jeanne Antoinette معهودا بها الى الراهبيات لتنشئتها . وكانت رقيقة الجسم لطيفة الروح شديدة الحساسية مفرطة الذكاء وقد أضافت رئيسة الدير وهي تصفها في رسالة لأمها : « انها ذات ملاحظة ثروق كل من رآها » ولا شك في أن الام كانت

تاركة فئاتها تستكمل فى حظيرة الدير دراستها لى اهل
كانت اقل جمالا ، ولعلها كانت تتخرج منه سيدة فاضلة
مغمورة الاسم لا شهرة لها ولا جاه ، ولعلها كانت تكون
أسعد حالا وأهنا بالا . ولكن الفتاة كانت جميلة وكانت
أما طموحا . وما أشد ما كان حزن الراهبات لمفارقتها
الدير حين بلغت التاسعة . وفى خارج الدير بدأت فئاتنا
بعد التاسعة تتلقى تربية جديدة ، تربية تؤهلها للأحلام
المنشودة لحياة العشيقة الملكية ..

كانت أمها تعرف للجمال قدره ولكنها كانت تعرف
كذلك ان الجمال اذا كان يجذب فانه لا يكفى وحده
لاستبقاء الرجل والاستئثار به . ثم هنالك أوقات حزن
او كلال يكون فيها اجمل الوجوه عاجزا مسلوب القدرة
اذا هو لم يشرق بنور نفساني ، والرجل على كل حال
يميل للثقل والتغير ولا يثبت الا مع المرأة التى تشبع
منه هذا الميل الخفى المركوز فى طبيعة الرجل مهما
اشتهر بأنه المخلص الوفى . ومن ثمة لم تدخر الام جهدا
الابدلته ولم تترك سبيلا الا سلكته لتجعل ابنتها خلاصة
حية لكل محاسن النساء وكل فنونهن . لقد دفعت بها
الى الاساتذة المختصين كل فى فنه فتعلمت الفناء والعزف
والرقص والالقاء التمثيلى والرسم والحفر على الحجارة
الكريمة وكل ذلك دون أن يبدو عليها تفهيق العالم
وتظايره بالعلم بل احتفظت بتمام القصد والاتزان
وتلك المصانعة والتلطف وحسن المداخلة التى يصح
نعتها بالخفر النفسى والاستحياء الدهنى .

وكانت الفتاة مهما رجعت بذكرياتها الى الورا
واجدة خيال الملك ممتزجا بخواطرها منذ الحداثة ، لقد
كانت نبوءة قارئة الورق وما يتردد فى خاطر أمها وعلى
لسانها وما يكرره حولها المعجبون ... كل هذا

كان يدير رأس الفتاة الحافل بآمال الصبا المفتونة واشواقه الفامضة المجنونة . وهكذا شغفت الفتاة بالملك قبل ان تراه فالكمل يقولون انه جميل وانه لا يجد غير الملل والسآمة مع امراته كما كانت تعرف مما يتناقله الناس من اخبار البلاط ما كان من حظوة « مدام مايي Mme Maille » عند الملك ثم سسقوط حظوتها وانتصار غيرها التى لم تكن غير « مدام فنتيميل Mme. Vintimille » اختها وما كادت هذه تضع حملها فى الحرام ثم تقضى نحبها على الاثر من حمى النفاس حتى استولت على قلب الملك - أو بعبارة ادق - استولت على حواسه عشيقته الراهنة « مدام شاتورو Mme. Chateauraux » الارملة المحسنة وهى الاخت الثالثة وليست الاخيرة - من اسرة « نسل - Nesle » الفاسقة ولم تكن هذه الصبوات الفاضحة المحرمة تثير فى البيئة التى كانت تعيش فيها الفتاة نائرة الاستنكار والاشمئزاز ، لكثرة تردها على اسماع الناس والفتهم لها . لقد كان الملك فوق الاحكام الخلقية والاداب المرعية وكذلك عشيقاته فلا غرابة الا تكف الصبية - لفرط تدليلها باسم « مليكة » عن الاندفاع مع الامنية التى خالطت نفسها منذ الحداثة وهى ان تكون مثل اولئك النساء عشيقة ملكية .

وكانت بعض الصالونات الباريسية قد فتحت ابوابها للام من اجل فتاتها وفى هذه الصالونات لقيت الفتاة « ماريفو » و « مونتسكيو » و « ديكلو » و « فونتنل » وغيرهم من ادباء العصر واهل الفكر . ولم تمض اشهر قلائل حتى تقدم لخطبة الفتاة الجميلة « المسيو لينورمان دى اتول M. Le Normant d'Etioles » وكانت الفتاة فى التاسعة عشرة من عمرها وفى ابان ازدهار جمالها ولم يكن الخطيب جميل

الطلعة ولا معتدل القوام ولكنه كان حسن الحال واغفر المال ، كما كان عاشقا لها شديد الكلف بها ، ثم انه كان قليل الايمان بما ترجم به قارئات الورق من نبؤات . وفى التاسع من مارس عام ١٧٤١ كان الزواج .

وكان من شأن هذا الزواج ان انفتحت كل الصالونات الانيقة امام الفتاة وتدانت المسافة بينها وبين العلية من السراة واهل البيوتات فكانت تتردد على اشهر صالونات باريس ، صالون الفن والفلسفة فى شارع «سان اونوريه» الذى كانت صاحبته وملكته « مدام جوفرين » تستقبل فيه ايام الاربعاء من كل اسبوع زوارها المعجبين من الاشراف وقادة الفكر النابهين فضلا عن الفانيشات الحسان وسيدات المجتمع التى اصبحت مدام دى اتيول منهن وكانت قد اصبحت لها دار فى باريس وقصر فى اتيول على مقربة من غابة « سينار Senart » جنوبى فرساي .

واخذت الغانية بدورها تستقبل فى دارها «مونتسكيو» و « فونتنل » والرئيس هينولت ، والاب برنيس والشاعر الفيلسوف فولتير وكانوا جميعا يتبارون فى صوغ المقطوعات القصار من الاشعار فى اطرائها والتشبيب بها وقد كان الرئيس « روشيه Rocher » الذى امضى فى اتيول جانبا من الصيف فى عامى ١٧٤١ ، ١٧٤٢ يقول فى وصفها « هذه الحسناء البيضاء الحلوة » ولم تكن محاسن « مدام دى اتيول » تقف عند حد هذه الصفات بل اجتمع لها الكثير فوقها ومن ذلك موهبتها فى التمثيل فقد اشتركت مع أكثر من سيد وسيدة من شباب العلية فى تأدية الادوار التمثيلية فى أكثر من مسرحية فى اتيول وغيرها ولم تلبث ان اتصلت الزيارة بينها وبين ذوات الالتقاب من المتصلات بالبلاط حتى اصبحت على درجات

من تلك القمة البعيدة المنال ، تلك القمة التى ما برحت
ترنو اليها وتحلم ببلوغها ونعنى بها : القصر الملكى

حورية الغابة

عندما كان الملك لويس الخامس عشر يخرج الى
مطاردة الطياء وصيد الايائل فى غابة « سينار » على
مرحلة من قصر فرساي كان سكان القصور فى هذه
الارباض بل سواد الناس انفسهم يحصلون على ترخيص
بشهود الصيد الملكى وكان بعضهم يقبل فى المركبات
والبعض على صهوات الخيل وهم افواج من اشبات
مؤلفة والوان مختلفة ، تهلت وجوههم وسرت هزة
السرور فى اعطافهم بما ادخلته هذه المناسبة من نشوة
البهجة على قلوبهم فهرعوا الى الغابة ولكن الى حيث
يفرض عليهم الادب أن يقفوا من غير توغل ولا تطفل على
مراى من ذلك المشهد الجميل الباهر يتطلعون اه
ويعجبون به ..

وفى المفرق المتفق عليه بين الطرق المتشعبة فى الغابة
التى زانها الخريف بمثل الاستار الذهبية من اشجار
الزان والبلوط كان يقوم الموكل بالصيد فى موقفه
يحف به قادة كلاب الصيد والنافخون فى الابواق
وكان تمة الجياد واقفة يمسك الخدم بأعنتها فى انتظار
الفرسان وقد اختلطت دقات حوافرها على الارض بنبجات
الكلاب الضخام التى يتألف منها ذلك السرب الابيض
الاصهب من الكلاب الملكية المدربة على الصيد *

وفى احدى الطرقات الظليلة التى تشق الغابة وتنفذ
اليها سهام الشمس الذهبية من خلال الاشجار على جانبيها
تدرج المركبات الفاخرة تقل سيدات البلاط ونبلاؤه *
ويقبل الملك ومدعووه فى الحلة الزرقاء وفى مناطقهم السكين

والقبعة المنلثة الاركان قائمة على شعرهم الابيض المستعار
يمتطون صهوات الجياد فتتنحي المركبات لتفسح الطريق
للموكب ويبدو الملك لويس الخامس عشر معتدلا على سرح
جواده وافر الملقف كامل السميت ويمر الملك وفرسانه
أمام المركبات تحييه السيدات ويترصدن نظرة منه اليهن .
وكان وجه الملك وهو بعد فى ريعان الصبا لا تظهر عليه الا
مسحة خفيفة من سامة الحكم ونهكة اللذات ولا تنم
سيمياؤه عن اية عاطفة . ان وجهه قنّاع لا تختلج له
خالجة ولا تبدو عليه بادية وان يكن فى ملامحه شرف ونبالة
وفى فمه استخفاف وازدراء ، فضلا عن هاتين العينين
النجلاوين فى غير بريق ولا لاء .

بيد انه كان يلاحظ بين العجلات الخفيفة التى تتابع
دائما صيد الملك عن كئيب وفى مكان ظاهر له عربة صغيرة
انيقة ذات لون ازرق سماوى وكانت تجلس فيها غادة فى
ثوب وردى وبيدها العنان وكأنها مثال لربة الجمال
« فينوس » كما تظهر على المسرح فى محارة كبيرة على هيئة
الصدف البحرى وكان اذا اجتاز الملك تطلعت اليه الغادة
ذات الثوب الوردى وصمدت عينها دون ارتباك لنظراته
التى كانت تتوقف احيانا عندها وتستقر عليها حتى اذا
ابتعدت عجاجة الفرسان والكلاب تلبية لنداء الابواق الحاد
اختلطت العربة الصغيرة الزرقاء بغيرها من أنواع العجلات
مقبلات ومدبرات وكثيرا ما كانت تظهر العربة الزرقاء فى
منعطف احد المسالك وحيدة منقطعة عن الزحام فى اللحظة
التى يمر فيها الملك ويخلو اليها نظره . وعندما يرتفع تهليل
الموسيقى وتتردد اصداؤها فى انحاء الغابة معلنة الظفر
بأنفريسة وانتهاء الصيد وينثنى الملك الصياد قافلا فى
طريق العودة الى قصره البديع الانيق فى « شوازى »

«Cholsy» على مقربة من فرساي تظهر العربية الصغيرة ويبلغ من اقتراها أن تكاد تلمس أحيانا المركبة الثقيلة التي تقل الملك وهو جالس في صمت المفكر وإلى جانبه الخلية الرسمية الدوقة «مدام شاتورو Mme. Chateauraux» وصاحبتهما «مدام شيفريز Mme. Chevreuse»

وفى بعض هذه الاصائل اثناء الاياب من الصيد اتفق ان اشارت مدام شيفريز الى صاحبة العربة الزرقاء حورية الغابة تلك الجنية الفاتنة التي تطلع عليهم اثناء الصيد فى صورة غانية باريسية وكان لويس الخامس عشر شديد التطلع الى الوقوف على اسرار رعاياه وخاصة النساء وكان يعرف الكثير عنهن من تقارير الشرطة ومن ثمة لم يكن يجهل اسم تلك الغادة الحسناء وكان يعرف انها زوجة خازن من خزنة بيت المال هو «المسيو لنورمان» وانها تسكن قصر اتيول الذى يملكه عم زوجها صاحب الضياع وكان الملك قد اكثر من النظر الى العربة الزرقاء بحيث لم يعد للخليلة الرسمية «مدام شاتورو» صبر على سماع ادنى اشارة اليها فضلا عن الثناء عليها . ومن ثمة لم تتمالك فى غيظها ان مدت فى الخفاء قدمها فدعست بها قدم صاحبتهما فى قسوة بالغة صرخت لها وتألمت وكان للخليلة ما أرادت فقد انقطع الحديث الخطر ولم يرد للعربة الصغيرة الزرقاء وصاحبتهما ذات الثوب الوردى ادنى ذكر بقية الليلة .

بيد ان العشيقة الرسمية «مدام شاتورو» لم تلبث ان لزمته الفراش من وعكة خفيفة بالحمى فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٧٤٤ ثم ساءت صحتها وتفاقمت حالتها منذ اوائل ديسمبر فما كان الثامن من ديسمبر حتى كانت انثية قد اختطفتم الدوقة المحظية وفى الصباح

الباكر من اليوم العاشر دفنت .

واعتكف الملك مع أربعة أو خمسة من خاصته فى قصر ريفى بالقرب من غابة بولون ولم يكن يحاول كتمان حزنه وفجيئته على « العشيقة الوحيدة التى احبها » ولم يلبث أن ظهر عليه الاحساس بالفراغ والملل

وكانت النساء يترقبن منه تلك الساعة الاتية التى لا ريب فيها ساعة التطلع الى ناحيتهن فى طلب السلوان عند واحدة منهن .

وقد حاول الدوق دى ريشليو ان يستدرج اخت المتوفاة
الاخت الرابعة « مدام دى فلاقاكور Mme. de Flavacour » ولكنها ابت العرض واستنكرته . ولكن أكثر من غانية كانت حول الملك تعرض نفسها طائعة راضية ، اما لويس الخامس عشر فكان - كعهده - اشد الناس حذرا من الناس وانطواء على نفسه ومن ثمة نفوره من الغانيات الطامحات اللواتى يتخذن حبهن الزائف وسيلة للوصول وايشاره الطبيعى للمرأة التى تحبه بوصفه رجلا أكثر منه ملكا لما يدخله مثل هذا الحب على نفس الرجل من الاعتزاز . هذه المرأة التى لا مطمح لها لا يمكن الملك ان يضيق بها . انها خرجت من العدم والى العدم تعود بمجرد اشارته فاذا هى تعلقت به فانه تعلق الامة العابدة للسيد المعبود فيه ضراعة لا ترتفع الى مرتبة الالتزام والمطالبة . لهذا كان الملك يتجه بتفكيره الى الباريسية من بنات الطبقة الوسطى وكانت المرأة الباريسية قد بدأ يظهر سلطانها فى المجتمع الفرنسى . والملك - بفضل تقارير الشرطة وقلة الامانة على الاسرار فى البريد - كان مطلعا على ما خفى من حياة رعاياه وعلاقاتهم الشخصية ومغامراتهم الغرامية وكان الحديث فى ذلك احيانا سمره فى المساء مع « بينيه Biner » خادما مخدعه .

وكان « بينيه » يجارى سيده ويحدثه عما يعرف عن باريس والباريسيات وقد أجرى على لسانه - فيما يقال - اسم ابنة عمه « مدام دى اتبول » التي كانت تتمنى لزوجها وظيفة ملتزم عام على الضياع وردد الملك : « مدام دى اتبول .. ذات الثوب الوردى » وتراعى امام عينيه المستغرقتين فى التفكير لطيف قوام لطيف يمر فى العربة الزرقاء اللازوردية تحت اشجار الخريف بأوراقها المذهبة النحاسية فى غابة « سنار » .. هذه العادة التي اقلقت الدوقة المسكينة « مدام شاتورو » وشغلت بالها .. هذه الحسناء الصبية الوضيعة النسب الرفيعة الادب التي افتتنت بها صالونات اهل المال ولم تتخذ عشيقا ، لم تتخذ بعد .. اتراها عفيفة ؟ هذه مبالغة فى القول لقد زعمت للناس انها لن تكون لغير زوجها الا ان يكون الملك نفسه فماذا يمنع من قطف هذه الوردة الصغيرة اذا هى سعت اليه فى حاجة تلتمسها .. لا بأس من تشریفها يومئذ بضمة عابرة ثم يتركها لشأنها .

فى افراح ولى العهد

كانت الافراح التي اقيمت عام ١٧٤٥ بمناسبة زواج ولى العهد بالغة منتهى الروعة وقد امتدت اياما وليالى عدة ولقد شاء الملك ان يكون آخر يوم فى هذه الافراح - وهو السابع والعشرون من فبراير - مرقصا فى قصر فرساي غير مقصور على المدعوين بل مباحا لجميع الوافدين ماداموا مقنعين وهكذا فتحت ابواب القصر الحديدية للارتال من العربات القادمة من باريس فكانت تفرغ حمولتها الجميلة فى الساحة الداخلية امام السلم الرخامى المؤدى الى ردهات القصر . وقد شهدت قاعة المرايا وهى غارقة فى الانوار عشرات المئات من الطبقة الوسطى من ابناء باريس وبناتها

الحسان ممن اجتذبهم المرقص المقنع فكانت لهم حظوة
الاشتراك فيه دون ان يطلب اليهم حجاب القصر بطساقة
الدعوة بل كان القناع وحده بمثابة الرخصة وجواز
الدخول وكانت الزحمة تفوق الوصف حتى ليصبح القول
بأن باريس كانت تلك الليلة فى قصر فرساي وكانت
المرايا العريضة العالية تعكس هذه الجموع الراقصة
فيزيد الاحساس بالزحمة والبهجة وكان الراقصون
والراقصات يبدون فى ثياب التنكر اما شتى واجيالا
مختلفة واجناسا عجيبة فثمة آلهة الاولب عند الاغريق
والرعاة وعرائس الغاب وهؤلاء اتراك بعماثهم الكبيرة
واولئك فرس يرفلون فى طيالسهم الطويلة وهناك الهند
والصين بازياتها فضلا عن المتنكرين فى ثياب المهرجين
فى المهازل المعروفة المشهورة • وقد دار ندمان الملك
بالكتوس على الراقصين والراقصات مرة بعد اخرى فدارت
بهم الرعوس على دوارها واشتدت حرارة الجو من الشموع
والانفاس وزاد ثقلا بما تشبع به من رائحة الشمع المحترق
وما تضوع فيه من عبير العطور • وكانت المعازف والنايات
والقيثارات تتطاير انغامها العازفة كأنها الف نحلة فى
حديقة وارفة • كل هذا والتماثيل الرخامية تتأمل عريضة
هذه الليلة المجنونة بعيون شواخص جامدة •

وانفتح أحد الابواب فوق اضطراب فى هذه الكتلة
البشرية المواردة ثم اعقبت ذلك هداة وانحنت الرعوس الجميلة
بشعرها المستعار المبيض من الذرور المتألق بحبات اللؤلؤ
المنثور • ثم تدافعت الغانيات بالمناكب لترى الملك •
انه لا شك الملك • • فما من امرأة ألا وتريد رؤيته أو على
الاصح تريد ان يراها ويروقه محياها • انه من بعد موت

عشيقته يبحث لا محالة عن فينوس يهديها التفاحة الذهبية
التي تتحدث عنها الاسطورة الاغريقية وما اكثر القلوب
التي خفقت لهذا الخاطر تحت رداء التنكر الساحر بيد ان
هذا الامل لم يلبث ان خاب حين تقدم الموكب فسمعت منه
حركة الاقدام الصغيرة العصبية وحفيف المآزر الفضفاضة
النسائية انها الملكة تستند الى ذراع فارس الشرف ومعهما
بطانتها وخلفها ولي العهد وعروسه وهو متنسك في زي
بستانى وهى فى زي بائعة الازهار ، أما الملك فلم يكن في
الموكب فاذا الغانيات ينصرفن عن الموكب وقد فارقهن
فضولهن وعدن الى التعلق بمن كانوا يراقصونهن .

بيد انه لم يلبث ان انفتح باب آخر واقبلت اشباح
اخرى عجيبه قاتمة وكانما الحديقة زاحفة على القصر قادمة
انها ثمانى دوحات طوال من السرو تتقدم فى وقار ونبات
بين الراقصين والراقصات . وكانت هذه الدوحات تتخللها
شقوق للعينين وللحم وقد اقبلت الغانيات وتحلقت حول
الدوحات وكل منهن تحسب انها عرفت الملك فى هذه
الدوحة او تلك ولكن واحدة منهن فقط هى التى عرفت
الملك ولم تخطئه ، انها « مدام دى اتيول » . لقد عرفت من
صوته ومن عطره وكانت متتكرة كغيرها فما زال الملك
بها حتى ازاحت القناع لحظة عن وجهها فاذا الملك وجها
لوجه امام « حورية الغابة » التى لم تلبث ان فرت كالغزال
من بين يديه بعد ان اسقطت منديلها الصغير من الدنتلا
عند قدميه فالتقطه الملك والقاء اليها فى رشاقة وحركة
رمزية وهنا ترددت الهمسات : « لقد تحدثت .. فقبل
التحدى .. واسرعت الغادة وهى ترتجف من نشوة الظفر
الى الخروج واستقلت عربتها عائدة الى باريس .

وقد ابت باريس التى استقبلها الملك فى قصره ألا ان

تدعوه الى دارها الشعبية دار البلدية حيث اقيم كذلك
مرقص مقنع ليكون خاتمة ليالى الافراح احتفالاً بزواج ولي
العهد . وقد بلغ من الزحمة ان انقلبت الى فوضى فتلكأ
الملك - وهو فى ثوب التنكر الاسود المرقع على شكل
مربعات النرد فى الذهاب الى دار البلدية ولم يزل وبعض
اخصائه يرقصون هنا وهناك فى فرساي وفى دار الاوبرا
الى ما بعد منتصف الليل ثم اقبل على مرقص البلدية حيث
التقى بمدام دى اتيول وكانت فى مثل ثوب التنكر الذى
يرتديه ولكنه كان مشوشا من تدافع الزحام ودعاها الملك
للاستجمام ساعة فى مكتب الحاكم حيث لقي من دلالها
ما اوقعه فى حبالها ، فما ان غادرا دار البلدية حتى سألها
الى اين تريد ان يذهب بها فلم تترخص وقالت على الفور:
« الى بيت والدتى »

وهكذا تغير موقف الملك من هذه الحسناء التى ظنها
فريسة سهلة ومتعة ليلة فلا عجب ان جعل منها بعد فترة
غير قصيرة من المراودة والتحبب عشيقته المفضلة بل
عشيقتة الرسمية ، وظلت لها مكانتها وحظوتها عنده حتى
اختطفت المنية هذه الزهرة اليانعة الجنية .

القصص العالمى

- من القصص الاسبانى
- من القصص الفرنسى
- من القصص الروسى

من القصص الاسباني

كلمة تعريف بالمؤلف الأسباني
بلاسكو أبانيز

بلاسكو أبانيز مؤلف روائي عالمي ، وناثر سياسي
أسباني . ولد في « بلنسية » على ساحل اسبانيا الشرقي
عام ١٨٦٧ .
وكان « بلاسكو أبانيز » في طفلة الشباب المتحمسين
للمبادئ الجمهورية في عهد الملكية الاسبانية ، وكان من
اشتراكه في مؤامرة ضد الملكية عام ١٨٨٩ أن اضطر
للهجرة الى باريس ، حيث لاقى بعض المنفيين من الاسبان ،
من شتى الطبائع والامزجة وهم يشتركون لكسب معاشهم
والحصول على مايسد أودهم في تأليف معجم اسباني
فرنسي . ولم يلبث الشاب أن عاد الى مسقط رأسه
« بلنسية » ، واستأنف لقاء الخطب السياسية
الحماسية واصدار الصحف اليومية ، ثم اخذ في أثناء
ذلك ينشر أولى رواياته أجزاء متتابعات في ذيل جريدته
« الشعب » فكان من جراء حملاته العنيفة أن تعرض
للاضطهاد ، فاضطر ثانية للهرب الى ايطاليا . فلما عاوده
الحنين ، وعاد الى « بلنسية » امتقل وصدر حكم
القضاء عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة أربع عشرة
سنة . ولكن « بلنسية » بلدته الوفية ، انتزعتة بعد
قليل من السجن حين انتخبته نائبا عنها
ولم يناهز « بلاسكو أبانيز » سن الثلاثين ، حتى كانت

رواياته التى تمثل الحياة الاسبانية العصرية فى موطنه « بلنسية » ، قد ذاعت شهرتها وكثر الاقبال على قراءتها ..

ومن ثمة زاد استغراق المؤلف فى تأليف القصص ، وكثرت أسفاره حول العالم للتزود من المعارف والتجارب . وكانت أحب هذه الرحلات الى نفسه رحلته عام ١٩٠٩ الى أمريكا الجنوبية اللاتينية .

وفى سنة ١٩٢٤ عاد بلاسكو أبانيز الى الكتابة السياسية برسالة عنيفة عنوانها « كشف القناع عن الفونس الثالث عشر » ، طبع منها بالاسبانية ما لا يقل عن المليونين من النسخ للتوزيع فى أسبانيا والجمهوريات اللاتينية فى أمريكا الجنوبية ، كما طبعت الرسالة فى الوقت نفسه بالفرنسية فى باريس ، وبالانجليزية فى لندن ونيويورك

بيد ان شهرة بلاسكو أبانيز فيما وراء أسبانيا ترجع قبل كل شيء الى رواياته التى ترجمت الى معظم اللغات . وأكبر الظن أن رواياته كانت قبيل وفاته أوسع انتشارا فى بلاد العالم الاخرى منها فى أسبانيا .

وقد استقر به المقام فى اواخر حياته فى باريس ، ومنها كان يبذل المساعى والجهود لتجديد الفتن السياسية فى أسبانيا لتحقيق الجمهورية ، حتى أدركته المنية فى بلدة منتون عام ١٩٢٨ .

لونات من الحب

« لبلاسكو أبانيز »

ظل اهل باريس كلهم ، ممن يرتادون حفلات الشاي الراقصة أو غير الراقصة التي يقنع المجتمعون فيها باغتياب الناس والخوض في شئونهم - كل هؤلاء ظلوا يسمرون اسبوعا كاملا ويعيدون ويبدئون في موضوع زواج « موريس دلفور » ورث مصانع دلفور وشركائه (ويبلغ رأس مالها الملايين) بالحسنة « اوديت مرسالك » ابنة أخى علم من اعلام النواب ان يكن قد خفت اليوم اسمه فانه كان مرشحا مرتين لرياسة الجمهورية .

وليس بالحدث النادر في الحياة الباريسية زواج ملك من ملوك الصناعة بأميرة من أميرات الجمهورية ، بل قلما يكون في هذا مؤونة لحديث نصف ساعة ، الا أن لهذين العروسين شأننا وأى شأن !

اما هو فكان حلم النساء ، يتراءى لهن مثالا لكل ألوان الاناقة ومظهرا حيا للمعارف البشرية جميعها : كأس الشرف في أرقى مسابقات الخيل ، كأس الشرف فيما لا يحصى عديده من مباريات السيف وصيد الحمام ، كأس الشرف في سباق السيارات الاعظم بين باريس و نابولي ، وأمثال ذلك ، حتى أخذت غرفة مكتبه تظهر شيئا فشيئا بمظهر حجرة الاكل لكثرة ما يشاهد الانسان فيها من اكواب الشرف مصفوفة على المناضد وسائر الاثاث ..

ثم انه الى هذه الانتصارات في فن الالعاب والرياضة له نصيب من جاه رجل العلم فهو في الآونة الحاضرة مهتم بالطيران ، يحلق بالطائرة كل اسبوع أو مايقرب من ذلك وهو يعقد مايبين حاجيه وتبين على وجهه سمات السابح في الافكار وغوامض الاسرار اذا ماتكلم متكلم في مجلسه عن مسائل الآلات وما يتعلق بها .

وأما هي ، فهي عند صواحبها « اوديت » اوديت فريدة زمانها ، وهي عند سائر الناس «الآنسة مارساك» اسم شهير بارز في كل مايروى عن الاناقة وفي كل صحف الازياء وفي كل الحفلات الافتتاحية، وكان اكابر الخياطين من ذوى الفكر والابداع في شارع « دى لاييه » يعتمدون على الآنسة مارساك ابان الحفلات الكبرى في الحياة الباريسية في رفع شأن ماتلبسه من مبتدعات قرائحهم المتوقدة فان قوامها الذى لا يضارعه قوام يدع الفوانى من الغيرة كاسفات متحسرات . . هيفاء ، لا يزيد وزنها على الخمسين كيلو الا قليلا . لها نحر بلغ من الحسن غايته ترتسم في اهابه الرفاف عظمتا الترقوة الرشيقتان وكأنهما قاعدة لعمود جيدها المستدق الرهيف . وتبين في ظهرها العاجى لوحنا كتفيها مفصلتين للعيان كأنهما جناحان ناجمان . وساقاها طويلتان مستويتان لا يكاد يرى لها ريلة وهي تعرضهما في طمانينة غير محاذرة من الفجوة والفتنة تحت حافة ثوبها الحريري القصير . كذلك سائر مايكسو بدنهما من اللحم قد روى في توزيعه التقتير ، فلا يربو مقدار اللحم درهما عما يكفي لتلبيس العروق ، وتلطيف الحاد من حنايا الاضالع والاوصال . وجملة القول انه جسم يصدق نعته بـ « الهوائى » وان شئت فهو ذريعة للء الفراغ في داخل الثياب اجتنابا

متسيتها وحدها .. وهذا الكيان الحى الذى بلغ الغاية فى حسن السمى والشارة يعلوه وجه جميل أسيل اطاله ذقن مدبب وزائنه حلقة صغيرة قرمزية هى فمها الدقيق البديع ، والتمعت فيه لوزتان هما عينهاا للعجوان ، وتهدلت على الاذنين لمتان كأنهما سالفتا فتى من منازلى الثران الاسبان ، وقد صففت غدائرهاا مجمعة فى شكل البرج القائم تشتبك فيه الخصل العارية بخصل الغانية . انها هى ربة الجمال العصرى كما قد يتصورها ويعبدها الفنان من واضعى رسوم الازياء فى سبحات خياله المبدع واحلامه العبقريّة .

وفى مستهل عام ١٩١٤ نجمت لعبة جديدة وشاع امرها وقامت قيامتها بين العلية والفطاريى من أهل باريس ، ومن أهل العواصم الاوروبية والامريكية التى تأتم بها وتقوم منها بمثابة الضواحي والارباض . فكان اهل الاناقة الفطاريى يهزون اردادهم ليرقصوا رقصة « التانجو » . وفى طليعة هذه الخليقة التى ترقص التانجو كان موريس وكانت اوديت .

اما هو فقد اتصل سرا باستاذ للرقص من ابناء الارجنتين ، وآلى على نفسه ان لا ترى عيناه النجلوان انوار المدينة الساهرة الا وقد حلق هذا العلم الجديد حذقه لغيره من العلوم . وفى ذات ليلة من الليالى الزاهرة اقبل موريس ليجنى اعجاب القوم ، وهو فى حلبة الرقص تحت المصباح الكهربائى فى فندق من فنادق الشانزليزيه ، يحرك قدميه فى حداثهما اللامع العالى الكعب ، ويهز قوامه المهضوم المحبوك فى سترته المحكمة ، وينغص برأسه الجميل ، وشعره الجعد مرسل الى وراء كتلة وضيئة كظلاء اللك لامعة .

وأما هي فقد اثارت مثل هذا الإعجاب في ناحية أخرى من المرقص . وكما يحس الكوكبان اقترابهما ويتجاذبان ، كذلك كان موريس وأوديت يهفو كل منهما نحو الآخر ويتهافت عليه ، يحدوهما باعث لا يقاوم من ائتلاف في الطباع وامتزاج في الشعور حتى لاشيء يفرق بينهما . .

فهما منذ ذلك الحين يرقصان وكل منهما كأنما يرقص للآخر . ولقد أصبحا لا يلبقان الانسجام المنشود بين ذراعى الفير . وكانا إذا تراقصا لم يهتكا بكلمة واحدة حجاب الصمت المحفوف بالأسرار في الرقص المقدس . بل كانت قوة روحهما جمعاء منصرفة في جد وتفكير إلى حركة أقدامهما وإلى تشنى إعطافهما في اهتزازات موزونة متوافقة ، وهما أشد ما يكونان شعورا بأن حرمة رقصهما أبد الدهر رهينة بأن يبقيا مدى الحياة شريكين .

وهكذا نما الحب بينهما ، وهكذا تم قرانهما . واستيفظت باريس بأسرها في ذات صباح قبل موعد يقظتها المهدودة بسعتين لتشهد حفلة القران . وكان يزين الحفلة تشريف عواهل الصناعة أجمعين ، وعدد لا حصر له من رجالات السياسة أصدقاء عم العروس وكان معلوما علم اليقين ما يجمع العروسين من وشائج صباغة وغرام ، كاطيب وأوثق مآروته الأساطير بين الانام

وقد سلك موريس مسلك العاشق الحق ، فودع الوداع الذي ليس وراءه عودة ترتجى سائر عشيقاته على اختلافهن ، وكلهن من كاهنات الفنون الرفيعة : التمثيل والفناء والرقص . لقد انتهى عهد الجهالات ، وحسبه منذ اليوم أمراته الصبية ودراساته العلمية الجديدة . .

أما هي فما برحت تنزع للمفاصلة كذى قبل جريا
مع العادة ليس الا ، ومن غير أن تسمح لاحد بالاجترأ
المقتحم . وانما حسبها منها أن تكون دواعى للاحاساس
بالخطر تزيد شعور زوجها بما صار اليه من السعادة
والظفر ..

وقد جعلنا مقر سعادتهما فى قصر دلفور ، وهو بناء
فخم شيده أول مثر من أصحاب الملايين فى الاسرة على
مقربة من حدائق مونسو ، بين قصور أقرانه الممولين .
وتطل الوجة الخلفية من القصر على هذه الحدائق ، وقد
اعتكفت الأرملة دلفور فى الطابق الأعلى بما بقى لها من
أناث البدخ القديم وتخلت عن بقية الدار لابنتها وزوجته
ليتسنى للعروس الشابة من غير عائق أن تشبع هواها
الزخرفى فى زينة البيت فاذا بهذا المنزل العامر من قبل
بالاثاث الارجوانى المذهب والمقاعد الفخمة من طراز
نابليون الثالث تطفى عليه نزوات الخيال والوان المفارقات
فى طراز مستحدث من الاثاث خليط من البيزنطية
والفارسية ، وهو بعد ربيب دور الفن فى ميونيخ الألمانية

وكانت الام دلفور متشحة دائما بالسواد ، وهى أبدا
رصينة مفكرة شأن من خبر الدنيا وعرف قيمتها ،
وكانت تشهد - دون أن تبدو عليها بادية - ما تأتية هذه
الشابة الوافدة فى الزمن الاخير . من ضروب البدوات
والبدع : مهرجانات شرقية تقلب الدار الوادعة رأسا ،
على عقب ، حفلات شاي راقصة ، وهى فى ثياب من
غلائل الكتان الرقيق شفافة ، ضيقة كالغمد ، موشاة
بازهار كبيرة الحجم بارزة الطرز ، مزومة على عريها
وهيأها ..

ولما كان ابنها مشغوبا بأوديت يعبدها فقد اجتهدت

الام ان تلتمس العذر لزوجته الصغيرة فى جميع أهوائها
ونزوات مزاجها : ياللبنية المسكينة لقد نشأت من غير
ام فعاشت كالغلام طليقة !

وقامت الحرب وكان من بوادر آثارها ان بدت أمارات
الربح فى عينى الفانية الشابة ، سيدة قصر دلفور
الجديدة ، فهما متسعتا الحدقة مروعتا النظرة . امكن
مثل هذا البلاء ! وفى الساعة التى يكون الانسان فيها
اشد ما يكون لهوا وانبساطا .

اما الحماية فقد لاح عليها انها كبرت ، وانها قد خرجت
من اقتباسها عن العالم . وهذه نظرتها تستقر رصينة
بطيئة على الاشخاص وعلى الاشياء كأنما تتعرف عليها
من جديد وهى فى زمانها قد رأت الشيء الكثير وكان أول
من بادلت كلمات الحب رجل الصناعة دلفور فى عام
١٨٧٠ ، اثناء حصار باريس . ثم شهدت وهى عروس
صبية مأساة حكم اللجنة الجمهورية العاثر فى فترة عمره
القصير ..

ودعى نجلها للسفر الى الميدان فى الوقت الذى بدأت
امراته تعجب فيه بالرجل الجديد فى حلة الضابط
الرسمية ، تنسجم عليه أجمل انسجام ، وتضاعف من
رشاقته فى فتوة ورجولة . ولقد أراد أن يلتحق
بالطيران ، الا أن الطيران كان فى طور الطفولة فى أول
نشوب الحرب فبقى فى المدفعية تبكيرا فى القيام بالخدمة

ورغبت اوديت ايضا فى ان تؤدى نسيتها لبلادها .
وكانت صواحبها فاديات رائحات فى المستشفيات .
فصحت عزيمتها بحافز من الاريجية على التطوع ممرضة ،
لانها كانت شديدة الاعجاب بالجلة البيضاء ، والبرنس
الازرق ، وعصابة الرأس الناصعة . فهذا الرداء البسيط

الجديد يلائم جمالها كل الملائمة . وكانت لفرط هيامها بالظهور في هذا الزى الأخير من الثياب تفادى المرضى أحيانا كثيرة للطواف في سيارتها متنزهة في غاب بولونيا ، رافلة في الغلالة البيضاء المزدانة بالصليب الأحمر على الأردان والصدر .

أما الأرملة دلفور فكانت تقضى أيامها ولياليها في المستشفى من غير أن تخلع ثوبها الأسود السرمدي .

على أنه للحرب كما لغيرها مباحجها ومتعها : فثمة حفلات الشاي المقصورة عليهن معشر النساء بمعزل عن محضر الرجال يضايقونهن ويرهقونهن بالمجاملات ، وهن في هذه الحفلات متشحات جميعهن بالثياب البيض كأنهن الخادومات في دور الحمامات ، ومن كل صوب تنعقد حولهن نظرات الحسد ممن لا يرتدين زيهن . ثم هن يتسلبن بحوك ملابس من شغل الأبرة للجنود ، مزهوات بما يبدو عليهن من قلة حذق هذه الأشغال ، شأنهن في ذلك شأن العقيات من العلية قمن عن الخادمة بشيء من أشغال المنزل . وفي أثناء ذلك جميعه بأخذن في الحديث : « زوجي يحارب في الألزاس » والمسيو دلفور ، في أي الميادين هو ؟ » وكان المسيو دلفور في مكان ما في ناحية البلجيك ، وكانت امراته الجميلة تقص مفامراته وهي تدبر من حولها نظرات اعتزاز وخيلاء : لقد نوهت به النشرة العسكرية مرتين ! لقد انعم عليه بوسام ! لقد منح تشاره !

ولكن عدد الإبطال كان كثيرا كوابل المطر . وكانت أوديت تمتعض وهي تسمع غيرها من النساء يذكرن عن أذوانجهن مثل المذكور .

آه ! إلا من سبيل الى التفوق !

وفي ذات يوم ربح قصر دلفور في حدائق مونسو بنوبات شديدة من الانفجالات العصبية والنحيب مصحوبه باصطفاق الابواب وبويقي السيارات ووفود من الاطباء . لقد جرح الملازم دلفور في الميدان جروحاً خطيرة من انفجار قنبلة . وارادت اوديت ان تسافر على الفور لتسهر الى جانب سرير زوجها . لكن هذا مستحيل ! فاسودت الدنيا في ناظرها وودت لو تموت . ذلك على حين بقيت الام ناضبة العينين ، تطرف بأجفانها ، وتعصر شفيتها ..

ولما ان عادت اوديت الى الظهور في المجتمعات الخاصة داخلها شيء من الرضى ، فليس بين صواحبها من تجرؤ على مطاولتها والاقتياس بها . لقد جرح موريس ، وجرحه خطير ، والكل مشفقون على مآصار اليه هذا الزوج الفتان الذى ابتلته الحرب هذا البلاء الشديد .

وهون هذا الاعجاب العام على اوديت جزعها ، فجعلت تألف شيئاً فشيئاً فكرة هذه الجروح الغامضة . أية جروح هى ياترى ؟ تخيلت زوجها أعرج يطلع ، فى إحدى يديه عصا ويده الاخرى تعتمد على ذراعها . ما أملحهما زوجين ! ان المستقبل مافتىء بدخ لهما ساعات هناءة طويلة . لسوف ترعاه وتحبوه السعادة بحنان الام الرؤوم ومنافاة الحبيبة .

وفي اصيل ذات يوم فى شارع رويال ، وقع بصرها على ملازم من الرتبة الثانية ، وهو جد يافع يكاد يكون غلاماً ، يسير الى جنب خطيبته ، وأحد كفى سترته متهدل خاو . موريس هو الآخر فقد ذراعه ، هى موقنة بذلك . وهذا هو السبب فى أن خطاباته المكتوبة على عجل ، الناطقة بسرور موجه ، هى دائماً املاء وليست

بخط يده . ولكن ماذا يهم ؟ ستكون سند زوجها ،
سنتوب ذراعها عن ذراعه المفقودة . انما اشوق مايشوقها
رؤية طلعتة ، والتطلع الى خيالها في صفاء عينيه ،
والتلمي بنظرته الحلوة المداعبة الساخرة فى لطف .. آه !
ما أشد حبها إياه .

وكان صواحبها يتلقينها دائما مرددات نفس السؤال :
« كيف حال الجريح ؟ » وهى تجيب راسخة اليقين :
« فى تحسن مطرد ، وهو قادم قريباً الى باريس » .

وتعاقبت الايام والشهور . ووردت الخطابات تلو
الخطابات ، وكلها مكتوبة بغير خطه الا انها املاؤه .
فقلقت الام واستفهمت من اصدقاء الاسرة الاقدمين ،
وهم قوم من ذوى الرجاحة والرصانة فلا ريب يكتمونها
بعض الخبر :

— ان جروحه بليغة ولكن لا خطر عليه تشجعى المهم
هو أن يعيش . وفى ذات صباح هبت اوديت من فراشها
وقد ايقظتها بفتة من نومها حركة اضطراب غير عادية فى
القصر . فازاحت ستار احدى النوافذ ، فوقع بصرها
فى خارج الباب الحديدى على سيارة مقفلة عليها شارات
الصليب الاحمر ، ثم تبينت بصعوبة من خلال طنف
الزجاج الممدود فوق الدرج الخارجى رهطاً من الناس
صاعدين يحملون بين ايديهم شيئاً ملفوفاً يحتاطون له
بالف احتياط ، وكأنه قطعة من الاثاث . يخشى عليها
التلف . فقفز قلبها فى صدرها .. موريس !!

وأفرغت عليها بعض الثياب ، وانطلقت من غير أن
تستكمل هندامها لأكفئة تنحدر على السلم ، الى بهو فى
الطابق الأدنى ، وحاول الخدم ملغورين راجفين منعها .
اقتحمت القاعة ، وفى الحال عرفت الرأس الموجه

المسنود الى وسائل الاريكة .. هذا هو ، مشوها أظف
تشمويه ، مخدد الوجنتين بأخاديد متشابكة من الندوب
الزرقاء الكابية ... ولكنه هو .

لم تبق نه غير عين واحدة . اما العين الاخرى فان
موضعها توارية عصابة سوداء بحجم مجعها الاجوف .
ثم سرحت اوديت طرفها في صدره المستور تحت قماش
سترتها الزرقاء ، سترة الضابط القديمة . ولكن ...
ولكن هنا تزلزلت المرأة ومادت بها الارض كمن ضلم
صدمة فظيعة مفاجئة . فاذا بها قد صرخت . ان
جسمه الجريح ينتهى هنا ، بغير ذراعين وبغير ساقين .
ماهو الا جذع ابتر ، بقى بفضل معجزات الجراحة خرقة
ممزقة في نهايتها رأس حى .

وغمغم ذلك الفم - الاسود من حريق الحمم - في
ضراعة وذلة : « اوديت ، اوديت » كأنما يلتبس الصفح
عما حل به من بلاء .

ولكن اوديت كانت قد ولت مجفلة تدفع من طريقها
الخدم المتجمعين امام الباب ، وانطلقت على وجهها
تركض في أطباق المنزل العليا لاتعى ما تفعل ، مولوة
كاشد ما ولولت امرأة في مأساة اغريقية ، تصطدم بالاثاث
والحيطان ، وتمزق شعرها المحلول ، وقد جن جنونها
من دهشة وفزع واشمئزاز .

هذا المخلوق المشوه المسوخ الخلقة زوجها !
وواجب عليها البقاء الى جانبه طوال حياتها !

ولم يزل يئن في الطابق الادنى ذلك الصوت المضارع
الموجع مسترسلا : « اوديت ، اوديت ! » .

واغرورقت بالدموع عينه الوحيدة . الكل يهربون .
حتى الخدم يتأملونه من بعيد ، ويحاول كل منهم الاختباء

وراء زميله وهو متلهف على الهرب ، ويشرب مع هذا
بعنقه وعلى وجهه سيماء مبهمه من تطلع الفضول
وانقباض النفور .



وكان القوم يتجنبون لمسه ، كأنهم منه بازاء كثلة
غروية تعافها النفوس ، بازاء اخطبوط بترت سواعده
المتشعبة ، بازاء مادة نخامية لا قوام لها لفظتها الحرب .
هذا صاحب الملايين الذى كان شديد الحب للحياة ،
ايظل ابد الدهر على هامش الحياة آ لقد احدثت بليته
فراغا حوله ، حتى كلبه المحبوب يئن على قيد خطوات
منه يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، كأنما هو نهب دوافع
تداول عليه دراكا ، من ولاء لسيده وفزع منه .

ولسوف يظل ماعاش على هذا المنوال . . . آه حبلا
الموت ! الموت العاجل ! وعلى حين فجأة تنحى جمع
الخدم . هذا شخص يدخل القاعة . ولمح الجريح المشوه
رأسا مجللا بالمشيب يتقدم نحوه ، ثم احس على وجنتيه
المخدودتين بالجراح لمس فم يتمسح بهما ويلثم كالواله
العصابة المسدلة على مقلته الجوفاء ، وأحس ، وكف دمع
سخين يبذل جيده وذراعين تطوقان فى شغف وحركة
عصبية بدنه الناقص التكوين كأنهما تطوقان طفلا .

وتصاعدت أنة :

— أماه !

— ولدى ! ولدى !

صحيفة العدالة

« لبلاسكو ابانيز »

قضى رفائيل أربعة عشر شهرا في غيابة محبسه الضيق . وكانت دنياه هذه الجدران الاربعة الموحشة في بياض كيباض العظام ، وقد حفظ عن ظهر قلب جميع ما بها من تفاليق وشقوق . وكانت شمس هذه الكوة الصغيرة المرتفعة المشبكة بقضبان من الحديد تقاطع تلك الشقة من السماء الرقراء الوضيئة . أما مساحة أرضه فلا تكاد تبلغ ثمانية أقدام ، وليس يخصه منها الا نصفها بسبب هذه السلسلة المخزية الصليل التي تحز حلقتها في مفصل قدمه وكأنها جزء من لحمه

وكان محكوما عليه بالاعدام واوراق قضيته تراجع مراجعتها الاخيرة في مدريد ، والشهور تتعاقب في اثر الشهور ، وهو هنا الميت الحي ، يبلى كالجثة الا انها مرددة الانفاس في هذا التابوت المشيد من قرميد وملاط . وكان قصارى مشتهاه وغاية ما يمكن أن يتمناه - كالذي يعارض البلاء الشديد بأهون منه - أن تمجّل اليه الساعة التي يأخذ فيها جبل المشقة بمخنقه ، ويقضى على كل هذا قضاء المبرم

وأشد ما كان يضايقه في اسجن النظافة . هذا البلاط المفسول المحكك كل يوم حتى لتتصاعد منه الرطوبة وتنفلد من فراشه الى عظامه ، وهذه الجدران

التي لا يسمحون لذرة من التراب أن تعلق بها . لقد حرموا
السجين حتى مصاحبة القذارة .. يا للوحشة المطبقة !
.. فلو أن الفران تنطرق الى هنا لكان يعزيه أن يقاسمها
طعامه الزهيد وأن يخاطبها مخاطبة الخلان ، ولو أنه وقع
على عنكبوت في ركن من الأركان لتلهى بتطبيعه وتألفه

وفى ذات يوم تطلع عصفور من السكوة كأنه ولد من
شياطين الأولاد ، وزفزق انطاثر الشرود المتقلب فى أجواز
الفضاء والنور ، كأنما يعرب عما يخالجه من دهشة ، وهو
يطل على هذا الإنسان الكاسف اللون ، المنقوف البدن ،
المرتعد من البرد فى الصيف القانظ ، وعلى جبينه بضعة
مناديل معقودة ، وحول حقويه حزام من الصوف . انه
لاشك قد تعاطفه مرآى هذا الوجه الشاحب المنضمر
كالورق المضغوط .

وكان السجين يأتيه حس الحياة الوحيد من رفاقه
المساجين ، وهم يرتاضون رياضتهم اليومية فى فناء
السجن . فهم على الأقل يبصرون السماء المجلوة فوق
رءوسهم ، ولا يتنفسون الهواء من خلال كوة ، وأرجلهم
حرة طليقة . وهم — فوق ذلك — واجدون من يحدثونه
— سحقاً وبؤساً ! .. حتى السجن طبقات ، وبلاؤه
درجات . وكان رفائيل لا يدرك أنه فى جبلة الإنسان
التبرم بحائه . فهو حاسد للمساجين فى الفناء يعتد
حالمهم أحب حال ، وهو حاسد لمن فى خارج السجن
يستمتعون بالحرية . وما يدرية ان هؤلاء المطلقاء
السارحين فى الشوارع متبرمون جاحدون لما هم فيه
يطلبون مالا سبيل الى ادراكه .. ما أحلى الحرية ...
أن هؤلاء حقهم السجن ..

وكان رفائيل قد بلغ من الضيق منتهاه . عالج فى نوبه

يأسه ان يحفر نفقا تحت الارض يهرب منه ، فأعيته يقظة الحراس له يقظة ملحقة ثقيلة الوطأة مرهقة . فاذا هو تغنى ألزموه الصمت . واذا التمس الترفيه عن نفسه بترتيل ما تيسر من صلوات تلقنها عن أمه انتهره قائلين : « أوتدعى الجنون ؟ فما بالك اذن لا تسكت ، وهم حريصون على بقاءه سليما معافى في جسمه وعقله حتى لا يفعل الجلال فعلته في جسد معطل تالف .

مجنون ! .. انه غير راغب في الجنون ولكنه الاعتقال ، وعدم القدرة على الحركة ، وسوء التغذية وقتلتها كلها مجمعة على تلفه وهلاكه . ولقد أمسى نهب أوهام تنتابه وتمثل له . فكان في بعض الليالي يأوى الى فراشه وقد أخذ منه الكلال ، وران عليه الاعياء ، من ربة نظام لم يتعده بعد أربعة عشر شهرا سلخها فيه . فاذا اغمض جفنيه ، ساوره وهم عجيب ، فيتمثل له أن أعداءه - وهم الراغبون في قتله ، المجهولة أشخاصهم عنده كل الجهل - قد بعجوا بطنه ، وقلبوه بطنا لظهر ، ثم هم يتخنونه طعنا ويوسعونه تكالا وتعديا .

وكان في النهار دائم التفكير في ماضيه . فيشرد ذهنه كأنما هو يستعرض حياة غير حياته . وانه ليذكر هودته الى قريته ومسقط رأسه بعد سجنه للمرة الاولى في جريمة الاعتداء على البعض بالاذى المهلك والتجريح الشنيع . وما كان بعدها من اشتهاره في أرجاء الناحية واعجابهم به في الحانة القائمة في الميدان الكبير ، وقولهم : « لله در رفائيل من وحش عظيم ا » ، ولقد ارتضته أجمل فتاة في القرية على الزواج بها رهبة له واستعظاما لسلطوته ، لا ميلا له استجابة لمحبته . وكان أعضاء مجلس القرية يتددون اليه ، وقد وهبوه بندقية من

بنادق الخفراء ، وكانوا يحرضونه على خصومهم متخذين من توحش خلقه سلاحا لهم فى الانتخابات حتى أصبح الحاكم بأمره الذى لا معارض له فى الدائرة كلها . فما يزال الآخرون - أى فريق المفلوبين - رهن قبضته ، يعانون ما يعانون من وطائنه ، حتى يضيقوا بهذه الحال ، فيحتمون وراء شقى مشاغب آخر حديث عهد بالخروج من السجن ، لكى يرد عنهم اذى رفائيل . .

يا سبحان الله ! . . ان كرامته ومقامه من المهنة فى خطر ! لا مندوحة - اذن - من وقف هذا الند الذى يسلبه معاشه ، فثمة الكمين الذى لا بد أن يكون ، وثمة طلقة النار المردية ، ثم ضربات بمؤخر البندقية ، للاجهاز على الجريح اسكاتا لانيته وتسكيناً لرفسه وفحصه الارض بقدمه . .

وفى الواقع كان مجرى الامور عاديا وانتهى الامر نهايته العادية بالاعتقال ، وادوع رفائيل السجن حيث التقى ببعض الرفاق القدماء . ثم كانت المحاكمة ، فاشترك فيها جميع من كانوا يخافونه ويرهبونه ، فشققوا صدورهم من مهانة رهبتهم له وخوفهم بطشه بالشهادة عليه ، واصدرت المحكمة الحكم الرهيب ومضت اربعه عشر شهرا على ارساله للتصديق ، والمحكوم عليه منتظر ، منتظر ورود الموت من مدريد ، وكأنه لطول المدة آت على عربة نقل

ولكنه كان فى بعض الليالى يهب من فراشه كأنما دفعه لولب خفى ، فتصلصل سلاسله صليلا مشئوما فيجهدش ويأخذه البكاء كالطفل ، وسرعان ما ينهدم على ذلك فيجتهد فلا يغنى اجتهاده شيئا فى كتم نحيبه . ان الصارخ الناحب انسان آخر فى طوية نفسه ، انسان لا

عهد له به ولا سابقة معرفة ، وهذا الانسان شديد
الخوف دائم الصراخ ، لا تهدأ تاثيرته ولا يسكن روعه
حتى يجرع عدة اقداح من ذلك الشراب المحرق من نقيع
الهندباء الذى يسمونه فى السجن بالقهوة .

والحقيقة الواقعة الان ان رفائيل القديم ، وفائيل
الزاهد فى الحياة ، الراغب فى الموت تعجيلا للخلاص مما
هو فيه ، رفائيل ذاك ، ليس يباق اليوم منه الا القشرة
الظاهرة ، واما رفائيل الجديد المولود فى غيابة هذا
للحد فانه ليذكر مرتاعا ونفسه ذاهبة شعاعا ان اربعة
عشر شهرا انضمرت وأن ورود الامر بنفاذ الحكم فيه لابد
قد أزف وقته واطل أجله ، وأن النهاية قريبة لا محالة
لعمر الله ليكونن أطيب نفسا واقربا لو أملوا له فى البقاء
اربعة عشر شهرا أخرى فى هذا الشقاء .

واصبح متوجسا مترقبا ، وقد القى فى نفسه ان
الهلاك قاب قوسين منه أو أدنى ، فهو يطالعه فى كل
ناحية ، فى الوجوه المتطلعة تطل عليه من كوة الباب
المشبكة بالحديد ، فى قسيس السجن يدأب على الحضور
عصر كل يوم كأنما هذا المحبس الضيق المخيم خير مكان
للمسامرة وتدخين لفافة التبغ ، هذا قبيح ! قبيح جدا ،

وكانت أسئلة القسيس تقلق باله وتبليبه أشد ما يكون
القلق والبهلبة . أهو مؤمن صحيح الايمان ؟ نعم يا أبت
لقد كان يرعى حرمة رجال الدين ولم يقصر قط . فى حفيهم .
أما أهله فلا مأخذ عليهم . فقد ذهبوا جميعا للقتال فى
سبيل الملك حين دعاهم كاهن القرية الى ذلك ، ولكن
يدلل رفائيل على ايمانه يعمد الى صدره فيخرج من
تحت أظفاره صرة قلادة من الاحجية والأنواط .

وعندئذ يحدثه قسيس السجن حديثه عن السيد المسيح ، وأنه قد وقف مثل موقفه . ولقد كان لهذا المثل أعظم الوقع فى نفس رفائيل المسكين . يا له من شرف عظيم . . بيد أنه مع عظيم ارتياحه لهذه المشابهة كان شديد الرغبة فى تأخير وقوعها ما أمكن التأخير . .

وأصبح ذات يوم فاذا الخبر الموعود ينزل به نزول الصاعقة ، قيل انتهى الامر فى مدريد ، جاء الموت ، وفى على جناح السرعة ، على أسلاك البرق .

وأخبره أحد الحراس بقسود زوجته تلتمس الاذن برؤيته ، ومعها بكر رضيع ولدته له وهو فى السجن ، فلم يبق لديه شك أن حضورها من القرية معناه أن قضى الامر وحكم القضاء وانتهى الاجل

ولقد حدثوه عن حق المحكوم عليه فى التماس تأجيل التنفيذ ، فاستمسك فى لهفة بهذا الخط الاخير من الامل شأن المنكودين جميعا ، أو لم يفلح البعض ؟ فلم لا يفلح هو ؟ ثم فوق ذلك ، ماذا على تلك السيدة الطيبة القائمة على العرش فى مدريد لو وهبته حياته ، ان الامر لا يعدو مجرد توقيع منها باسمها

أما هؤلاء الطفلة - وما أجدرهم بأن يسلكوا فى زمرة حفارى القبور - ممن كانوا يعــودونه بدافع من حب الاستطلاع ، أو بدعوى تأدية الواجب من محاميين وقساوسة ومخبرين ، فكان يسألهم فى توسل وضراعة كأنهم القادرون على انقاذه : « ما رأيكم ، أترونها توقع ؟ » بل لجلهم فى غد أخذوه إلى بلدته مصعبا محروسا كأنه وحش يساق الى المجزر . وكان الجلاد متأهباً هنيئاً بكامل عدته ، وكانت عند باب السجن امرأته تنتظر رؤيته عند خروجه - وهى سسـمراء عروب من ذوات الفنج

والدلال ممتلئة الشفتين مقرونة الحاجبين ، يتضوع من ازارها الفضفاض رائحة قوية كرائحة مخازن الغلال . وكانت دكلاء مروعة من وجودها هنا ، ونظرتها المشدودة أقرب الى الدهول وخدر الحس منها الى الالم ، فاذا هى ضمت الطفل الرضيع الى صدرها ذرفت بعض العبرات وقالت :

- اه ياسيدى ! يالها من فضيحة يلصق بقومى عارها ، لقد كنا نعرف أن مصيرنا الى هذا ، ولكن الرضيع الذى خلفه

ويقبل فسيس السجن عليها يعزيبها ، ليس للمرء غير التسليم وتفويض الامر لله . ثم عسى أن يرزقها الله اذا تأيمت رجلا يسعدها ويجعلها أكثر حظا وهناء . وكأنما اهتزت للفكرة ، فذهبت الى حد الكلام عن حبيبها الاول ، فتى من خيرة الفتيان ، اضطر الى اعتزالها والتخلى عنها خشية رفايل ، وهو يكثر فى هذه الايام من ملاحظتها فى البلدة وفى الحقول وكان فى نفسه شيئا يريد أن يقوله لها ، ورغبة يريد أن يفضى بها اليها . ثم استدركت فى سكينه ، وهى تحاول الابتسام مرددة قولها : « بل الرجال كثيرون ولكنى مؤمنة متدينة شديدة التدين . فاذا اتخذت رجلا آخى فانما أريده على سبلة الله ..

ولما أن انسدت امارات الدهشة على وجه القس وعلى وجوه حراس الباب ، ثابت الى واقع الامر وراحت من جديد تستوكف دمعها ..

وأسمى المساء وجاءت معه الانباء . أجل ، لقد وقعت السيدة : تلك السيدة التى كان زفائيل يتمثلها فى مدينته مجفوفة بكل ما فى هياكل الرب الرحيم من أبهة وبهاء تستجلب للبرقيات والدعوات ، إتمد استجابته للمحكوم عليه .. مدت فى حياته ..

واحدث تأجيل التنفيذ هزة في السجن كأنما تلقى كل
سجين مطلق العفو .

وقال القس لزوجة المحكوم عليه عند الباب :
« ابشري أيتها المرأة . سوف لا يقتلون زوجك .
سوف لا تتأيمين .. المرأة الشابة فى مكانها - ساكنة ،
وكانما تغالب أفكارا تتولد وتشيع فى خاطرها . ثم قالت
آخر الامر فى هدوء :

- حسن جدا .. ومتى خروجه ؟
- خروجه ... امجنونة انت ؟ لن يخرج . وهو لا
محالة يغيظ نفسه لابقائهم على حياته ، وابداهم
الاعدام بالسجن المؤبد . وهم مرسـلوه الى افريقية
ومن كان فى مثل فتوته وقوته فانه قد يعيش عشرين
سنة اخرى ..

وفى هذه المرة انتحبت المرأة حقيقة بكل جوارحها ،
واشتد بكاؤها وعلا نحيبها ولم يكن بكاؤها بكاء الحزن .
بل بكاء اليأس والسخط .
فصاح بها القس متغيظا :

- مالك أيتها المرأة ! انك تتحدين حكمة الله
ورحمته . لقد عفوا عن حياته . أفهمت ؟ لم يبق محكوما
عليه بالموت .. أبعد ذلك تندبين وتشكين ؟ لقد أبدلوا
حكم الموت بالسجن ؟

فكفت عن النحيب . وابرقت عينها بريق الكراهة :
- حسن جدا . ليعش .. انى مغتبطة مجبورة .
لقد نجا . ولكن .. ولكن ماذا يكون من أمرى أنا ؟
وبعدسكتة طويلة انفجرت تمول وتردد القول والنشيع
بهز جسمها الكثيف المتقد بحرارة الغريزة : « والان ..
أنا المحكوم عليها ... أنا ضحية العدالة !! »

مدام بوفارى

« لجوستاف فلوبر »

(هذه آية الآيات فى القصص الواقعى . وقد سئخ الكاتب فى كتابتها زهاء خمسة اعوام من عمره . وهى دراسة نمط بعينه من النساء .
وقد بلغ من دقة هذه الدراسة ، أن دخل اسم مدام بوفارى و « البوفارية » فى مصطلحات علم الدراسات النفسية . والقصة قبل كل شىء قوية التصوير صادقة . وهى من صدقها تبدو على توالى السنين ، أكثر التصاقا بالحياة الواقعية وانطباقا عليها . انها على الدوام كتاب حديث ، بل أحدث من أحدث الكتب) .

- ١ -

هو شبخ رجل قائم فى الطريق المقابل لدار المزرعة . انه يرقب شبابيك المطبخ ، وقلبه خافق أشد الخفق ، وكيانه كله يرتجف

وعلى حين فجأة ، سبق الى سمعه صوت قعقعة ، ثم انفتح الشباك دفعة واحدة . اذن ، لقد تحققت آخر الامر احلامه ، فان هذه الاشارة المتفق عليها بلاغ لهذا الرجل الملهوف « شارل بوفارى » ، بأن الحسناء « امارو والت » رضيته زوجا

وكانت رغبة « اما » فى أن تكون حفلة زواجها فى الليل تحت نور المشاعل . ولكن والدها الشيخ « رو والت »

المزارع اتخذ الالهبة للاحتفال على ماجرت به التقاليد
الريفية . وقد دعا الى الاحتفال ثلاثة وأربعين من اصحابه
وجيرته ..

وفي اليوم التالى ذهب العروسان الى بيت الزوج
شارل في « وست » حيث كان يزاول مهنة الطب وكان
قد أفلح في جبره كسرا في ساق الشيخ « رو والت »
فاشتهر في الناحية بأنه طبيب من الطراز الاول . ولم
تكن « اما » ، ولا الشيخ والدها ، ولا أهل الناحية ،
بالذين يدرون نوع ذلك الكسر ، وأن علاجه كان من
أيسر الأمور ..

وكان شارل في غمرة من السعادة : عشاؤهما معا ،
نزهة سيرهما جنبا الى جنب ، بياض يدها وهي ترفعها
الى شعرها الفاحم تصلحه كلما عبثت به الريح ، بل
مجرد نظرتة الى قبعة القش التي كانت تتركها معلقة
الى جوار النافذة .. كل هذا في جملة وفي تفصيله كان
يفغره بسعادة شاملة كاملة .

ولا غرو ، فقد كان حظه من الحياة قبل ذلك زهيدا ،
بل دون الزهيد

كان في المدرسة بمعزل عن زملائه الذين هم أغنى
منه ، أو أبرع وأوسع حيلة ، وكانوا يتضحكون من
لهجته القروية ويتكلمون على ثيابه الريفية . وكذلك
كان رهين الوحدة الموحشة اثناء دراسته الطبية ، فلم
يكن في مقدوره أن يلعب فتاة من عاملات المتاجر الى
الخروج للسهرة معه . وهو لم يتخذ قط خليفة . ثم
تزوج - أول زواجه - أرملة اختارتها له أمه ، فكانت
قدماها في الفراش أبرد من قطع الحديد ، وقد أدركتها
النية فترمل بعد أربعة عشر شهرا من زواجه بها

والآن ، الآن يضم ذراعيه - طوال الحياة - على هذه المخلوقة الجميلة المعبودة . ان الدنيا عنده لاتتجاوز مايستدين عليه مئزرها . ومع شدة هذا الحب الذى يكنه لها ، فانه يجده مقصرا عن قدرها ، غير واف بحقوقها .

أما الزوجة الصبية الحسنة « اما » ، فكانت تجعله يوسع ذراعيها لثما من أطراف بنائها حتى كتفيها ، لاتلعه يستوفى حظه دون أن تدافعه عنها ، وهى نصف مرتاحة ، ونصف متضايق ، شأن المرأة وطفلها المتشبهت بأذيالها الكثير التعلق بها .

وكانت قبل زواجها بشارل تتوهم انها أحبته . فلما لم تصب السعادة المنظورة ، بدأ لها انها لا محالة أخطأت . وجعلت تسائل نفسها ، وتلج فى سؤالها ، عن معانى الالفاظ التى كانت تتراعى لها - فيما طالعت من الكتب - حلوة بالغة الحلوة : « السعادة » ، « الهيام » ، « النشوة » .

وكان والدها قد أودعها وهى فى الثالثة عشرة من عمرها ديرا فى روان . ولقد ارتضت هذه الحياة أول الامر وسط الراهبات الصالحات الوديعات ، وأغتنبت هنا بالسكينة الساحرة ، بتلك الفترات الخادرة الصوفية التى تغشى الحس من سطعات ريح البخور فى المحراب . ثم ، الاعتراف . فقد كانت تستحب أن تستجبه بانتحال الهنات وصفائر الزلات . وكان مايصطنعه وعاظ الكنيسة من الرمز الصوفى فى استعارتهم للراهبة والمسيح والرهبانية لفظ « العروس » و « الزوج الروحى » و « الزواج السرمدى » ، من شأنه أن يفجر فى روحها - من حيث لاتحتسب - ينباع عذوبة لا عهد لها بها . وكانت تتردد على الدير لبعض ما يلزم من أشغال

الحياكة لبناتها امرأة عجوز . وكانت تحتال على دس القصص في الخفاء للبنات المراهقات : روايات عن غوان حسان لا يلبثن أن يستضعفن وتتراخى قواهن ويفشى عليهن في المقصورات ، عن مقامرات في حلك الغابات ، موائيق وعهود مقطوعة ، زفرات متصاعدة ودموع مذرورة ، فرسان في مثل شجاعة الاسود ووداعة الحملان

ولم تلبث « اما » ان تطرقت الى يدها هذه القصص ، فكانت تلتهمها التهاما . وكانت أحب بطلاتها الى نفسها ، وأشدّها انطباعا في خيالها : « ماري ستيوارت » ، و « جان دارك » و « هلواز » وكلهن من شهيرات النساء المعذبات . .

على انها حين اتى والدها يسترد وديعته لم تأسف على مفارقة الدير ، فلقد كان يستهويها من الكنيسة ماتعبق به من نفحات الصوفية . أما الخطب الوعظية والصلوات الدينية والتعشف في المطعم والمببس ، فكانت تضيق بها جميعا .

فلما احتراها بيت والدها ، جعلت تتلهى — بادىء بدء — بترتيب شئونه . ولكنها سرعان ماسئمت هذه الحياة المنزلية وضيق أفقها ، وطققت تحن وبضنيها الحنين الى الدير . وكانت حالها — أول مقدم شارل لعيادة أبيها — حال فتاة زال عنها وهمها ، وخاب في الحياة ظنّها ، فلا رجاء لها في معرفة جديدة ، ولا شعور جديد . فكان من شأن قدوم شارل ، واختلائه الى البيت أن تبدل هذا كله . وتخيلت الفتاة فيما طرأ يومئذ على مشاعرّها من الاضطراب انه امارة على الحب . الحب الذي لا يتجاوز علمها به حد القراءة منه ، جاءها أخيرا

ولكن شارل - كما يبدو في عينها الآن بعد فوات
الوان - بسترته من القטיפه السوداء وحذائه المستطيل
المستدق ، وقبعته المقيببة - كان دون الزوج المثالى
الذى تحلم به . وكان حديثه مملا ، مستثقلا ، ليس
فيه تنوع ولا تشويق ، ولا يحرك في نفس سامعه شعورا
أو يبعثه على ضحك أو تفكير . والمرأة تتوقع من الرجل
أن يكون عارفا بكل شيء ، متخصصا في كل نواحي
النشاط ، وانه دليلها المرشد في خضم الشهوات ،
الموكل به تعريفها معانى الحياة والتغفل الى دقائقها
ولطائفها والكشف عن مكنونات أسرارها كافة . ولكن
شارل لم يلقنها شيئا ، وهو نفسه لا يعرف شيئا ، ولا
يحلم بشيء . وكان يعتقد انه أدى ما على الزوج تأديته ،
حين هيا لـ « اما » الحياة الوادعة السهلة . ولكن كانت
هذه الحياة هى ماتنكره « اما » وتنقم عليه .

ولقد حاولت أن تدخل حبه على قلبها ، مستعينة
بدواعى الصبوة . فكانت فى الليالى المقمرة تخرج الى
الحديقة ، وتتلو على سمعه قصائد العشق ، وتغنى
بأغاني الشوق . ولكن لم يغن الشعر ، ولا أغنت الموسيقى
فى سرية ماكان يرين على نفسها من الملل المخيف ، كما
انه لم يكن لهما أدنى تأثير فى تغيير ماكان غالبا على طبع
شارل من بلادة القناعة والطمأنينة . ولم يشق عليها
بعد ذلك أن تقنع نفسها بأن حب شارل لها ليس بالحب
العنيف السرف .

واتفق أن استجد فى الامر شيء . لقد دعيت الى حفلة
راقصة فى دار المركيز « داندر فلييه » فى ناحية فويسار
فلقد أصبح استذكار هذه الليلة الراقصة شغلا
لها . تستيقظ من نومها ، فيكون أول خاطر لها : « آه !

لقد كنت هناك منذ اسبوع - منذ اسبوعين - منذ ثلاثة اسابيع مضت ! » . وكانت الوجوه تختلط في ذكراها شيئا فشيئا ، وكانت تنسى أنغام الرقصات يوما بعد يوم ، ولكنها تفاصيل تغيب ، والحنين لها باق كأشد ما يكون في نفسها ..

وكانت « اما » في أول زواجها تتشاغل بالرسم أو تدخل السرور على قلب زوجها بالعزف على البيانو . وكانت حريصة على حسن هندامها ، بل حاولت فوق ذلك أن تصلح من هندام شارل الريفى وكانت معنية بشئون البيت ، بما أدخلت عليه من أناقة وترتيب . ولكن ... تغيرت عاداتها مع الزمن . فانصرفت عن هوايتها ، وتركت للخادم شئون البيت جميعها . وخلت بنفسها طوال اليوم في غرفتها وأجمة ساهمة ، لا تقرا كتابا ولا تخطط ثوبا ، وحتى هندامها أصبحت لا تحفل به ..

ثم صارت عسرة الخلق ، متقلبة الالهواء . يعلو الشحوب خديها ، وتشكو خفقانا في القلب . وكانت تتناوبها أحوال متناقضة من ثرثرة محمومة ، ومن صمت مطبق هامد .

كذلك صارت دائمة التبرم بالحياة في « توست » . فعزم شارل على ترك البلدة . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير عليه . فقد عاش هنا سنوات أربعا ، بنى لنفسه فيها مكانة في المهنة ملحوظة

وبعد طول البحث والاستطلاع ، وقع اختياره على « يونفيل لاباى » وهى بلدة ذات سوق كبيرة نافقة في منطقة نيفشاتل .

وكانت مدام بوفارى حاملا ، حين مغادرتها وزوجها

بلدة توسست ، وكان بلوغهما البيت الجديد فى البلدة الجديدة ليلا ..

وكانت هذه رابع مرة يتبدل بها المكان . وقد كان كل تغير فى المكان بداية لطور جديد فى حياتها وكانت «أما» تعتقد فى سريرة نفسها أن أمرا من الأمور لا يمكن حدوثه على صورة واحدة فى مكانين مختلفين . ومن ثمة وقر فى نفسها انه اذ كانت الايام التى خلت بها أيام سوء ، فإن الايام المقبلة ستكون لا محالة خيرا

أما شارل ، فقد جر هذا الانتقال عليه متاعب جمة ، فقد ابطأ المرضى فى الاقبال عليه ، كما أنه كان قد أنفق الكثير على أثواب زوجته ، ثم أعقب ذلك نفقة الانتقال . بيد أنه كلما نظر الى «أما» ، أفعم قلبه سرورا واعتزازا بالوليد الذى سوف يرزقه منها . وكان شعوره بالشكر لها ، وازدياد حنوه عليها ، ينفيان من خاطره كل تفكير آخر . وكانت «أما» فى حال من الدهش والحيرة لحملها ثم تبدل هذا الاحساس الى نزوع واشتياق الى معرفة الشعور بالامومة كيف يكون ؟

وكانت أمنيته ولدا أسمر ، قوى البنية . ذلك الوليد الذكر سيكون الجزء الاوفى عندها على ما مر بها من حياة مجده عاطلة .. ولكنها رزقت بنتا ..

فاختارت لابنتها اسم « برتا » . وذلك أنها ما برحت تذكر - قيما تذكر من تلك الحفلة الراقصة التى شهدتها - غادة حسناء استأثرت باعجابها وكانوا يدعونها بهذا الاسم ..

ولما كان الشيخ « رو والت » لا يقوى على مشقة السفر الطويل لشهود تعميد حفيده ، فقد صار عرابها فى غيبته ، صيدلى البلدة المسمى « هوميه » ، وكان متفلسفا

زندبغا على شاكلة أهل العصر ، كما كان أشد أهل بلدته
فضولا وتعرضا لشئون الغير

- ٢ -

وكان يقيم مع صيدلى البلدة ، كاتب من كتاب وكلاء
القضايا المحامين ، هو المسيو ليون . وكان هذا الفتى
معاوناً للصيدلى على تصريف عقايره ، قبل إتمامه الدراسة
القانونية فى باريس . ومن ثمة مشاركته اليوم له فى
دار واحدة ..

وشعرت « أما » - أول ما لاقته - أنها لاقت نفسها
مجانسة لها وعلى شاكلتها . ولقد كان مثلها ، يحن الى
شوارع باريس الواسعة الانيقة ، ويزدري أهل الريف
وجلافة أساليبهم فى الحياة . وكان ذلك يحب الشعر
ويتفق ذوقه وذوقها فى إثارهما أغاني الشعراء الالمان
العاطفية . وكان عالمهما المحب سيان ، فهو عالم المسرح
والموسيقى ، عالم الثياب الفاخرة واللطائف الرفيعة
المترفة ..

وكان العيش فى بلد ريفى مثل « يونفيل » ثقيلًا على
نفسها ، داعيا الى طلب اللهو والتسرية . فلما أن قدمت
هنا تلك السيدة الجميلة ذات الجمال الحالم الخيالى ،
التي لا عهد له بمثلها فيمن عرفهن ، كان قدومها فى حياته
يوما أغر ماثورا ..

وقد زار هذه الاسرة الطارئة أكثر من مرة . ولكن ،
بدا له أن شارل لا يظهر اقبالا عليه فاحترام ماذا يصنع ؟
فهو بين الاشفاق من اقحام نفسه على الاسرة من غير تبصر ،
وبين الرغبة الملحة فى وصل أسباب المودة بينه وبين «أما»
مع ما يظهر من بعد منالها وضعف الرجاء فى وصالها .

بيد أن الفرصة كانت تواتيه للملاقاتها كل مساء تقريبا

عند الصيدلى فى ردهة الاستقبال حيث كان يجتمع شارل وهوميه بعد العشاء يلعبان النرد . فبينما كانا يلعبان ثم تأخذهما بعيد ذلك غفوة من الناس تتمثل فيها بلادة الدعة والقناعة ، كانت الشابة والشاب يسمران الى جانب الموقد ، يطالعان ما فى الصحف والمجلات من أشعار ، ويراجعان مختلف التعقيبات على القصص والروايات . وعلى هذا النحو ، توثقت بين الشابة والشاب علاقة ألفة من استمرار المناظرة ، ومبادلة الراى والمساجلة ، فيما هما بصده من قصص الغرام . ولم يكن المسيو بوفارى مجبولا على الغيرة . فلم يداخله القلق من تمكن هذه الالفة وتوثق عراها ..

وأحست « أما » على بغتة أنها مفرمة بالفتى . وكان الفتى - فيما تراهى لها - جميل الطلعة فى شحوبه ، ونحافته وعمق عينيه النجلاوين الزرقاوين ، وشحمة أذنه الظاهرة تحت خصلة متهدلة من شعره كالشعراء . واعتقدت « أما » أن « ليون » به من حبها مثل الذى بها . وتفجر قلبها العاطفى بشوقها القديم الى الحب : « آه ، لو كانت مشيئة الله قد أرادت لى ذلك ! » . ولم لا ؟ ماذا يمنع ؟

وكان شعورها بأنها تحب ، سببا فيما طرأ عليها من تبدل غريب . فقد أعرضت الاعراض كله عن الموسيقى ، وعكفت العكوف كله على سئون البيت ، وتولت بنفسها أمر « برتا » التى كانت تتعهدا مربية منذ ميلادها ، كما أخذت تغدق على زوجها الوان الرعاية والحفاوة . وكانت فى ظاهر الامر حلوة الشماثل ، لينتة العريكة ، هادئة الطبع ، محتشمة متوقرة ولكنها فى الباطن كان يأكل نفسها الغيظ الكامن والكره الدفين ، وكان ينصب هــذا

كله على شارل ، شارل الذى تراه غافلا عن لوعتها وعذابها . ويأليته كان قد ضربها يوما ، فتلتمس لنفسها العذر فى كرهه ، والانتقام لنفسها منه ! وكانت الخواطر التى تساورها تدهشها حيناً ، وحيناً تفزعها ، لقد كانت خواطر منكرة فظيعة ، شديدة النكر والفظاعة .

وولت المسكينة وجهها شطر الكنيسة تستعيد بها . ولكن قسيس القرية المكدود المرهق بأعمل لم يكن عنده من الوقت ولا من الفطنة ما يجعله حرياً بمتابعة تلميحاتها المحجبة ، وادراك ما وراءها .

وكانت « أما » فى عيني « ليون » حصناً حصيناً من العفة لا ينال . فلم يثبت على ملاحظتها ويلحف فى مرادتها بل سرعان ما قطع الأمل فى وصالها ، وانصرف يائساً عنها . وكان فى ذلك ما فيه من التعظيم والقداسة لها ، حتى باتت عنده مثل « مريم العذراء » - فلا سبيل إليها . ومن بعد ذلك ، باتت الحياة فى « يونفيل » ممتنعة عليه ، فازمع الرحيل عنها الى باريس .

وكان رحيل « ليون » من دار الصيدلى حدثاً من الأحداث وفرصة سانحة للعديد الذى لا آخر له من الامثال المضروبة والاقوال المأثورة عن غوايات باريس . . . واستدراجها للشباب واستهوائها لهم .

وأما وقع هذا الفراق على « أما » ، فانه ملاء جوانحها بالكمد والبكابة والاشمى الكظيم . ولقد خلج الغياب على الفتى سحره ، فترأى فى ذاكرتها أطول قامة ، وأحلى وسامة ، وفوق ذلك أشجى حالاً وأشرد بالاً . فبات أشد فتنة لها وأخلب لقلبها . فهو - حيثما حلت - مائل حيالها ، حاضر فى خيالها ، يغشى صحوها ومنامها ، ويجوس طيفه حجرات البيت .

وكانت ترجع على نفسها باللائمة وتقطعها لهفة وندما ،
على أنها لم تهبط له الفرص لينالها ، ويحظى بوصالها .
وهنا تستحوذ عليها رغبة في أن تلحق به في باريس ،
وتترامى في أحضانه وتصيح : « هاندى - طوع مرادك -
انى لك ا » . ولكن كانت تقعدها الصعاب القائمة دون
امضاء عزمها ، وكانت الخيبة تضاعف اشواقها وتذكى
نارها ..

وعادت « اما » الى الجبال المحزنة التى كانت تعانيها فى
« توسنت » . وزادها شجوا على شجوها ، أنها كانت
تجد نفسها أشقى من ذى قبل ، لأنها كانت مستيقنة أن
حزنها ليس له نهاية . وخيل لها أن امرأة هذا مبلغ
عذابها ، لا تثريب عليها ان هى أطلقت العنان لبعض نزواتها
ففى اليوم شديدة السرف ، تنفق المال الكثير على فاخر
الثياب واسباب الزينة وأنواع البهرج . وكذلك صبح عزمها
على تعلم الايطالية ، فاشتريت مجموعات من معاجمها ومناهج
درسها وكتب نحوها ولم تنظر فى واحدة منها . وتكررت
عليها نوبات الاغماء ، وبدأت تنفث دما . وكلما أظهر
شارل الجزع ، قالت : « واى خطب فى ذلك ؟ »

- ٣ -

وكان يوم الاربعاء من كل اسبوع يوم السوق فى بلدة
يونييل ، وكانت « اما » تستحب أن ترمى من نافذتها
زحمة الناس . وفى ذات صباح ، لمحت سيدا ذا سميت
وشارة ، فى سترة من المخمل السندسى ، وفى يده قفاز
أصفر . وكان بعض خدمه فى حاجة الى الفصد ، فقدم به
على شارل . وقامت « اما » مقام الممرضة المساعدة ،
وبادلت السيد أثناء ذلك كلمة أو كلمتين . وقد علمت
أن اسمه « رودلف بولنجيه » وأنه سيد ضيعة « هوشيت »
المجاورة ..

وترك رودلف بيت الطبيب مفكرا ، مشغول البال .
لقد راقته مدام بوفارى ووقعت في نفسه . انها غاية في
الملاحظة والحسن . انه معجب بثغرها وثناياها الحسان ،
وعيونها الدعج ، واستواء عرقوبها ولطافة سيقانها . ثم
هى رشيقة القد هيفاء كالباريسييات . ما أبعد البسود
بينها وبين زوجها ! طبيب بليد الفهم ، لا شك في غباوته
ثم أظافره القدره ولحيته التى مضت أيام عليها لم تمر بها
الموسم فهى شعراء غبراء . من اليسير التكهّن بأن الزوجة
لا محالة تجتويه ، وتستثقل ظله ، وتمل عشرته والمقام معه .
ان المكان اللائق بها في باريس ، ترقص رقصات البولكا
في المحفلات الساهرة الزاهرة . مسكينة تلك الشابة :
لا بد انها تتطلع في شوق الى الحب ، كالسمكة بعيدا عن
غمرة الماء . ان حسبها بضع كلمات من الغزل الرقيق ،
فاذا هى طوع المراد مستسلمة ، ما في ذلك ريب . ويالها
عندئذ من خلية حنون عطوف فاتنة . كل ما هنالك من
مشقة - هو في التخلص منها بعد ذلك

وكان رودلف في الرابعة والثلاثين ، عارم الطبع بهيمى
المزاج ، مع الكثير من الدهاء وصدق الفراسة . يتوقع
صعبا تعكر صفو العلاقات . ولكن ، تلك العيون قد
نفذت كالسهام في قلبه . ثم هى شاحبة الطلعة وهو يعبد
الغوانى الشاحبات ! . .

وقبل أن يبلغ رودلف داره كلن قد اجمع امره ووطن
عزمه . لسوف ينالها ويحظى بوصالها

وكان لقاؤهما التالى في المعرض الزراعى وبينما كان
الناس يستمعون الى خطب عمدة البلدة وشيخها ، اخذ
بيدها الى غرفة خالية في دار البلدية زين لها أن المنظر

يبدو منها ابداع واجمل . ثم تعد تحويل الحديث الى الوجدانيات ، فجعل يحادثها عن نفسه المعبدة ، وما يساورها من الاحلام والايهام والاماني المشوذة ، وعما يجده من الفراغ المل في حياته اليومية ، ومبلغ حنينه الى المرأة التي تتمثل فيها احلامه (وكان هن يرمق مدام بوفارى) . ثم انتقل من حديثه الى العرف الاخلاقى الذى اصطلح عليه الناس وألع الى هوان شأنه بالقياس الى ناموس الحب الازلى الابدى . ذلك الحب الدهان العطرى فى شعره اللامع المرجل - وهو ذات الاريج الذى تنسمته فى شعر السيد النبيل الذى راقصها فى « فوبيسار » فى الحفلة الراقصة الماثورة المذكورة .

ثم سكرت حواسها وكاد يغمى عليها . لقد خيل لها كأنها ترى العربة التى اقلت حبيب قلبها « ليون » من يونفيل . خيل لها كأنها ترى ليون نفسه عند قدميها . ومر بسمعا صدى قديم لنغمة الفالس التى الذى ليس فى الدنيا اجمل منه ، انه مبعث البطولة والحماسة والشعر والموسيقى .. وكل شيء ..

وكن رودلف جالسا على مقعد واطيء صغير عند قدميها ، وذراعا مضمومتان حول ركبتيه ، ووجهه شاخص اليها ، وهو بجسمه وروحه مقبل عليها . وكانت هى مستغرقة الشعور فى أمرين : تلك الاشعة الذهبية الرقيقة تشعشع فى عينيها من سواد انسانيهما ، وأريج اهترت لها يوما جوارحها وملكت عليها نفسها .

ولكنها كانت طوال الوقت تحس ذلك الاريج الفاقم : الدهان العطرى فى شعر رودلف .

فلما امتدت يده ، تلمس يدها ، استلمتها ولم تقاوم . وجف الريق فى حلقه وحلقها ، وعلى شفته وشفتها ، من

شدة الهوى وتبريح الشوق . فاشتبكت أصابعهما في حركة طبيعية نذيرا بوشك اللقاء الجسدى . .

بيد أنه مضت أسابيع ستة ، قبل أن يعاود رودلف الزيارة . وحين دخل البيت ، لم يفقه ما عراها من اضطراب نفسها وامتقاع لونها . فعرف أنه أصاب في إبطائه بالزيارة حتى يقوى اشتغالها به ويتمكن من قلبها حبه . وعرض أثناء حديثه مع شارل إلى التساؤل عما إذا كان ركوب الخيل يفيد مدام بوفارى صحيا . وكان الزوج في حيرة من تلك الأعراض التى تهدد حياة زوجته، فطرب للفكرة . وكاد يطير من الحماسة لها

ولكن « اما » لم تظهر الرغبة في هذه الرياضة ، وعارضتها في شدة وعنف . وكان خط دفاعها الأخير ، أنه ليس عندها - على كل حال - سترة لركوب الخيل . فكان جواب شارل حاسما : « ستكون لك » فلم يبق موضع للخلاف وفى أول رياضة لها مع رودلف على صهوات الخيل ، أمكنته من نفسها

واتخذت « اما » من غرفتها في البيت محرابا تمكف فيه على المناجاة ، ووجهها إلى المرأة . لقد أدهشها ذلك التبدل في صورتها والاشراق على طلعتها ، لم يكن لعينيها قط هذا العمق الساجى وهذه السعة ، وهذه اللوعة . رهى لا تكف عن التردد فيما بينها وبين نفسها : « لى عاشق ! . . أصبح لى عاشق ! » . انها دهشة تحس كأنها من جديد في فورة المراهقة . لقد تصدع السد ، وتفجر الحب جياشا متدفعا . واستسلمت للعباس يحملها مغتبطة مبتهجة بالحرية والانطلاق .

واتصلت بينهما المراساة في الخفاء كل يوم . وكانت

تستقصر على الدوام رسائله . وذات يوم فى الصباح الباكر أحسّت أنه لابد لها من لقاء رودلف . وكان شارل قد غادر البيت قبيل انبلاج النهار فتسللت الى المحفل مسرعة فى سيرها لا تلوى على شيء . ودخلت عليه وثيابها مبللة بالانداء . وترامت على الفراش فى أحضانه .

وظل رودلف طول الشتاء يأتى الى حديقة بيتها ليلتين أو ثلاث ليلال فى الاسبوع . وكانت تنتظر أن يأتى زوجها الى الفراش وهى على أحر من الجمر . وكان عش الغرام فى الحديقة تحت العريشة القديمة فوق المقعد الخصر المتداعى حيث كان « ليون » - فيما سلف - يجلس اليها ويعبدها فى أمسيات الصيف ولكنها خالية البال منه الآن .

وكان يدور فى خلد رودلف فى بعض الأحيان ، أن عشيقته تجاوزت الحد فى العاطفية ، وذلك عندما تلح عليه فى مبادلة الصور المصغرة وخصلات الشعر بل لقد طلبت منه مرة خاتم زواج . على أنها ما برحت فى عينيه لطيفة مرموقة . أنه قلما حظى بنساء أبرع منها ابتكارا وتفننا فى الحب ، ثم ان خلوه من الدعارة يريده - على جدته - حدة طعم وحرارة ، وفيه كذلك الرضى لكبرياء الرجل وفيه اذكاء لنزوعه الحسى ، وكانت الحماسة التى تسلم بها نفسها ، وان صدمت ذوق أهل طبقته ، الا أنها كانت تعجبه فى صميم سريره لانه المقصود بها . يبد أن يقينه من أنه محبوب ، جعل يغير شيئا فشيئا حاله معها وموقفه منها . فأصبح ما كان من حلاوة عباراته وحرارة مداعباته فى ذمة الماضى . وقل حرصه على إخفاء فتوره نحوها وضعف احتفاله بها .

وندمت « اما » على ما كان . وذهبت فى ندمها الى حد العجب من نفسها كيف كرهت شارل ، وكيف لا

يكون الاخرى بها ان تعمل على حبه والانس به ؟ فان شق ذلك عليها ، فمن المستطاع ان تعجب به طبيبا ماهرا من ذوى الدراية والكفاية .

واتفق ان كان الصيدلى يلح منذ حين فى اقناع شارل ان يجرب فى غلام المراسلة فى انفندق المجاور فنا من الجراحة المستحدثة يجربها فى قدمه العرجاء .

وجاءت « اما » اليوم بحماستها الطارئة تضيفها الى الحاج الصيدلى المضجر . فاقدم شارل - كارها غير مطمئن - على تلك المجازفة . واسفرت الجراحة عن اخفاق ذريع . واقتضت الحال بتر ساق الفيلام ، واستشعرت « اما » من ذلك غضاضة ومهانة ، فاشتريت له ساقا خشبية باهظة الثمن . ولم يفتأ صوت هذه القدم الخشبية حين يطرق بها الغلام بلاط الطريق فى غدواته وروحائه ، ماثرا لنفور شارل ، وركونه الى الفرار حتى لا يلقى ضحيته وجها لوجه

وبلغ احساس « اما » بخيبة الامل الاخير فى زوجها غاية المدي . فالقت بنفسها من جديد فى احضان ذلك العشق الاثيم ، وقد زاد ثائرة حنقها حراشيتياقتها . وفى هذه المرة طرحت « اما » كل حذر واحتشام . فكانت كثيرا ما تخرج من بيت عشيقها فى رائعة النهار . وكانت تغدق عليه الهدايا الغالية ، فاذا اعيهاها دفع ثمنها ، اقترضته من مرابى البلدة الزميم السمعة المسيو « ليريه » وقد بلغ بها الاستهتار ان استولت على مبلغ ارسله زوجها لتسوية دين عليه .

ولشب شجار فظيع بينها وبين أم شارل وكانت قد جاءت تشاركهما فى المعيشة . وطبعى ان تهتم الوالدة لسعادة ولدها ، فلا غرو تصدمها سيرة « اما » ويشتد انكارها لها ..

وكانت نتيجة ذلك أن وقر فى نفس « اما » استحالة الحياة مع زوجها بعد اليوم فتوسلت الى رودلف ان يأخذها الى بلد بعيد ، نعمان فيه بالحب من غير ترصيد ولا تقييد ولم يكن رودلف يضمم الموافقة ، ولكن لم تسبغه المعاذير وقتئذ . . فتركها تتجهز وتعد المعدات جميعها . وفى الليلة المتفق عليها للرحيل ، بعث اليها برسالة مدبرة يبلغها فيها أنه من أجلها يضحي تضحيته العظمى ، فلا يسمح بمرافقتها له ، وخوضها مغامرة هي لا محالة نادمة عليها عاجلا أو آجلا واستطاع شارل ووالدته - بعد جهد جهيد - ان يحولا بين « اما » والقاتل بنفسها من النافذة . وفى أعقاب ذلك ، نزلت بها حصى مخية شديدة اشرفت بها على التلف ، وعادها القس يقدم لها القربان الأخير .

وعاش « شارل » اياما طويلة يعانى عذاب الجحيم . فثمة زوجته الحبيبة ، حياة حياته وروح روحه ، توشك أن تفارق الى الابد وثمة صكوك الديون تنهال عليه وليس عنده رصيد مال لوفائها . هذا وذاك أسلفناه الى مخالف المرابى « ليريه » . لم يكن له مناص من الاستدانة لدفع ديونه المتفرقة . وكان يستدين من المرابى ، وهو على يقين من عجزه عن الوفاء .

- ٤ -

ولم تمت « اما » . .

لقد اخذت فى خطوات خافتة بطاء ، تدب الى حال النقاها والشفاء . وما كادت تجتمع لها القدرة على الخروج حتى اصطحبها شارل للترفيه عنها الى روان ، لسماع مفن من مشاهير المفنن . وفى دار الاوبرا فى روان ، التقى الزوجان بالفتى « ليون » :

وكان « ليون » بفضل اتمامه الدراسة القانونية بباريس ، قد اشتغل مساعدا في مكتب أحد المحامين في روان . انه اليوم يبدو اقرب الى النضج من ذي قبل . ان تكرار خروجه مع الفتيات العاملات في متاجر باريس ، ومغازلاته الخاطفة لزميلاته في الدراسة ، قد اكسبته على الاقل مظهر الوائق بنفسه . بيد أنه لما يزل خجولا ، في واقع الامر ..

ولم يزل « ليون » طوال هذه المدة محتفظا بما كان في وهمه من صورة « اما » انها كانت تتمثل له أملا غامضا موعودا ، يترأى في الافق البعيد كأنه ثمرة ذهبية لا نظير لها في الثمر ، تتدلى من شجرة غريبة فردوسية ليست كسائر الشجر ..

ولم يصعب على « ليون » تهيئة الفرصة التي توحى لشارل أن يقترح على زوجته البقاء في روان ، لشهود الحفلة الثانية في الاوبرا ، ثم يتحين ليون فرصة وجودها في غرفتها بالفندق وحدها . فيتقلب على استحيائه ، ويكشف لها عن حبه وأحلامه أثناء بعباده الحزين عنها . فتجيب : ذلك كان منذ البداية ظنى .

وكان حياء « ليون » اشد خطرا عليها من اجترأ رودلف ..

بيد انها كتبت اليه مع ذلك كتابا مطولا ترجو فيه قطع الاسباب بينهما ، وانه واجب من أجل سعادتهما أن لا يكون بينهما وبينها لقاء . ثم ذكرت انها لا تعرف عنوانه ، فلم يبق لها معدى - لتسليم خطابها هذا اليه - من الذهاب الى ساحة الكنيسة في الموعد المضروب

وما-كاد يراها ، حتى نادى عربية من عربات الاجرة- . وامتنعت « اما » عن ركوبها . فلما أكد لها « ليون » أن

أهل باريس يصنعون ذلك أذعن .
وفي أثناء هذه النزهة ، صارت خليلته

وقدر على شارل مرة أخرى أن يفتح الطريق أمام زوجته لخيانته . فقد كان « ليريه » المرابي طوال هذه الأونة يعمل على تضيق الخناق على الزوجين المدينين ، فبدأ له أن السبيل الأمثل والواحد لاسترجاع ديونه ، هو تركيز الأمر كله في « أما » . فاقترح عليها أن تحصل على توكيل رسمي بالنيابة عن زوجها في تسوية الحساب . ولم تكن « أما » راغبة في التعرض للمسئولية . ومع ذلك ، فالمسألة تتعلق بالقانون . والاحجى ان يستشار فيها خبير من رجاله . فلما أن حدثت شارل وأظهرت حيرتها فيمن يستشار وقع الزوج المسكين في الفخ الكمين . وقال مبادرا « ليون » لا أحد غيره . . .

وهكذا ذهبت « أما » الى روان ، كي تستشير « ليون » . فمكثت هناك أياما ثلاثة كانت عندهما « شهر العسل » . .

فلما عادت ، أحست في نفسها حينا شديدا الى الموسيقى . ولكن لا دون ذلك صعوبة قائمة . ان أصابعها جمدت لطول انقطاعها عن المران ، كما نسبت هي حذقها للانعام . فاقترح شارل عليها أن تتلقى دروسا في الموسيقى في روان

. وهناك في روان ، استأجر الماشقان غرفة في فندق جعلاهما عش الغرام ، وكانا يسميانها « البيت » . وكانا وهما يلتقيان وسط هذا الأثاث المتقادم والفراش اللابل اللون يشعران كأنهما في بيت الزوجية يعيشان زوجين . .

أما حياتها مع شارل في يونفيل ، فقد عادت الى سابق سيرتها على عهد رودلف . عادت « أما » الزوجة اللعوب ، المتحبة الى زوجها ، المقبلة عليه ، المعنية بأمره . وكان زوجها يشعر أنه أسعد الخلق طرا .

توالت الايام وأخذت « أما » تحس بحاجتها المتزايدة الى مدد يكفل لعاطفتها الحيوية المتزايدة ٠٠ الى مدد يكفل لعاطفتها الحياة مشتعلة محتدمة . فقد كانت تعمل نفسها في كل رحلة الى روان بسعادة تفوق الوصف ، فاذا هي استقلت القطار عائدة ، لم يسعها الا الاعتراف فيما بينها وبين نفسها بأنه لم يكن ثمة جديد يخالف المعتاد ويجاوز المعهود ، وكانت هذه الخيبة المتكررة كأنما تولد فيها آمالا متجددة فقد كانت تعود الى عشيقها في كل مرة وهي أشد اشتياقا واضطراما .

وكانت تنضو الثياب عنها في عنف وشدة وتدب حافية على أخمص قدميها نحو الباب تستوثق من غلقه . ثم تقبل شاحبة جادة لا تلوى على شيء ولا تنطق بحرف ، وتترامى دفعة واحدة على صدر ليون ، لاهفة راجفة

ولم يجرو ليون على سؤالها . ولكن ما شاهده من حالها ، ومن حذقها لفنون الحب وتصانيعه ، أوقع في وهمه انها مرت بجميع أدوار الحب والالام على اختلافها وتفاوت درجاتها . وهذا كله ليس فيه ضرر ، بل هو مزيد من الخير . ولكن الذي كان ينكره ، هو ازدياد إستيفرأقها له وفناء شخصيته فيها . لقد كانت الغلبة دائما لها ، وكان يضطفن ذلك غلبها . لم تكن هي الخليفة بل كان هو الخليل . وفضلا عن ذلك كان وكيل الدعاوى الذي يعمل عنده حين ترامى اليه خبر هذه العلاقة - لا يكف عن تحذيره مرة بعد مرة من تعزيز مستقبله للضياع من أجل امرأة .

وبقيت « اما » غير راضية عن حالها غير قانعة بها .
كانت متحيرة تعجب لقصور الحياة ونقصها وعدم وفائها .
انها ما التمسست السند والعون عند كائن من كان فيها ،
الا تهافت بين يديها وانهار تحت قدميها . ولكن كل
ابتسامة تخفى وراءها ثأؤب الملل والسآمة . وكل نعمة
في طياتها نقمة . وما من متعة موعودة الا يمكن خلفها الشبح
والفتور . وان ما ينطبع على الشفاه من حلاوة القبلات تعقبه
مرارة الاشتياق الى نعيم أعز دركا وأبعد منالا . وذات
ليلة ، عادت « اما » من روان فوجدت في انتظارها خطابا
مسطرا على ورق رمادى . وبرزت لها من متن الخطاب
هذه الكلمات : « بمقتضى الحجز الموقع تنفيذا للحكم
الصادر . . » — « ويتحتم ذلك في مدى أربع وعشرين
ساعة » — « لوفاء مبلغ ثمانية آلاف فرنك » . وأدخلت
ضخامة المبلغ على روعها الطمأنينة ، هذه لا محالة ، احدى
الاعيب المسيو « ليريه »

ولكن الحقيقة المريرة الواقعة ، هي أن حسابها على
أية حال قد ارتفع من تكرر الاستدانة مرارا ، حتى تناهى
به الرايى الزنيم الى هذا القدر العظيم ، وهو يطالب به
دفعة واحدة وعلى الفور ، لاستغلاله في صفقة رابحة

وبانت أخيرا هذه الحقيقة لها ، وانخلع لها قلبها .
لسوف يرى شارل مبعوثى المحكمة يوقعون الحجز على
متاعه وأدواته وينتزعون من بيته كل شيء . لسوف
يرى مصير مستقبله الى الضياع . وكل هذا من جرائها .
فحاولت جهدها أن تستلين قلب المسيو « ليريه » وجثت
له « راحة عند قدميه . ولكن ، لا جدوى . فتحولت الى
« ليون » ، فلما عرف مقدار الدين ترنح تحت ثقله ،

وغمغم يقول « ربما » ، لو كان الف فرنك . وحتى هذا
القدر لم يحرك ساكنا لتزويدها به . فتحولت الى محامي
البلدة وكيل الدائن ، فاذا به يشرط لكى يبدل عونه لها،
ان تبدل له جسدها . فقلت فرارا من مكتبه

ثم ذهبت الى رودلف ، متناسية ما ينطوى عليه
ذلك من عرض جسدها للبغاء نظير المال ، وان هذه الحال
هى بعينها التى عافتها نفسها فى هلع واستفطار فى بيت
وكيل دعاوى البلدة منذ هنيئة
على ان رودلف أظهر عجزه عن مساعدتها

- ٥ -

وصح فى يقين « اما » بعد ذلك جميعه انه لم يبق لها
غير مخرج واحد . فتسللت الى بيت الصيدلى ، وأبتلعت
خلسة مقدارا من سم الزرنينخ

ولما عاد شارل الى البيت ، وجدها تكتب رسالة .
وكانت عليها سيماء الطمانينة والهدوء . ثم اضطجعت فى
القراش وغلبها النوم . وبعد هنيئة استيقظت ، وطعم
المرارة فى فمها . والعجيب انها كانت معنية بمتابعة تأثير
السم فيها . ولكنها لم تشك ألما . وكانت فى أتم وعيها ،
تسمع أزيز النار فى الموقد ، وتكتكة الساعة الكبيرة على
الجدار ، وأنفاس شارل وهو جالس يستجم على مقربة
من وسادها . ولكنها كانت عطشى وقد اشتد عطشها .
فطلبت ماء ، ثم قاءت على حين فجأة

فأقبل شارل عليها ، ومسح بيده - فى ملاطفة
رقيقة - على معدتها - فاذا هى تصرخ صرخة عالية
فأجفل ، ملتاعا مذعورا .
واستحال وجهها الى الزرقة ، والتمعت عليه قطرات

- ١٥٢ -

من نضح العرق . وجعلت أسنانها تصطك . وأدارت
حولها نظرات مبهمة وابتسمت مرة أو مرتين . ثم زاد
توجعها وأنيبها ، وعلى حين فجأة علت صرختها ..
وبعد قليل أسلمت روحها ..

ودفنت « اما » كما شاء زوجها ، في ثياب عرسها ،
وحداثها الأبيض ، واكليلها وجعلوا شعرها الأسود الوافر
منشورا على كتفيها . وأودعت في ثوابيت ثلاثة : تابوت
من السندبان ، يضمه تابوت من خشب الكابلي ، والتابوت
الخارجي الثالث من الرصاص

وكان موت « اما » خاتمة حياة شارل أيضا فلم يبرح
منذ ذلك اليوم داره ، وأبى أن يرى أحدا ، أو يستقبل
مريضا . وكان العابرون بداره يلمحونه في الحديقة ، رث
الثياب ، أشعث أغبر ، ظاهر الاستيحاش وهو يهيم في
جنباتها وقد علا نحيبه وعويله

وفي ذات مساء ، وجدته بنته الصغيرة ميتا ، تحت
العريشة في الحديقة ، ويده مطبقة على خصلة طويلة من
الشعر الأسود الجميل

القصة المرحومة

« لأونوريه دي بلزالك »

على مسيرة مائة خطوة من مدينة فندوم ، على ضفاف اللوار ، يقوم قصر قديم داكن شاهق السماء مفرد بوحده وقد شاهت حديثته واستوحشت شجراته وكلحت جدرانها وتعفرت نوافذه وأبوابه وخيم عليه سكون فاجع تحس النفس أن وراءه سرا وقد عمّ كاتب هذه السطور من خادمة في نزل قريب حكاية أهل هذا القصر وكانت وصيفة عندهم وقد أحلها نزوح السيد الى غير رجعة وموت السيدة من بعده من أمانة السر التي ظلت على التزامها سنوات طوالا

وهذا ما حكته بعد اختصاره والسلوك به الى ناحية الابجاز واقتضاب مقدماته وقصره على ما تنجلي به خافية الامر ويرتفع به جانب الستر :

كان المخدع المخصص في القصر للكونتس دي ميريه في الطابق الارضى وكانت تلحق به مقصورة صفرى طولها أربع اقدام متداخلة في الحائط تتخذها السيدة خزانة لاثوابها . وكانت الكونتس دي ميريه في ذلك الحين قد ألت بها من ثلاثة اشهر وبكة شديدة تقضى بأن تستقل بهذه الحجرة وأن يدعها الزوج وحدها ، فكان يرقد في حجرة بالطابق الاول

ولقد شاءت مصادفة من تلك المصادفات التى لا ضابط لها فى التقدير والحسبان ، ان يعود الكونت ذات ليلة متأخرا عن مالوف عادته من النادى الذى يرتاده لمطالعة الصحف والحديث فى السياسة . وكانت زوجته تحسبه قد عاد فى مواعده وأنه فى مضجعه مستغرق فى النوم .

ولكن أخبار الحرب كانت مثار نقاش شديد فى النادى تلك الليلة . وكذلك كان شوط البليارد هذه المرة حامى الوطيس وقد خسر فيه أربعين فرنكا ، وهو مبلغ جسيم فى الريف حيث الناس اجمعون مدخرون للمال جامعون، وحيث الطبائع مكفوفة عن الغلواء ملتزمة حدود القصد الحميد - ولعل فى هذا مصدرا للسعادة الحققة لا يحفل به الباريسيون . وكان المسيو دى ميرييه منذ حين يقنع بسؤال الوصيصة روزالى عما اذا كانت السيدة دى ميرييه أوت الى فراشها فترد الوصيصة على سؤاله بالإيجاب دائما ، فيبادر الى حجرته بسلامة الطوية التى تورثها العادة والثقة . ولكنه فى هذه الأيلة بدا له ان يعرج على زوجته يحدثها بما لاقى من سوء حظ ولعله قام بنفسه أيضا التماس العزاء فى قريها . فلقد كانت على العشاء غنجة الزينة متبرجة فحدث نفسه وهو عائد من النادى الى البيت فى أنها عوفيت وصح بدنها وكيف انها زادت على النقاة حسنا . ولقد فطن الى ذلك الليلة فقط كما هو العهد بالازواج يفتنون الى كل شيء متأخرين . فها هو ذا لا يدعو روزالى التى كانت فى تلك اللحظة مشغولة فى المطبخ بمتابعة الطاهية والجوذى يلعبان بالورق شوطا عسيرا ، بل يأخذ سمته توا الى مخدع امرأته على ضوء فانوسه الذى وضعه على الدرجة الاولى من السلم . وكانت خطوته - ومن السهل معرفتها - تدوى مرردة الصدى تحت حنايا الدهليز .

قلما ان ادار مفتاح حجرة زوجته خيل اليه انه يسمع باب المقصورة الداخلية المتخذة خزانة للثياب يقفل . ولكنه حين دخل الفى امراته وحدها واقفة امام الموقد فوقع بنفسه فى بساطة ان وصيفتها روزالى فى المقصورة . بيد ان طائفا من الشك طن فى اذنه طنين الجرس فايقظ توجسه . فتطلع الى امراته ، فرأى فى عينيها ما لا يدرك كنهه من البلبلة والاستيحاش .

وقالت : « لقد طال فى العودة تأخرك » .

ولكن هذا الصوت الذى يعهده غاية فى الصفاء ونهاية فى الرقة بدا له متغيرا بعض التغير ولم يحسر السيد دى ميريه جوابا اذ دخلت فى هذه اللحظة روزالى وكان دخولها من باب الحجرة لا المقصورة ، فوقع ذلك عليه وقع الصاعقة وجعل يتمشى جيئة وذهابا فى الغرفة متنقلا من نافذة الى اخرى ، بحركة رتيبة واحدة ، مكتوف الذراعين ..

وسألته امراته فى وجل وخشية وروزالى تعاونها على خلع ثيابها :

« او بلغك ما احزنك او بك ما تشكو منه ؟ »

فلم يخرج عن صمته ..

والتفتت السيدة دى ميريه الى وصيفتها قائلة : « اذهبي انت . سأعصب شعري بنفسي » . لقد اوجست امرا من مجرد التطلع الى سيماء زوجها فارادت الا يشهدهما ثالث .

فاما ان ذهبت روزالى - او على اصح القولين اوهمت انها ذهبت ، اذ الواقع انها وقفت فى الدهليز تتسمع - تقدم السيد دى ميريه فجلس قبالة زوجته وقال لها فى برود :

« سيدتى ، فى هذه المقصورة شخص ! »
فرمقت السيدة زوجها هادئة المظهر واجابت فى هدوء :

« لا ، يا سيدى »
ولقد فجمته « لا » هذه وصدعت قلبه فانه لم يصدقها . ومع هذا فلم تبد له امراته اخلص نقاء وأخشع تدينا منها فى هذه اللحظة . .
ونفض السيد دى ميريه يريده فتح المقصورة فأمسكت السيدة دى ميريه بيده وأوقفته ونظرت اليه فى حزن وأسى وقالت له فى صوت شديد التأثير :
« فكر فى انقطاع ما بينى وبينك اذا أنت لم تجد أحدا »
قال : « كلا يا جوزفين ! لست فاعلا والا افترقنا على الحالين فراقا لا لقاء بعده . اسمعى لى انى أعرف مبلغ نقاء سريرتك وأعرف أن حياتك حياة قديسة ولن يقوم بخلك ان تقتربى كبيرة فيها هلاك نفسك »

فرفعت السيدة دى ميريه الى زوجها نظرة تائبة ومضى الزوج يقول : « خذى هذا صليبك فاقسمى لى امام الله ان لا أحد هناك » فانى اذ ذاك مصدقك وقابض يدي عن فتح هذا الباب .
فتناولت السيدة دى ميريه الصليب وقالت : « أقسمت » فقال الزوج : « ارفعى صوتك واعيدى القسم (اقسم امام الله أن لا أحد فى المقصورة) »
فأعادت العبارة غير متلجلة
فقال الزوج فى برود : « حسنا . . »
وبعد لحظة صمت قال وهو بمعن النظر فى الصليب وكان من آبتوس محلى بالفضة بديع النقش للعبادة :
« ان عندك تحفة بديعة الشكل لم أكن أعهدا عندك »

فأجابت : « لقد رأيتها عند ديفييه وكان اشتراها من راهب أسباني عندما مرت بالبلدة جماعة الاسرى الاسبان في السنة الماضية » .

فنبس السيد دى ميريه « آه ! » وأعاد الصليب الى مناطه من المسمار : ثم قرع الجرس . فلم تلبث روزالى أن دخلت وخف السيد دى ميريه اليها وأخذها الى فرجة النافذة المطلة على الحديقة وهمس اليها :

« أنا أعلم أن جورنفلو راغب فى زواجك وانه لم يمنعكما الا الفاقة وقد صارحته أنك لن تكونى زوجته الا حين يصبح مقدم بناتين إذن هيا التمسيه وقولى له أن يأتى الى هنا ومعه مسبحته وسائر أدواته وحاذرى أن يتنبه فى بيته أحد غيره ولسوف يجاوز كسبه ما تشتهين . هيا وليكن خروجك من هنا خاصة من غير ثرثرة والا »

وفطب ما بين حاجبيه وخرجت روزالى فاستدعاها اليه ثانية :

« خدى دونك جواز مرورى »

ثم صاح السيد دى ميريه بصوت راعد مجلجل فى الدهليز « جان ! »

وكان جان حوذه وأمين سره وموضع ثقته معا فلم يسمع النداء ترك شوط الورق وقدم على عجل ملييا .

فابتدريه سيده صائحا : « هلموا للنوم جميعا » وأومأ اليه بالدنو ثم همس اليه : « حين ينامون جميعا . . حين ينامون . . أسامع أنت . . فانزل وأعلمنى »

وكان السيد دى ميريه يصدر أوامره دون أن تغيب عن ناظره امرأته ثم عاد فى سكون الى قربها أمام المصطفى وجعل يحدثها بما جرى فى شوط البليارد وبما دار من

نقاش بين المجتمعين في النادي فلما أن رجعت روزالى وجدت السيد والسيدة يتجاذبان الحديث كأصفي ما يكون . .

وكان السيد في العهد الاخير قد أمر بالحجرات التي يتألف منها جناح الاستقبال في الدور الارضى فخصصت سقوفها . ولما كان الجص عزيز الوجود في البلدة ونقله يزيد كثيرا في نفقته فقد استورد منه السيد مقدارا كبيرا لعلمه أنه واجد على الدوام كثيرين من المشتريين لما يتبقى منه . وهذه المناسبة القريبة هي التي أوحى اليه بالنية التي هو عامل على امضائها .

وهمست روزالى : « سيدى جورنفلو موجود » .

فأجاب السيد رافعا صوته : « ليدخل » .

وتغير وجه السيدة دى ميريه عند رؤيتها للبناء .

وقال الزوج : « يا جورنفلو ، اذهب وخذ قميدا من المخزون واحمل منه مايكفى لسد باب هذه المقصورة وعليك بالجص المتبقى عندي لدهان الجدار بعد ذلك »

ثم اجتذب الى ناحيته روزالى والعامل وقال هامسا : « اسمع لى يا جورنفلو . بعد فراغك تنام الليلة هنا وفي صباح الغد يكون في يدك جواز للرحيل الى قطر اجنبي ، الى بلد سوف اسميه لك . وسأعطيك ستة آلاف فرنك لرحلتك . وفي ذلك البلد تقيم عشر سنوات . فاذا لم يطب لك فيه المقام فلك أن تستوطن غيره ولكن في القطر نفسه . وليكن معجارك عن طريق باريس حيث تنتظرني وثمة أوقع لك صكا بستة آلاف فرنك أخرى تكون حقا لك بعد عودتك في حال وفائك بشروط الصفقة التي بيننا . وفي لقاء هذا تطوى في غور شرك ما أنت فاعله الليلة هنا وتشرج عليه صدرك أما أنت يا روزالى فسنأهيك عشرة

آلاف فرنك لا انقدها اياك الا يوم عرسك، وعلى أن تتزوجى جورنفلو . ولكن أمر زواجكما رهن بالصمت والتزام الكتمان والا فلا صداق »

ونادت السيدة دى ميريه : « روزالى تعالى مشطى شعرى » ..

وجعل الزوج يذرع الحجرة فى هدوء طولا وعرضا وهو يرقب الباب والبناء وامراته دون أن تبدو منه ريبة جارحه . وكان جورنفلو يحدث ولا محالة بعض الجلبة فانتهزت السيدة دى ميريه ان كان البناء يفرغ على الارض ما يحمل من حجارة وزوجها فى آخر الحجرة وهمست الى روزالى : « ألف فرنك أجريها عليك كل عام يا بنيتى العزيزة لو استطعت أن تقولى لجورنفلو أن يترك فى أسفل البناء ثغرة »

ثم قالت بصوت مسموع وهى رابطة الجأش :
« هيا اذن فعاونيه »

ولبت السيد والسيدة دى ميريه صامتتين طوال المدة التى قضاها جورنفلو فى سد الباب وكان صمت الزوج عن قصد وتدبير حتى لا يتاح لامراته التعريض بالكلام وكان صمت امراته عن تحفظ أو إباء . ولما أن بلغ الجدار نصف ارتفاعه أنتهز البناء الماكر ان كان الزوج مستديرا ، فأصاب احدى زجاجتى الباب بضربة من معوله فأدركت السيدة دى ميريه من ذلك ان روزالى أدت للبناء رسالتها ولمح ثلاثتهم من وراء الشظية المحطمة وجه رجل أسمر الالهاب أسود الشعر بواق النظرة مشتعلا. وقبل أن يستدير الزوج كانت المرأة المسكينة قد أومات برأسها الى الغريب : « ان-الظر وأمل »

وفى الساعة الرابعة عند انبلاج الصبح - وقد كان ذلك فى شهر أيلول - تم البناء • ولم يرح البناء انقصر وبقي تحت ملاحظة جان الحوذى الأمين • ورقد السيد دى ميريه فى حجرة زوجته • وفى صبيحة الغد هب من فراشه وهو يقول بلهجة فارغ الهم خالى البال :

« آه يا للشيطان ! لا بد لى من الذهاب الى دار العمدة لاستخراج جواز »

ووضع قبعته على رأسه وخطا خطوات ثلاثا الى الباب، ثم راجع نفسه وأخذ الصليب معه •

فارتجفت زوجته فرحا وقالت فى نفسها : « انه ذاهب الى ديفيقيه » وما كاد يخرج السيد حتى دقت السيدة دى ميريه الجرس لروزالى ثم هتفت بها فى صوت مخيف :

« المول ! المول ! والى العمل • لقد رأيت البارحة كيف كان جورنفلو يزاول العمل ولدينا المتسع من الوقت لنقب فجوة ثم سدها »

وفى مثل لمحة الطرف أحضرت روزالى الى سيدتها أداة كالفأس فأقبلت هذه على الجدار تضربه بحمية لا يتصورها وهم ولا تتمثل فى خيال • ولقد اطارت فعلا بعض الحجارة وفيما هى تتحفز لضربة أخرى أقوى بأسا وأشد تقويضا اذا بها تبصر السيد دى ميريه خلفها فخرت من فورها مغشيا عليها • •

وقال السيد فى برود : « ضعوا السيدة فى فراشها » لقد توقع الرجل ما هو حرى بالوقوع فى غيبته فنصب هذا الشرك لزوجته واكتفى بكل بساطة بأن يكتب الى العمدة فى أمر جواز السفر وأن يرسل فى طلب الصائغ ديفيقيه • وقد وافى الصائغ وكانت الحجرة قد تم اصلاح أمرها ولم شعشها

فسأله السيد : « قل لى يا ديفيقيه أو لم تشتتر صلبانا

من الاسبان الذين مروا بالبلد ؟ »
- لا يا سيدي

وقال السيد وهو يبادل امرأته نظرة النمر : « حسنا
أشكرك »
ثم التفت الى خادمه الامين وقال : « جان قل لهم من
اليوم أن يقدموا الطعام الى في حجرة السيدة، انها مريضة
ولن أدعها حتى تعافى »

ولبت السيد الفاسى عشرين يوما بجانب جوزفين
زوجته . وكان فى الايام الاولى كلما اضطرب حس فى
المقصورة المسدودة وهمت جوزفين بالتوسل اليه من اجل
الغريب المختنق لم يدعها تنبس بكلمة مما تهم به مرددا على
سمعها قولا واحدا :

« لقد أقبست على الصليب أن لا أحد هنا »

أرملته

« لجنى دى موباسان »

كان ذلك فى أوان الصيد فى قصر بانفيل ، والخريف مطير حزين والاوراق الذابلة المحمرة منتشرة على أرض الغابة لا يسمع لها تقصف تحت الاقدام بل تعطن فى الطرقات بمدارج العجلات تحت شآبيب الديم الهائلة

وكانت الغابة جرداء الا قليلا ، تشبه من الرطوبة بيت الاستحمام . فاذا أوغلت فيها تحت افنان الدوح العالى يصفقه وابل المطر ، شملتك رائحة مخمة وهبوة بخار من العشب المخضل والارض المبتلة . وكان الصيادون يدبون - حناة الظهور - تحت هذا الفيض الهتون . والكلاب متجهمة ساهمة ذيلها مرسل الى الارض وشعرها ملتصق بأطالها . والغانيات الصائدات فى أثواب الصوف المفصلة على أعطافهن اللاصقة بأبدانهن وقد أشربها البلل . كان هؤلاء جميعا يعدن كل مساء من الصيد انضاء جسم وعقل معا

وكانوا بعد العشاء يجتمعون فى البهو الكبير الى لعبة الورق من غير انبساط ولا لذة وللريح فى الخارج هبات مدويات تدفع فى مصاريع الشبايك المغلقة وتبتدر دوارات الهواء المتقدمة العهد فوق الابراج فاذا هى من الدوران كالخذروف المدوم

وارادوا أن يسمروا بالحكايات على نحو ما يروى فى الكتب فلم يوفق أحد الى ابتداع حكاية مسلية . ومضى

الصيادون يقصون ما وقع لهم فى أثناء صيدهم بالبنادق
وتقتيلهم للارانب وجعلت الغانيات يكسدن أذهانهن
ويتقصين فى ثناياها فلا يجدن خيالا كخيال شهر زاد
يسعفنهن بحكاية من أمثال حكايات ألف ليلة وليلة
وكاد القوم أن تنقطع بهم أسباب الحديث الا أن احدى
الغانيات كانت تعبت خالية البال بيد عمته العجوز وهى
عانس لم تتزوج فلحظت خاتما صغيرا من شعرات شقراء
كثيرا ما وقع ناظرها عليه من غير أن تفكر لحظة فيسه .
فسألتها ، وهى تديره فى أصبع صاحبه بلطف : « الا
قلت لنا يا عمتى ما هذا الخاتم ؟ لكاه شعر غلام
يافع . . . »

فاحمر وجه العانس ثم اصفر ، وأجابت بصوت متهدج :
« ان الامر محزن جدا . . محزن جدا . . حتى لست أحب
فيه الكلام ، وكل الذى فى حياتى من شقاء فهذا مصدره ،
لقد كنت فى غرارة السباب وقتئذ . ان الذكرى ما برحت
تلوعنى وترمضنى حتى ليغلبنى البكاء كلما خطرت فى نفسى
فتلهف القوم الى سماع الخبر وأبت العمة ذلك عليهم
فما زالوا بها حتى رضيت فى آخر الامر وأنشأت تقول :

« كثيرا ما سمعتمونى أتحدث عن أسرة سانتيـز وقد
انقضت اليوم عن آخرها . ولقد عرفت الثلاثة الاخر من
رجال هذا البيت والثلاثة ماتوا ميتة واحدة وهذه شعرات
الاخير ، وكان فى الثلاثة عشرة من عمره حين انتحر من أجل ،
لقد يبدو لكم الخبر غريبا اليس كذلك ؟ »

« بلى لقد كانوا معشرا عجيبا من المجانيين . ان شئتم هذه
التسمية ولكنهم مجانين ظرفاء . . مجانين غرام . فهم جميعا
— أبا عن جد — ذوو عواطف عارمة جامعة تدفعهم فى ضميم
كيانهم كله دواع لاتدافع الى أبعد السباحات . الى التفانى
الجهووس والغلواء فى التحمس ؛ بل تذهب بهم الى حد

أوتكأب الجرائم • وهذا الهيام منهم بمنزلة التدين الشديد
فى بعض النفوس وشتان فى الطبيعة والمزاج بين أهل
العبادة وبين أزياء النساء ..

« وقد شاع بين ظهرانهم هذا الوصف « عاشق عشق
آل سائيز » • وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيماهم
فما منهم الا ذو خصل منسدلة على الجبين ولحية جعدة
وعينين واسعتين ينفذ شعاعهما فى نفسك فيبيلبك ويشغل
خاطرک دون أن تعرف لذلك سببا

« وكان جد الغلام - الذى رأيتم فى أصبعى تذكاره
الوحيد - له مغامرات عدة ومبارزات وسبى واستباحة
للحریم ، وقد هام بعدها وهو فى الخامسة والستين بآبنة
مؤاجر ضياعه وانى لأذكرهما ، وكانت شقراء شاحبة اللون
حسنة السمى والشارة ، تتكلم متثدة وفى صوتها لين
وترطيب ، ونظرتها حلوة غاية فى الحلاوة كأنها نظرة
العذراء فى صورة الرسامين • فأخذها السيد الكهل عنده
وسرعان ما أصبح متيما بها لا يطيق البعد عنها لحظة •
وكانت ابنته وامرأة ابنه المقيمتان فى القصر لا تنكران من
الأمر شيئا لطول ما قر الحب فى تقاليد الأسرة • فان الأمر
إذا كان أمر العشق فليس شىء فيه عندهما بمستنكر •
وإذا جرى الحديث أمامهما عن هوى مخيب مردود أو
عاشقین افترقا أو حوادث الانتقام من الخيانة أو نقض
العهد قالتا معا فى لهجة أسيفة شجية : « له الله - أو لها
الله - لشدة ما قد تألم ولا ريب حتى بلغ الأمر به هذا
المبلغ » ولا تزيدان على ذلك فهما لا تبرحان تدرکهما
الرجيم لما سبى الحبيب ولا تنقمان قط على أصحابه ولو أجرما
« الا انه فى ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شاب
فى عتفوان الشباب هو للمسيو دى جراديل فاختطف الفتاة

وظل المسيو سانتيز هادئا كان لم يحدث شيء ، واذا هم
يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقا بمسرق الكلاب
والكلاب حوله . لقد شنق نفسه . كذلك مات ابنه مثل هذه
الميتة في فندق بباريس في أثناء رحلته سنة ١٨٤١ على
اثر خيانة احدى مغنيات الاوبرا له وترك بعده ولدا في
الثانية عشرة وأرملة هي أخت أمي ، وجاءت السيدة ومعهما
الصغير للمقام عندنا بأرضنا في بريتون . وكنت وقتئذ
قد بلغت سبعة عشر ربيعا

« ولا يسعكم أن تتصوروا كيف كان هذا الصغير
سانتيز مدهشا في نضجه الباكر قبل الاوان . وانه ليخيّل
الى المرء أن جميع ملكات أسلافه من رقة عاطفة وسبعات
نفس جائشة قد اجتمعت فيه ، هذا العقب الاخير . وكان على
الدوام سارح الفكر حالما يتمشى وحده ساعات كاملة في
مشى رحيب بين أشجار الدردار يمتد من القصر الى الغابة
وكنت أرقب من نافذتي هذا الصبي الرقيق الوجدان وهو
يسير وثيد الخطى ويداه خلف ظهره مطرقا الى الارض
وأحيانا يتوقف ويرفع طرفه كأنه يرى ويدرك ويحس
أشياء ليست لمن كان في سنه

وكثيرا ما كان يدعوني للخروج بعد العشاء في الليالي
المقمرة قائلا « هلمى يا ابنة الخالة نحلم .. » فنمضى سويا
الى الروض . وكان يتوقف فجأة في الفتحات بين تفاريج
الشجر حيث نطقوا تلك الهوى البيضاء مثل نديف القطن
يبطن بها القمر فتحات الغاب . ويقول لى وهو يشد على
يدى : « أنظرى الى هذا . أنظرى الى هذا ولكنك لا تفهمينى ،
انى لاحس ذلك . لو أنك تفهمينى لكنا سعداء . لابد من
الحب لمن شاء المعرفة » وكنت أضحك واقبله .. اقبل هذا
الصبي الذى يحبنى متفانيا فى حبي ..

« وكان أيضا بعد العشاء كثيرا ما يجلس على ركبتي أمي قائلا لها « ايه يا خالة قصي علينا شيئا من قصص الحب » فتحدث لي أمي على سبيل الدعاية أساطير أهل بيته كافة وجميع ما وقع لأبائه من الوقائع الغرامية والناس يرددون من وقائعهم الألوف بعد الألوف من صحيحة ومفتراة . ان هؤلاء القوم قد أضاعتهم شهرتهم فلقد كانت هذه الاخبار الماثورة عنهم تسور في رؤوسهم ويستجيشون لها فتملكهم العزة أن يكذبوا سمعة بيتهم وما اشتهر به

« وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات لطيفها وفظيعتها وكان بعض الاحيان يدق بيديه مرددا : « وأنا أيضا واني لاعلم بالحب منهم جميعا »

« ثم جعل يتحجب الى متغزلا في استحياء وحنان عميق ، كانا مثارا للضحك لشدة غراية الامر . وكان في كل صباح يقطف لي جنى الزهور وفي كل مساء قبل صعودي الى مقصورتي يلثم يدي هامسا « أنا أهواك »

لقد أذنبت وركبني أعظم الذنب وما زلت على هذا نادمة باكية لا يرقا لي دمع ، واني لقي التفكير عن هذا طوال حياتي . وقد بقيت بعده عانسا لا أتزوج ، بل بقيت كالخطيبة المترملة . أجل أنا أرملته .

كنت ألهو بهذا الحب الصبياني بل كنت أعمل على اذكائه . فكنت الى جانبه المرأة الخلوب ذات الدك وكأني الى جنب رجل الاعبة وأخاتله . لقد فتنت هذا الغلام ودلته بحبي . وكان الامر عندي لعبا ومعابشة وعند أمي وأمه تسلية وترويحاً . . لقد كانت سنه اثنتى عشرة . فتأملوا من كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرام النري . فكنت أقبله ماشاء بل كنت أكتب رسائل العشق له أقرؤها لامي وأمه قبله وكان يجيب عليها بكتب مسطورة ، كتب من نار ، وقد

احتفظت بها • وكان معتقدا أن صلتنا الغرامية سر مكتوم •
وكيف لا وهو يعتد نفسه رجلا والامر في عرثه الجد كل
الجد وقد غاب عنا انه من آل سائيز •

ودامت الحال على هذا المنوال عاما أو قرابة عام • وفي ذات
مساء ونحن في الروضة خر جاثيا عند قدمي ولثم حاشية
ثوبي في اندفاع المهتاج مرددا أنا أهواك أنا ميت في هواك
وإذا خنتني في يوم من الايام ، أسامجة أنت - إذا هجرتني
الى سواي فاني صانع مثلما صنع أبي ••••• وأردف في
صوت عميق يقشعر له البدن •• « أنت عليمة بما صنع »

ولما وجمت ولم أحر جوابا نهض وشب على أطراف قدميه
ليبلغ الى أذني - وكنت أقرع منه طولا - ودعاني باسمي
الاول « جنفييف » بنغمة حلوة جميلة رقيقة شملتني منها
قشعريرة سرت من فرعى الى أخمص قدمي •

فغمغمت « لنرجع لنرجع الى الدار » فلم ينبس بكلمة
وسار في أثرى فلما هممنا بصعود درج السلم استوقفني
قائلا : « أتعرفين إذا هجرتني فاني قاتل نفسي » ••

فعلمت هذه المرة أنني تماديت حيث لا يجب التمتعادي
رجعلت أتكلف معه التحفظ ولما ان كتب ذات يوم يعتب
على أجبتة : « أنت اليوم أكبر من عبث المزاح واصغر من
جد الحب واني في الانتظار »

وحسبتني بهذا قد أبرأت ذمتي •
وفي الخريف عهدوا به الى مدرسة داخلية فلما عاد في
الصيف التالي كنت مخطوبة • فأدرك الامر في الحال
والتزوم مدى ثمانية أيام هيئة المفكر الفارق في التفكير
فأهمنى ذلك وساورني منه قلق شديد •

وفي صبيحة اليوم التاسع استيقظت من نومي فوقعت
عيناي على رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب فتناولتها

وفتحتها فقرات فيها « لقد هجرتنى وانت تعلمين ما قلته لك • لقد قضيت على بالموت • وانى لاحب أن لا يعثر بى أحد غيرك فتعالى الى الروض فى الموضع الذى قلت لك فيه انى أهواك وتطلعنى فى الفضاء »

فكدت أن أجن وأسرع بارتداء ثيابى وهرولت أجرى على عجل ، وأجرى ، وأكاد أتساقط اعياء ، الى المكان المعين • واذا قبعته الصغيرة المدرسية ملقاة على الارض فى الوحل فقد كانت الليلة مطيرة ورفعت طرفى فابصرت شيئا معلقا يترجح بين الورق • وكان يوم ريح شديدة •

ولا أدري بعد ذلك ما صنعت • لقد صرخت اول الامر ولا ريب ولعلنى سقطت بعدها مغشيا على • ثم عدوت هائمة على وجهى الى القصر • وثبت الى الرشد فى فراشى وأمى الى جانبى فخيّل الى أنى رأيت مارأيت كله فى هذيان حلم فظيع فغمغمت « وهو ، اين هوجونتران ؟ » فلم يجبنى أجد أنها الحقيقية

ولم أجرؤ على طلب رؤيته ، وطلبت اليهم خصلة طويلة من شعره الاشقر وهذى • هذى • هذى • • •

ومدت العانس يدها الراجفة بحركة القانط الملتطوع الرجاء ثم أخرجت منديلها ومخطت مرات ومسحت عينيهما الدامعتين واستأنفت تقول : « ونقضت الخطبة دون ابداء السبب • • وبقيت • • بقيت طوال العمر • • أرملة • • أرملة هذا الصبى ابن الثلاثة عشر ربيعا » • ثم مال رأسها على صدرها وبكت طويلا بدموع الذكرى •

ولما انصرف المدعوون الى حجراتهم للرقاد مال صياد غليظ الجسم - قد أفسدت عليه الحكاية صفوه - الى اذن جاره هامسا :

« ألا ترى أن رقة الشعور الى هذا الحد بلاه وشر بلاه ! »

في ضوء القصة

« ليجي دي موباسان »

كان الاب « مارنيان » جديرا باسمه الحربى . فهو .
قس مديد القامة قليل اللحم مجدول ، شديد العصبية له
نفس سابحة على الدوام هائمة الا انها مستقيمة لا التواء
فيها ، عقائده كلها ثابتة راسخة لم تعورها قط ذبذبة
الحيرة وقد وقر فى وهمه عن اعتقاد وخالص ايمان انه
يعرف ربه وانه يدرك كنهه حكمته ومشيتته ومرامى
تصاريفه ..

وكان احيانا وهو يتمشى بخطوات واسعة فى ممشى
داره الخلوية الصغيرة يقوم بخاطره ان يتساءل : « لاي
سبب من الاسباب كان خلق الله لهذا الشيء ؟ » فيبحث
ويلج فى البحث مفترضا نفسه فى متبوأ الله تصورا
للسبب المنشود . وكان فى معظم الاحوال يوفق الى
الاهتداء الى سبب . فليس هو من الدين يفهمون فى
فيض من الاخبات والخشوع « يارب ، جلت حكمتك عن
ادراك المدركين ! » كلا بل هو يقول فى ضميره « أنا خادم
الله فواجبى ان أعرف دواعى تصاريفه أو ان اتوسمها
تخمينا ، اذا أعيانى عرفانها يقينا » .

فكل شيء فى الطبيعة يبدو مخلوقا على اكمل القياس
المنطقى وأروعه لكل معلول علة والمسائل والاجوبة متعادلة
على الدوام فى الميزان . فالله قد خلق مطالع الفجر لنفتح

على البهجة عيوننا ساعة اليقظة . وكذلك خلق النهار
منضجاً للحصاد والامطار للرى والاصائل تمهيداً للنوم
وحلك الغلام للرقاد ..

والفصول الاربعة مطابقة لمقتضيات الزراعة كل المطابقة .
ولم تخامر القس قط شبهة بأن الطبيعة لا مقصد لها ،
وان الكائنات الحية جميعها خاضعة لاحكام الدهور
واختلاف الاجواء وطبيعة المادة .

ولكنه كان يبغض المرأة . يبغضها غفو سجيته ويحقرها
بفطرته . وكثيراً ما كان يردد قول المسيح « ايتها المرأة
أى وجه للشبه بينك وبينى ؟ » ثم يعقب على ذلك : لكان
الله نفسه غير راض عن هذا الصنيع من صنائعه ، فالمرأة
عنده هى ذلك الوليد الرجس المضاعف الرجس الذى
يحدثنا الشاعر عنه . ولقد كانت شيطان الغواية الذى
أستدرج آدم اول الرجال وما برحت دائبة على سعيها
المضلل الموقع فى الفتنة والهلاك الابدى ، تلك المخلوقة
الضعيفة الخطرة مثيرة الشجون لغامضة . ثم انه على
كراهته لجسمها الموبق لاشد كراهة لنفسها النزوع الى
الحب ..

ويا طالما شعر من النساء بعطفهن يشمله فكان - مع
ما يعهده فى نفسه من المناعة دون سطوتهن - يستشيط
حنقا ونقمة على ما يختلج ابد العمر فى انفسهن من حاجة
الى الحب ..

فالله فى اعتقاده لم يخلق المرأة لغواية الرجل
وابتلائه . فيجب الا يدنو الرجل منها الا مزودا بأهبة
الدفاع واستشعار الحذر من الوقوع فى حبالها . وانها
فى الواقع لشبيهة بأحبولة الصياد بذراعيها الممدودتين
الى الرجل وتغرها المفتر له .

فلا سماح ولا موادة عنده الا للراهبات جعلهن التبتل مكفوفات الاذى . بيد انه مع هذا يجفو في معاملتهن لانه يحس في سويداء قلبهن المقيّد المهيض ذلك العطف السرمدي الذي لا ينفك نابضا حيا والذي يتجه اليه ايضا ، مع كونه قسا .

وهو يانس ذلك في لحاظهن المخضلة من التعبد والتخشع أخضلالا لا يعهده مثله في لحاظ الرهبان . يانس ذلك في سباحات وجدهن الصوفى الممتزج بالاحساس الجنسى في لهفة حبهن للمسيح ، لهفة تسخط انفس وتثيره لانها بعد حب نسائي ، حب حسي . يانس ذلك العطف اللعين في انقيادهن وفي حلاوة صوتهن وهن يتحدثن اليه ، وفي اطراقة ابصارهن وفي دموعهن المستسلمة عندما يعنف في تفريعهن . .

فتراه لدى خروجه من ابواب الدير ينفض مسحة الكهنوتي ويمضى مهطعا ممدود الخطا كأنما يفر من خطر وكانت له ابنة أخت تعيش مع أمها في منزل صغير مجاور . وهو لا ينسى دائم السعي لجعلها اختا من أخوات الرحمة . .

وكانت حسناء خفيفة الحلم عابثة ، يعظ الاب فتضحك فإذا تكدر منها عانقته بشدة وضمته الى صدرها ، وهو يحاول غير مختار أن يتخلص من هذه الضمة التي تذيبه مع هذا متعة حلوة اذ تنبه في قرارة نفسه احساس الابوة الهاجع في نفس كل رجل .

وكثيرا ما كان يحدثها عن الله - عن ربه - وهو سائر الى جنبها في مباحثي الحقول . وهي قليلة الانصات اليه تزنو الى السماء والى العشب والى الازهار سعيدة بالحياة سعادة تتراعى شاهدة في عينها . وتنطلق عنه

أحيانا لمطاردة بعض الهوام ثم تهلل فرحة وقد اقتنصتها:
« انظر يا خالى ما أملحها لوددت لو ضممتها » وهذه
الحاجة الى ضم متطائر الفراش وأكمام الزنبق تقلق بال
القس وتفيظه وتستثيره اذ يجد هنا ايضا ذلك العطف
الذى لا سبيل الى اقتلعه ، ولن ينقك نابت الجرثومة فى
قلوب النساء .

وتعاقبت الايام فى اثر الايام واذا بزوجة سادن الدير
- القائمة بتدبير منزل القس - تنبئه ذات يوم فى احتياط
وتحفظ ان لابنة اخته عاشقا

فهزه ذلك هزة عنيفة ووقع منه موقعا شديدا . ولبث
مختنق الصوت ورغوة الصابون تغم وجهه اذ كان يحلق
ذقنه وقتنه ..

ولما ثاب الى حال يستطيع معها التفكير والكلام صاح
قالا :

« هذا غير صحيح انت تكلمين يا ميلانى ! »
فوضعت القروية يدها على قلبها وقالت : « ليقضى
الله تعالى قضاءه فى ان كنت كاذبة يا سيدى الاب . وأنا
مخبرتك انها تذهب الى هناك كل ليلة بعد ان تأوى اختك
الى مضجعه ، وهما يتلاقيان على ضفاف النهر . وما عليك
الا ان تذهب وترى بعينيك بين الساعة العاشرة ومنتصف
الليل »

فأمسك القس عن حك ذقنه بالموسى وطفق يذهب
ويجىء فى عنف كدأبه فى ساعات التفكير الخطير ، ولما اراد
استئناف الحلاقة جرح نفسه ثلاثا فيما بين أنفه واذنه .
وظل سحابة النهار صامتا منتفخ الاوداج قد امتلأ
موجدة وغضبا . ولا جرم فقد زادت فوق نقمة الكاهن على
نزعة الحب الغلاب نقمة الاب المعنوى والقيم الوصى

والموكل بالتهذيب الخلقى ، وقد رأى نفسه مخدوعا مسلوبا
لعبت به طفلة • وهذا هو الكرب الانانى الذى يشجى به
الاباء حين تؤذنه الفتاة بأنها - من دونهم وبالرغم منهم -
قد اختارت لنفسها الزوج الذى تقر به عينها •

وبعد العشاء حاول الاب ان يقرأ قليلا ولكنه لم يستطع
الى ذلك سبيلا فازداد حنقا على حنق ، ولما دقت الساعة
العاشرة تناول عصاه، وهى عصا من البلوط رهيبه يستصحبها
دائما فى جولاته الليلية عند ذهابه لعيادة مريض • وتأمل
مبتسما هراوته الضخمة ولوح بها فى قبضة يده الشديدة
الاسر شأن أيدي أهل الريف ثم رفعها على حين فجأة
واهوى بها - وهو يصرف بأسنانه ويعض نواجذه - على
أحد المقاعد فانهار قعره المفلوق على أرض الغرفة •

وفتح الباب للخروج ولكنه وقف على الوصيد مبهوتا
مأخوذاً بالألاء القمرء يفيض فيضا قلما رأى الراؤون
مثله ••

ولما كان القس ذا نفس هائمة سابحة من النفوس اللواتى
كانت لا محالة لآباء الكنيسة الاولين أولئك الشعراء
الحالمين ، فقد ظل سارح الفكن مستغرق الحس فى غمرة
ذلك الجمال الرائع الساجى فى جنح هذى الليلة
الاضحيان ••

وكان كل شئ فى حديقته الصغيرة غارقا فى الضياء
اللين اللطيف ، وأشجار الفاكهة المصفوفة ترسم على أديم
المشى خيال أوصالها المتفرعة الدقيقة التى لا يكسر
عريها الا القليل من مخضوضر الورق • على حين تعبق
من النبات الباسق المتسلق على جدار بيته أنفاس زهرة
العسل لذيدة العبير حتى وكأنها فى حقيقة الواقع معسولة •
وهذه الأنفاس تهفو فى الليل القمر أشبه بروج عاطرة •

وجعل الاب يتنفس ملء صدره ويعب الهواء كما يعب
الخمر معاقرها المدمن . ومضى متمهلاً متريث الخطى
مسحوراً مدهوشاً وقد غابت ابنة اخته عن باله .

فلما صار فى وسط الحقول توقف يتأمل الوادى
المنبسط مغموراً بهذا السنى المترقق ، غارقاً فى هذا
الحس الرقيق الدنف الذى يأنسه السارى فى الليالى
الساجية . وكانت الضفادع تزجى فى الفضاء طوال الاناء
ترجيع نقيقتها المقتضب المعدنى ، والبلابل من بعيد تسلسل
مثل الجمان نغمها الرخيم البساعث الى سبيحة الحلم
دون جهد التفكير فتمزج موسيقاها - موسيقى القبل
النابطة الطروب - بلالاً هذه القمراء التى تسبى الالباب
وتتيم القلوب .

وأستأنف الاب المسير خائر القلب من غير ان يدرى
لذلك سبباً ، ثم أحس بفتة انه مضعضع القوة منهوك
وود لو يجلس ويطيل هنا مكثه وينعم النظر فيما حوله
ويسبح الله ويكبر له فى بديع صنعه .

وبدا هنالك صف من اشجار الحور الباذخة ينثنى
وينعرج متابعاً للجدول فى تعاريجه . وحول ضفاف
الجدول المرتفعة وفوقها ينعقد رباب لطيف ، بخار أبيض
تتخلله أشعة القمر وتفضضه وتجمله وضياء شعشعانيا .

وهذا الرباب الوضىء يلف مجرى النهر المتعرج بمثل
مندوف القطى الخفيف الشفيف .

فوقف القس مرة أخرى . لقد خامر نفسه فى أعماقها
حنو متزايد لا يغالب .

وغشيتة حيرة وقلق مبهم ، وأحس بأستفهام يخالجه من
قبيل تلك الاستفهامات التى يطرحها على نفسه فى كثير
من الأحيان .

فيم يصنع الله هذا ؟ وما دام الليل قد جعل للنوم ..
للسبات وفقدان الوعي .. للراحة للنسيان الشامل .. فما
الداعى الذى جعله أبدع من النهار رونقا وحسنا والطف
من الاسحار والأصائل، وما بال هذا الكوكب السارى الباهر
يطلع بطلعته الشاحبة فيكون أشجى شاعرية من الشمس
وكانما هو بضائه اللين الذى لا يفلو غلوها فى كشف
الاستار وفضح الأسرار مهيا للتجلية عن أشياء الطف مادة
وأدق معنى من أن يجلوها النور . ما بال هذا الكوكب
السارى يقشى الليل بضائه حتى تشف حنادسه ؟
ما بال أبرع الطير الصوادح انشادا وارخمها توقعا
لا تستجم ولا تهدأ كسائر الطير بل تنشئ تهزج وترنه
فى جنح الليل الساجى ؟ فيم اشتمل هذا الكون بشبه
نقاب فلا هو محجب ولا هو سافر ؟ قيم وجيب القلب
هذا الوجيب وانفعال النفس هذا الانفعال وتفتر الاوصال
وكلال الجسد هذا التفتر وهذا الكلال ؟

فيم اظهار هذه الكفائن التى لا يبصرها الناس اذ هم فى
مضاجعهم راقدون ؟ ولن هذا المشهد الجليل ، هذا الفيض
الشعرى تفدقه السماء على الأرض ؟

لم يدرك الاب لذلك سببا
واذا هناك فى أطراف المرج تحت قباب الشجر المبلل
بالرباب الوضى ، خيالان مترائيان يسيران جنبا الى جنب .

الرجل أطول قامة وهو يمشى صاحته مطوقا جيدها
ويلثم من حين لآخر جبينها ، وقد انبعثت الحياة فجأة
منهما فى هذا المنظر الجامد المائل الذى يحيط بهما كأطار
سماوى صيغ لهما . وكانما هما معا كائن واحد ، الكائن
الذى أخصته القدرة بهذه الليلة الهادئة الساكنة . وكانا
مقبلين من بعيد صوب القس كأنهما جواب حى ، الجواب

الذى ارسله المولى على سؤاله .

ولبت القس واقفا خافق القلب مخبولا ، وخيل اليه انه يرى صفحة من التوراة ، شيئا أشبه بغرام راعوث وبوعز ، آية من آيات المشيئة الالهية بين معالم مشهد رائع من تلك المشاهد التى تتحدث عنها الاسفار المقدسة . وطفقت تدوى فى رأسه ترانيم من نشيد الانشاد بما فيه من هتافات الشوق ودواعى الحس وكل حرارة الشعر فى تلك القصيدة الملهبة محبة وعطفا .

عند ذلك قال فى نفسه : « لعل الله خلق هذه الليالى ليسبغ أزوع الاستار على حب البشر » .

ونكص على أعقابه امام هذين الالفين المتعاقبين وهما يتمشيان ..

ولكن ، أليست هذه ربييته ابنة اخته ؟ بلى ولكنه قد راجع نفسه الآن فيما جاء من أجله تسليما لمشيئة الله ، أفيحرم الله الحب التحريم كله وهو يحوطه ميانا بمثل هذا البهاء المبين ؟

ومضى القس مدبرا مشدوها يكاد يتعثر من الخجل كأنما اقتحم هيكلا لا يحق له دخول حرمة .

الجد الهندي

« لجى دى موباسان »

التقى المسيو « لنتان » بهذه الفتاة فى احدى الليالى بمنزله وكيل المكتب فاذا هو متميم بهما كالكئيص فى الشرك استحكمت عليه حلقاته واجتمعت اطرافه .

وكانت الفتاة ابنة جاب من جياة الضرائب فى الارياف قضى نحبها من سنوات عدة . فقدمت بها امها الى باريس ، وكانت تتردد على بعض الاسر من اهل الطبقة الوسطى فى الحى على امل ان تزوج الفتاة . وكانت بحال رقيقة ولكنهما من ذوات الشرف والوداعة ولين المريكة . وكانت الفتاة مثالا للمرأة الفاضلة التى يتمنها الفتى العاقل لتكون الفتاة الامينة على حياته . جمالها الخفر فيه معنى من طهر الملائكة ، وابتسامتها الخفية التى لا تفارق شفيتها كأنها ظل يعكس نقاء سريرتها .

فالناس على اختلافهم السنة تلجج باطرائها جميعهم لا يفرغون من تكرار قولهم « سعيد من يتخذها زوجا . هيهات يوجد خير منها . »

وكان المسيو لنتان وقتئذ كاتب اول فى وزارة الداخلية يتقاضى مرتبا قدره ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك فى السنة فخطبها وتزوجها .

ولقد هنئ الرجل بعشرتها هناء فوق التصديق وكانت تدبر شئون بيته حتى لتحسبهما لحسن التدبير من أهل ،

الترف . وكانت لا تدع لوان من الوان الرعاية والرقه والتجيب الا احاطت به زوجها ويبلغ من فتنتها انه كان بعد ستة أعوام طوال من لقائهما أشد لها حبا ، وبها شغفا منه في الأيام الاولى .

وهو لا يأخذ عليها غير أمرين ، ولعها بالمسارح ، وكلفها باقتناء الجواهر الكاذبة . وكانت صواحباها - من نساء الموظفين متوسطى الحال - يوالينها في كل حين بالمقاصير في الروايات التمثيلية ذات الرواج والشهرة ، بل في الليالى الافتتاحية من تمثيلها . وكانت تجر زوجها راضيا أو كارها الى هذه الملاهى فيعيا بها أشد الاعياء بعد عمله طوال اليوم . ولقد رجاها وألحف في الرجاء ان تعفيه ، وتذهب الى التمثيل في صحبة سيدة من معارفها تعود بها بسده ، فتمنعت ، وطال تمنعها ، لما تجد في هذا التصرف من قلة اللياقة . وأخيرا قبلت مرضاة له فحمد لها ذلك كل الحمد .

وهذا الولع بالمرح سرعان ما أشعرها الحاجة الى الزينة ، فلم تعد بها حاجة الى البساطة . حقيقة انها كانت دائما آية على حسن الذوق ولطافة الحس الا انها بعد زينة متواضعة . ومع هذا فان حسنها الحلو ، حسننها الصبيح المستكين الذى لا يغال ، كان كأنما يكتسب من بساطة ثيابها طعما جديدا ووقعا مستظرفا . ولكنها الى هذا تعودت ان تقرط اذنيها بحجرين متلائين يشاكلان الماس ، وأن تتخذ قلادة من اللؤلؤ المكذوب وأساور من ذهب مموه وأمشاطا محلاة بضروب من الخز معمل شذور الجواهر .

وكان زوجها ينكر بعض الشيء هذا الولع منها بالبهرج ، ويكرر عليها القول :

« يا عزيزتى ، اذا لم تملك الفانيات اقتناء الجواهر الحقيقية ، فحسبها ان تبدو حالية بجمالها وصباحتها ، وانها لانفس الحلى » .
فكانت تبسم ابتسامة حلوة وتقول :

— ماذا تريد ؟ انى احب هذا ، وهذا عيبى . انك على الحق وما فى ذلك عندى ادنى ريب . ولكن المرء لا يخلق نفسه خلقا آخر . اترانى كنت أعبد الحلى ، أنا ؟
فيهتف الزوج باسمها :

« ان لك ذوق نساء النور »

وفى بعض الاحايين ، وهما وحيدان فى المساء الى جانب المصطفى ، تقوم فتاتى الى المائدة التى يتناولان عليها الشاى بعلبة الادم المديوغ التى اودعتها « الخردة » على حد تعبير زوجها ، وتقبل على هذه الحلى المقلدة تمعن فيها النظر بهيام كأنها تتملى منها بمتعة روحية عميقة ثم كانت تصر على ان تجعل فى عنق زوجها عقدا من هذه العقود ، وتضحك ملء فيها وبقلبها اجمع وهى تقول :

« انك لمضحك حقا ! » ثم ترمى بين ذراعيه وتقبله فى فتون ووله .

وفى ذات ليلة من لىالى الشتاء كانت فى الاوبرا وعادت ترتعد من البرد . واصبحت فى اليوم التالى تسعل ، ولم تمض ايام ثمانية حتى كانت قد اشتدت بها النزلة الصدرية وعاجلتها المنية .

وكاد لنتان يلحقها الى القبر وبلغ من يأسه ان علاه الشيب فى مدى شهر واحد . فهو يبكى صباح مساء ، ونفسه الجريحة يمزقها ألم لا يطاق ولا يستطيع الصبر عليه ، رهين الوجد نجى البلبال ، لا تبرح تساوره الذكرى وتمثل له من الفقيذة الابتسامة والصوت والحسن

الغلاب . ولم يخفف تطاول الايام من لوعته ، فكثيرا ما تراه في مكتب عمله وقد اقبل زملاؤه يسمرون سمرهم في شئون يومهم فاذا به قد انتفخ شدقاه وتقلص انفه وتغرقرت عيناه بشبابيب مائهما وانقلبت سحنته انقلابا فظيما واكب ناشجا منتحبا .

ولقد ابقى مخدع قرينته على حاله يختلى فيه بنفسه كل يوم ليدكرها ويفكر فيها . فكانت اثاث مخدعها وثيابها جميعا في مواضعها كما خلفتها آخر يوم من حياتها ثم ان الحياة شقت عليه وتصببت فهذا راتبه الذي كان بين يدي زوجته يسد حاجاته البيت كافة قد بات لا يكفيه اليوم وحده فهو يسائل نفسه مبهوتا كيف استطاعت بتصرفها ان توفر له دائما شرب جيد الخمر وتناول شهى الطعام مما يعيبه بموارده المتواضعة ان يحصل اليوم عليه . فاستدان وسعى وراء المال سعى المحاييج تضطرحهم الحال الى الاحتيال له بشتى الوسائل . واخيرا اصبح ذات يوم فالقى نفسه صفر اليدين قبل نهاية الشهر بأسبوع كامل فدار في خلده ان يبيع بعض ما عنده ، وسرعان ما خطر له التخلص من « الخردة » التي كانت لامرأته فانه ليضممر في قرارة نفسه شبه ضفينة على هذه البهارج « خدعة الابصار » ولا جرم فهي موضع ملاحظته من قبل ومثار انكاره . ان مجرد رؤيتها كل يوم ليفسد عليه بعض الافساد ذكرى زوجته الحبيبة

وقلب نظره طويلا في هذه الكومة من الحلى البراقة التي خلفتها — فانها ما برحت الى اواخر ايامها ماضية على اقتنائها سادرة ، تجيء كل يوم بتحفة منها جديدة — ووقع اختياره على العقد الكبير الذي كانت تستحبه وتؤثره على غيره وهو يعدل بحسب تقديره ستة فرنكات او ثمانية

لكونه ادق صنعة من المعهود فى أمثاله من زائف الحلى
فأودعه جيبه ومضى الى وزارته يسلك آليها الشوارع
الكبرى ملتصقا حانوت جوهري يطمئن اليه .

وأخيرا وقع بصره على الجانوت المنشود فدخله خجلان
يتعثر لاضطراره الى عرض فقره وسوء حاله ساعيا الى
بيع كهذا خسيس القيمة وقال للتاجر :
« سيدى أود أن أعرف ما تقدره لهذه القطعة »

فتناول الرجل القطعة وفحصها وقلبها ووزنها بكفه
وعمد الى المجهر ، ودعا اليه كاتب حساباته وأسر اليه بعض
الكلمات . ثم وضع العقد على دكته ورمقه من بعيد لينظر
الى وقعته وتأثيره

وضاق المسيو لنتان بهذه الرسميات وفتح فاه ليقول :
« أوه انى لاعلم حق العلم أنه شىء لاقيمة له » لولا أن
سبقه الجوهري الى الكلام :

« سيدى هذا يساوى بين الاثنى عشر الفى الى
الخمس عشرة الفا من الفرنكات وأنا لايسعنى شراؤه حتى
تحيطنى علما بمصدره »

فحملق الارمل بعينيه وظل فافرا فاه لا يعقل شيئا
وأخيرا نبس مغفما :

« ماذا تقول ؟ .. أوائق أنت »

وحمل الرجل اندهاشه على غير محمله وقال فى لهجة
جافة :

« يمكنك ان تتحرى فى محل آخر ان كانوا يزيئونك
فيه ، أما عندى فيساوى خمسة عشر الفا على أكثر تقدير
فاذا لم تجد خيرا من هذا الثمن فعادنى »

واستبرد المسيو لنتان العقد فى بلاهة وخيال وانصرف
مدفوعا بحاجة مبهمة الى الخلوة بنفسه والتفكير . بيد أنه

مابلغ الطريق العام حتى كان يأخذه الضحك ، واخذ يحدث نفسه : ياله من مففل ، أوه ياله من مففل، ليتنى مع هذا أخذته بكلمته . هاكم جوهر يا لا يعرف الزائف من الصحيح . »

ودخل عند تاجر آخر فى أول شارع دى لاييه فما كاد يقع نظر الصائغ على الحلية حتى هتف :
« آه وايم الله انى لاعرف حق المعرفة هذا العقد انه من عندى »

فقال مسيو لنتان وهو شديد الارتباك: « كم يساوى؟ »
« سيدى لقد بعته بخمسة وعشرين ألفا وانى على استعداد لاخذه بثمانية عشر الفا اذا تفضلت - عمسلا بالتعليمات الرسمية - فدللتنى كيف صار اليك »

وفى هذه المرة تساقط مسيو لنتان على المقعد كمن اقعدته الدهشة وتمتم : « ولكن .. ولكن .. امعن النظر جيدا ياسيدى كنت حتى الساعة أحسبه مصطنعا »
فقال الجوهرى : « انتكرم ياسيدى بلذكر اسمك ؟ »
- « أجل اسمى لنتان وأنا موظف بوزارة الداخلية وقاطن فى المنزل رقم ١٦ شارع الشهداء »

وفتح التاجر دفاتره وقلب فيها ثم صدع بالقول :
« هذا العقد ارسل حقيقة الى عنوان مدام لنتان رقم ١٦ شارع الشهداء فى العشرين من يوليو سنة ١٨٧٦ »
وحقق الرجلان كل فى عينى صاحبه ، وقد طار لب الموظف من الدهش واستوحش التاجر من ناحيته وتوسم فيه لصا وقال :

« هلا تكومت بترك هذا الشيء اربعا وعشرين سامة لا اكثر وأنا معطيك عنه ايصالا »

فتمتم المسيو لنتان : « أى نعم يقينا »
وخرج وهو يطوى ورقة الايصال ، يضعها فى جيبه
ثم عبر الشارع وأصعد فيه ثم أدرك أنه ضل الطريق
فأنحدر الى التويلرى وجاز السين ثم أدرك مرة أخرى
ضلاله فعاد الى الشانزلريه وليس فى رأسه فكرة
جلية ، وحاول أن يتعقل ويفهم أن امراته ماكانت لتقدر
على شراء شيء ذى قيمة كهذا .. كلا ، كلا ، إذن فهذا
هدية . هدية .. هدية ممن ؟ ولماذا ؟

وتوقف الرجل وظل واقفا وسط الطريق وطاف به
الشك الفظيع - هى ؟ - وأذن فسائر الجواهر الأخرى
كانت أيضا هدايا . وخيل اليه أن الأرض تميد تحت قدميه
وأن شجرة تهوى أمامه ، فمد ذراعيه وارتمى فاقد الحس
واستفاق من غشيته فى صيدلية حمله اليها بعض
السابلة فاستقل عربة وأوى الى منزله

وجن الليل وهو يبكي بكاء الواله وبعض منديله حتى
لا يسمع نشيجه ، ثم أوى الى الفراش مرهقا من التعب
والحزن ونام نوما ثقيلا

وايقظه شعاع الشمس فقام فى ثاقل ليمضى الى
وزارته . بيد أنه يشق على المرء العمل بعد رجاء عينيته
كهذه . فجزى فى خلده أن فى مكانه الاعتذار لى رئيسه
فكتب اليه . ثم تمثل له أن لابد من العودة الى الجوهري
فاستخزى وعلته حمرة الخجل وطالبه التفكير . لا يمكن
بحال أن يدع العقد عند الرجل . فارندى ثيابه وخرج

وكان اليوم صحوا رائقا والسماء الصافية ممدود
رواقها على المدينة فاذا هى من البهجة كمن ينهش
ويبتسم . والمتنزهون من ذوى الفراغ ماضون سهلا
وأيديهم فى جيوبهم .

وحدث لنتان نفسه وهو يلحظهم يعبرون : « ما ساعد
المرء ذى الفنى والثراء .. آه ليتنى كنت غنيا ! »
وأحس بالجوع . انه لم يذق طعاما الليلة البارحة ..
ولكنه مفلس خالى الوفاض . فتذكر العقد . ثمانية عشر
الف فرنك انه لمبلغ واى مبلغ

فصار الى شارع السلام وجعل يدرع الافريز طولا
وعرضاً تجاه الحانوت . ثمانية عشرة ألف فرنك . وهم
بالدخول عشرين مرة فكان الخجل يمنعه

ولكنه كان جوعان جد جوعان ولا فلس معه
وحالما أبصره التاجر ، قدم له فى أدب مقعدا وهو
يهش فى وجهه واقبل كتابة المحل أنفسهم يلحظونه
ومظاهر السرور فى عيونهم وشفاهم ..

وقال الجوهري : « سيدى لقد استعلمت ، فاذا كنت
على عزمك فانى على استعداد لدفع القيمة التى عرضتها
عليك »

فغمغم الزوج : « أجل » ..
أخرج الصائغ من أحد الادراج ثمانى عشرة ورقة كبيرة
وعدها ومد يده بها الى لنتان فامضى بها ايضالا صغيرا
وأودع المال فى جيبه بيد مرتجفة
وحين هم بالانصراف التفت الى التاجر الدائم الابتسام
وتعمت خافض الصوت :

— « عندى جواهر اخرى .. جاءت .. عن طريق
الميراث نفسه فهل يوافقك أن تشتريها منى كذلك ؟ »

فانحنى التاجر وقال : « نعم ياسيدى »

وأخرج احد الكتبة ليضحك ماشاء إن يضحك وأخذ
آخر يسعل متعسفا اما لنتان فقال محمر الوجه متجلدا
متوقفا : « سأتيك بها »

واستقل مركبة ومضى فى طلب الحلى . وبعد سماعه عاد الى التاجر ولم يتناول بعد طعام فطوره وطفقا يفحصان الاشياء قطعة قطعة ويسومان كل واحدة وكان معظمها من المحل . .

وأخذ لنتان يساوم فى الاثمان ويتغضب ويطلب الاطلاع على دفاتر البيع وكان صوته يتعالى كلما ارتفع السعر .

فأقراط الماس الكبار بعشرين ألف فرنك ، والاساور بخمسة وثلاثين ألفا ، والمشابك والخواتم والانواط بستة عشر ألفا ، وحلية من الزمرد والياقوت الازرق بأربعة عشر ألفا ، وفريدة من يتائم الدر منوطة بسلسلة ذهبية بأربعين ألفا . وتبلغ الجملة مائة وستة وثمانين ألف فرنك

وهنا قال التاجر فى بساطة ساخرة :

« هذا تراث من اودع فى المجوهرات كل ما اقتصد من مال » فرد لنتان فى وقار :

« ان هى الا وسيلة كغيرها من وجوه توظيف المال »

ثم انصرف بعد أن استقر رأيه مع الشارى على اجراء مراجعة أخرى من آل الخبرة فى القدر

فلما ان صار فى الطريق العام نظر الى عمود الفنڊوم وفى نفسه أن يتسلقه كأنه لعبة الصارى . والتفت فهفت نفسه الى أن يلعب القفر فوق تمثال الامبراطور القائم هناك فى الفضاء .

ومضى فتناول الغداء فى مطعم فوزان وشرب خمرا من التى ثمن زجاجتها عشرون فرنكا

ثم استقل عربة وطاف فى غاب بولونيا وكان يرمى المركبات ومن فيها بشيء من الزراية والاستخفاف وبه شوق جامع مستبد الى أن يهتف فى الرواد : « انا أيضا

غنى ، أنا غنى ، انى أملك مائتى ألف فرنك ! »
ثم تذكر الوزارة فأشار للسائق أن يقصدها وعمد الى
الرئيس معلنا :
« لقد أتيت يا سيدى مقدا اليك استقالتى لقد
ورثت ثلثمائة ألف فرنك »

ومضى يصافح زملاءه السابقين ويفضى اليهم بما انتواه
من حياة جديدة ، ثم تناول العشاء فى المقهى الانجليزى
وهنالقى نفسه الى جانب سيد استوجهه فحكّت
فى نفسه رغبة ملحّة غلاية فاذا هو يفضى اليه فى دالة
وخيلاء أنه ورث اربعمائة ألف فرنك . .

وللمرة الاولى فى حياته لم تسام نفسه المسرح وقضى
ليلته مع بنات الهوى

وبعد شهر ستة تزوج وكانت زوجته الثانية من الحرائر
جد شريفة ولكنها كانت عسرة الخلق فلقي معها عنثاشديدا

العصا ضد "حياة كلب"

((ل : ليونيد أندرييف))

ليس له صاحب ينتمى اليه ولا اسم يسمى به ولا يندى احد فى القرية اين يقضى الشتاء الطويل المتساقط الصقيع ولا كيف يجد قوته

وكانت كلاب المنازل تطرده من اكواخها الدافئة ، وهى وان تكن مثله جائعة الا انها معتزة شديدة البأس عليه لشعورها بالانتساب الى بيت من البيوت . واذا هوطلع الى قارعة الطريق العام بدافع من سعار الجوع او حاجة الطبع الى العاشرة رجمه الضبيان بالحجارة وناوشوه بالعصى واعترضه الفتيان بالزياط والتهليل او بالصغير الحاد بصك الأذان ، فينصلت يمرق من ناحية الى اخرى مضطرب الحواس من وهلة وذعر متعثرا بالاسوار وأرجل السابلة ويعدو مسرعا حتى اخر الطريق ، فيختبئ فى موضع لا يعرفه سواه . وهنا يلحق أعضاء المرضوضة وجراحة ويحشد فى وحدته الهول والضعينة فى نفسه

لم يحدث قط أن احدا رثى له ومسح عليه غير مرة واحدة . وكان الماسح المشفق فلاحا ملمنا عائدا من الحانة وهو وقتئذ جائش العاطفة كمادة السكرى يحب كل الاشياء ويشفق على كل الاحياء ويغمغم كلاما عن أهل الخير ، ومبلغ ايمانه بأهل الخير ، ولقد أخذته الشفقة حتى على هذا الكلب المستقبح القدر الذى اتفق ان وقعت عليه

عينه السكرى التى تعشو الى غير وجهة وتتطلع من غير قصد . وناداه «يا كليب» وهو اسم يصح اطلاقه على عامة الكلاب - « يا كليب تعال لا تخف »

وكان كليب شديد الرغبة فى ان يقبل عليه فجعل يصبص بذنبه ولكنه كان حائرا فى أمره لا يستطيع أمضاء نية والاجماع على عزم . وربت الفلاح بيده على ركبته وردد يطمئنه :

« هلم ، وبعد يا أبله ، والله لست بمؤذيك .»

وبينما الكلب المتردد يرعى ذنبه ارجاسا انشط حركة ومراحا ويقتررب بخطوات متسجبة قصيرة ، اذا السكران قد تفسر خاطره وتبدل مزاجه . لقد ذكر السامة كل الشتم والهوان الذى ناله « من أهل الخير » فهاج هاجه وثار به ضغينة بليدة ، فلما ان استلقى كليب عند قدميه متحببا متمرغا رفسه فى جنبه بمقدم حذائه رفسة المفلول وصاح به :

« اليك عنى يا قلدر . فيم أنت آت ! »

وراح الكلب يشدهشة وخزيا ، أكثر منه ألما من الضرب ، ومضي السكران يترنح الى داره فأشبع زوجته ضربا مبرحا ومزق مندبلا للعنق جديدا كان اشتراه لها هدية فى الاسبوع الفابر .

منذ ذلك الحين لم يعد الطلب يطمئن الى نية الراغبين فى ملاطفته والمسح عليه . فهو اما واضح ذيله بين ساقيه او هو متهيج فى بعض الأحيان حرد يتهجم عليهم محاولا عقرهم حتى يفلحوا فى طرده رميا بالحجارة وتكويح بابا العصي ولقد انتبد لنفسه مسكنا فى هذا الشتاء تحت شرفة واسعة من دار غير مسكونة لا حارس عليها يتعدها ، فتولى هو حراستها بغير اجر . وكان اذا جن الليل هام فى

الطرقات يركض وينبح حتى يبح صوته . ثم لا يزال
بعد ان يأوى الى مثواه ويبحث فى عقره يزمجر ويزمجر
برهة غير قصيرة ، زمجرة المحنق الفاضب ، الا ان وراء غضبه
هذا يبين شئ من الرضى عن النفس بل الاعتزاز بالنفس
ودلفت ليالى الشتاء بطيئة والدار خاوية ونوافلها
المظلمة شاخصة فى عبوس الى الحديقة الهامدة المسجاة
بالثلوج وفى هذه النوافل كانت تشب أحيانا أنوار زرقاء
وأحيانا أخرى كان ينعكس على الواحها شهاب ساقط
أو يلقي عليها هلال السماء الأعجف شعاعه المتسلل المتعثر
وأقبل الربيع وأصبحت الدار الخالية الصامتة متجاوبة
الاصداء بالكلام الصاحب وقعقة العجلات ودبابة أناس
ينقلون أشياء ثقيلة . لقد قدم أصحاب الدار من المدينة ،
وهم رهط بأجمعه من المحبورين المقاربح من شتى الأعمار
مكتملين ومحتلمين وصبية . وكلهم ثمل بالهواء والدفع
والنور فالبعض هاتف متصايح ، والبعض رافع عقيرته بالغناء
والبعض مستضحك بنغمته النسوية الرخيمة

وتعرف الكلب أول ما تعرف الى غادة مليحة انحدرت
الى الحديقة فى ثوب قرنفل من ثياب الطالبات منسجم
الهندام ، وهى تائقة فى لهف وشغف الى ضم كل ما تراه
واحتضانه . وكانت ترمق بمجامع نظرها السماء الصافية
وافنان الكرز المشربة بالأحمرار . وسرعان ما استلقت
على الحشائش ووجهها الى الشمس المتقدة . ثم عادت
فنهضت بغتة مثلما رقدت واهتزت ارتياحا وطربا ،
وقبلت بشفتيها النديتين نسيم الربيع . وقالت ، وهى
جادة تعنى كل حرف مما تقول :

« يا لله ! أنه لشئ بهيج »

قالت ذلك ثم أدارت ظهرها فجأة . وفى هذه اللحظة

كان الكلب قد اقترب منها من غير أن يحدث حسا ،
وانشعب للحال أنيابه في ذيل ثوبها المرسل مهتاجا فمزقه ،
ثم غاب من غير حس كذلك في ادغال الاعناب الكثيفة المتهدلة

فصرخت الفتاة : « آه ، بثس الكلب ! » وولت من
الحديقة وظل صوتها المضطرب فترة طويلة يسمع وهى
تردد : « يا أماه ! يا اولاد لا تذهبوا الى الحديقة : ان
فيها كلبا ، واى كلب ! هائل من الكلاب مفترس ! »

ولما ان دجا الليل تسلل الكلب الى الدار وقد نام
أهلها . وأوى دون أن يسمع له أحد ركزا الى مرقده
تحت الشرفة الواسعة ، وباتت الدار - بعد ان كانت
مهجورة صفصفا - يستروح منها المستروح وجود
الناس ، ويسرى مع النسيم من نوافلها المفتوحة ترديد
انفاسهم فى الرقاد ، هادئة رقيقة ، هؤلاء هم القوم نيام
لا حول لهم ولا قدرة ، وقد خرجوا عما كان لهم من
بطش وسطوة ، وهذا الكلب هنالك . . وقد أقام عليهم
من نفسه بالليل حارسا شديدا الفيرة ، فكان ينام واحدى
عينيه صاحبة ، وكلما اختلج فى الشجر خفيف أطل
برأسه وعيناه شاخصتان لا تطرفان وفيهما بريق
فسفورى . وكانت الاصدااء المثيرة للمخاوف كثيرة فى هذه
الليلة الجياشة الحساسة من ليلالى الربيع . فهنا
خشخش فى الحشائش شيء صغير غير منظور ، وهنا
على مقربة من أنف الكلب اللامع . وهناك تقصفت بعض
الافئان الجافة من العام الغابر تحت اقدام الطيور
المهومة . وفى الطريق المجاور تدرج عربة ثم تصرصر
عجلات نقل مثقلة موقرة . ولقد تضوع من كل فج فى
الهواء الساجى شذا صمغ الصنوبر أرجا منعشا يستهوى
السارى الى الايفال فى جنح هذا الليل الاضحيان

وكان أصحاب الدار القادمون ، من أهل المعروف والخير ، فكيف بهم الآن وهم عن المدن بعيدون ينشقون نقي الهواء ، وحيثما ولوا بصرهم يبصرون خضرة ناضرة وزرقة صافية وأمانا شاملا . يدب فيهم شعاع الشمس دفئا وحرارة ، ثم يصدر عنهم مرحا واريحية وعطفا على كل شيء حى . ولقد أرادوا فى بادئ الأمر طرد الكلب خشية أذاه ، بل أطلقوا النار عليه من مسدس حين عيل صبرهم وضاق ذرعهم به وهو مصر على البقاء يأبى النزوح . غير أنهم بعد ذلك ألفوا نباحه فى الليل . بل انقلبوا يذكرونه فى الصباح أحيانا متسائلين « ولكن ، أين صاحبنا العضاض ؟ »

ولصق به هذا القلب الجديد وصارت تقع أبصارهم فى بعض الأحيان حتى بالنهار بين الشجيرات المتواشجة على خياله المتوارى ، ولكنه سرعان ما كان ينبطح على الأرض إذا ما بدت حركة من يد أحدهم يرمى إليه بكسرة من الخبز - كأنها حجر يرمى به لا خبز - ولم يعتم القوم أن ألفوا العضاض كبيرهم وصغيرهم ، وصاروا يلقبونه « كلبنا » ويتفكهون بالنوادر يرتجلونها عن سبب أجهاله وخوفه من غير ما موجب . على أن العضاض أخذ يقتضب كل يوم خطوة بعد خطوة من الشقة التى تباعد بينه وبينهم ، وقد أنس الى مطالع وجوههم واصطنع عاداتهم . فكان إذا أزفت ساعة الغداء شوهد واقفا بين الشجيرات بطرف بجفنيه وعليه سيماء المسالة وأسماح . وكانت الفتاة التلميذة هى نفسها التى سكنت من روع الكلب وطامت من نفوره متناسية سابق عدوانه ، وهى التى أدخلته آخر الأمر فى هذا الوسط السعيد بين قومها الوادعين الطروبين . .

فكانت تناديه : « تعال هنا ، يا عضاض ، إليها الكلب

الطيب ، تعال . أنتحب السكر ؟ انى معطيتك قطعة .
هلم اذن »

وكان العضاض محجبا عن التقدم . هو خائف
يتوجس . فتربت الفتاة على ركبتيها ، وتدنو من الكلب
وهى تناغيه بكل ما فى الصوت الحلو والوجه المليح من
حنان ولطف . على انها هى ايضا كانت خائفة . ولقد هم
الكلب بالعض فجأة ، ولكنها لم تكن تكف عن مناداته
وتأنيسه :

« انى بك جد مشغوفة يا عضاض ، يا عزيزى ما ابدع
انفك الصغير ، وما ابلغ معنى عينيك ، الا تظمن الى ،
يا جنس العضاضين ؟ »

ورفعت « ليليا » حاجبيها . وكان انفها الدقيق غاية
فى الحسن وعيناها غاية فى حلاوة المعنى ، حتى لقد
انصفت الشمس اذ اكبت على وجهها الصغير الغض
الغزير المحاسن تغشاه بالقبل الحرار حتى توهجت وجنتاها
واستلقى العضاض على ظهره للمرة الثانية فى حياته
وأطبق جفنيه وهو لا يدرى على وجه التحقيق ان كان
نصيبه زكوة زاجرة أو مسحة عاطفة ملاطفة . ولكن
المسح كان فى هذه المرة نصيبه . فان كفنه رخصتين
صغيرتين لمستا فى حذر وتردد هامته الكثيفة الوبر .
وكانما كان هذا ايدانا بما أصبح لها عليه من سلطان
غير منكور ، فهى قد مضت تجرى راحتها فى طلاقة
واجترأ على سائر جسمه الاشعر دعكا ومسحا وتجميشا
وصاحت ليليا : « يا اماء ، يا اولاد ، تعالوا انظروا ،
هأنلى امسح بيدى على العضاض »

واقبل الاولاد راكضين ، متصايحين ، عالية اصواتهم ،
وهم فى توفزهم ولائهم كأنهم قطرات الزئبق الرجراج .

فقبع العضاض مكانه في خشية المدعور وانتظار المستسلم،
علما منه بأنه لو ضربه أحدهم الآن لما استطاع وهو على
هذه الحال أن ينشب في لحم المسء أنيابه المظرورة ، لقد
استلت الفتاة غله المشبوب الدفين . ولما أن جعلوا اجمعين
يتسابقون الى مداعبته وملاطفته ، لبث زمنا لا يتمالك
نفسه من الانتفاض لكل لمسة من أكف ملاطفه ، ويجد
لهذا التجميش الذي لم يسبق له به عهد مسا موجعا
كانه وقع الضرب



وانبسطت من « العضاض » نفسه الكلية كلها . فقد
أصبح له الآن اسم يقبل عند سماعه مندفا من أقصى
خمائل الحديقة . وهو الآن ينتمى الى ناس ويقوم على
خلمتهم . وماذا يحتاجه الكلب أكثر من هذا ليكون سعيدا !
وكان قد تعود القصد والقناعة بما أخذته به سنوات
الجوع والتشرد ، فهو بعد قليل الأكل ، ولكن هذا القليل
أبدله حتى لتتعدر معرفته على عارفيه . فهذا رداء فروته
سابع طويل ، وقد كان من قبل خصلات كزة متهدلة كشعر
الثعلب على ظهره وفوق بطنه . وكانت على الدوام يعلوها
الطين فأصبحت اليوم نظيفة ملساء كالقטיפه . ثم هو
اليوم اذا هرول الى الباب الكبير — ولم يكن له ما يفعل
خيرا من هذا — فوقف هنال بالوصيد متطلعا يصعد نظره
الى الطريق ويصوبه وعليه سيماء الوقار ، لم يقم بخاطر
أحد أن يعاكسه أو يحضبه بحجر ..

ولكن هذا الاعتزاز وهذه الدعة كان لا يتملى بهما الا
فيما بينه وبين نفسه . وذلك ان خوفه لما يتبخر كله
من حرارة الملاطفة . فكلما طلع أناس أو دنوا منه اختفى
متوقعا منهم الضرب والأذى . وما برحت بعد طول المدة

تقع عنده كل ملاطفة موقع المفاجأة والعجب بحيث لا يستطيع فهمها ولا مجاوبتها ، انه لا يدري كيف يتلقى الملاطفة . ان غيره من الكلاب ليقف على رجله الخلفيتين ويتمشى قائما ، بل ويتنسم مترجما بذلك عن مشاعره ، أما هو فلا يدري الى ذلك سبيلا

والشئ الوحيد الذى يستطيعه « العضاض » هو ان يتقلب على ظهره ويطبق جفنيه ويسمع له هرير رفيق . غير ان هذا لم يكن كافيا . . انه لا يقى بالاعراب عن ابتهاجه وشكره ومحبته . فاذا به يصنع شيئا كأنه الهاملقى عليه وفتح به عليه ، ولعله رأى بعض الكلاب تصنعه ثم نسيه منذ ذلك الحين . فكان يثب منقلبا فى الهواء المرة بعد الاخرى فى سخافة وربكة ، أو هو يدور وراء ذيله . ولم يكن جسمه كالعهد به على الدوام ناشط الحركة لين الاعطاف ، فلقد أصبح أخشب متيبس الاوصال وصار لعبه مثارا للضحك ومدعاة للزراية

فلا غرو تهتف ليليا وهى تشهق بالضحك :
« يا أماه ! يا أولاد ! انظروا ، العضاض يلعب لعب المسارح . هيه يا عضاض ! أعد مرة أخرى ومرة أخرى . هوذلك فيجتمعون حوله يضحكون . والعضاض دائب على دورانه وراء ذيله ، وعلى انقلابه فى الهواء ووقوعه . والكل لاهون لا يلتفتون الى ما فى عينيه من توسل عجيب . لقد كانوا من قبل يصيحون به ويزعقون لينظروا قرفه وخرفه اليائس ، وهم اليوم يلاطفونه متعمدين ليثيروا فيه فورة الحب المضحكة فى مظاهرها السخية الخرقاء . وما كانت تضى ساعة الا ويهتف أحد الفتيان :

« والآن يا عزيزى العضاض ، لعب لعب المسارح »
فيتلوى العضاض حول نفسه ويثب منقلبا فى الهواء

ويقع بين الطرب والضحك الذى لا يفالب . وكانوا
يمتدحونه فى وجهه ومن وراء ظهره ولا يأسفون الا على
شيء واحد ، وهو انه لا يعرض الاعيبة على الغرباء القادمين
لزيارة اهل المنزل ، بل ينفلت لفوره الى الحديقة
ويختبئ تحت الشرفة

ولم يلبث الغضاض ان تعود شيئا فشيئا ان يعفى
نفسه من تكلف الطلب لطعامه ، اذ كان الطباخ يوافيه فى
الوقت المقرر بالفضلات والعظام وهو راقد فى دعة
وطمأنينة فى مكانه تحت الشرفة . بل كان القوم هم
الذين ينشدونه ويسعون اليه لكى يلاطفوه . ولقد اكتنز
لحمه وثقل ، فلم يكن يبرح الدار الا فى القليل النادر .
وكان اذا دتمه الصبية للذهاب معهم الى الغابة يرعص
بذيله مراوفاً ويغيب عن العيان ، فاما نباحه فى الليل فقد
ظل كعهده يقظاً جهيراً

وأخذ الخريف يشيع فى الشجر الوانه المشبوبة
المصفرة ، وطفقت السماء تبكى بوابل منهمر . فاذا
المراجع تقفز من الناس وتهمد حركتها كأنها الشموع الح
عليها القطر الهائل والريح الهوجاء فأخمدتها الواحدة
بعد الأخرى ..

وتساءلت ليليا حائرة : « ماذا نحن صانعون
بالغضاض » . وكانت جالسة وذراعاها معقودتان حول
ركبتها تتطلع الى خارج النافذة حزينة والمطر يسج
ملتصع القطر ..

فقال أمها : « آية جلسة تجلسينها يا ليليا ! ما هكذا
يكون الجلوس » ثم أردفت : « لا مندوحة من ترك
الغضاض . مسكين ! »

فقالت ليليا في بطنه واناة : « شيء ... يؤسف له »
وراجعتها الام : « ولكن ما العمل ؟ لا فناء في دارنا
بالمدينة . وبقاؤه في داخلها غير ممكن . هذا الامر يجب
ان تفهميه جيدا »

فردت ليليا وهى تكاد تجهش بالبكاء : « انه شيء ...
يؤسف له . واخسارته ! » ثم ارتفع حاجباها الفاحمان
كأنهما جناحا غداف ، وتقلص أنفها الصغير اللطيف بهيئة
اسيفة ، حين قالت أمها مواسية :

« لقد عرض على الكلابون جروا منذ حين ، وهم
يقولون انه أصيل ألوف للبيوت ٠٠ أفهمت ؟ ما هذا
فكلب أفنية وأحواش »

فردت ليليا : « واخسارته » ولكنها ظلت حابسة دمعها
ووفدت على البيت مرة أخرى وجوه غريبة ،
وصرصرت عربات النقل ، وأطت أرض الفرف الخشبية
تحت وقع أقدام ثقيلة - ولكن الكلام كان قليلا هذه المرة
ولا ضحك البتة . واجفل العضاض من هؤلاء الاغراب ،
وتوجس في نفسه شرا وتولى الى أقصى الحديقة ، وجعل
يمد بصره من هناك خلال الافنان المتصوحة الناحلة ، الى
هذا الركن من الشرفة المنكشف لناظره يرمق الاشخاص
ذوى القمصان الحمراء يلدهبون ويجيشون فوقها

واذا بليليا تهتف وقد خرجت من الدار : « انت هنا ،
يا عضاضى المسكين ! » وكانت متجهزة للرحيل مرتدية
سترة سوداء على ثوبها القرنفل الذى سبق للعضاض
ان مزق من ذيله مزقة : « تعال ! »

وخرج الاثنان الى الطريق . وظل المطر متقطعا يهيم
ويختبس ، والفضاء ما بين السماء والارض المستوحلة
مئلبد بالسحب السارية المتدافعة . وان المتطلع اليها لا

يخطيء غلظها وتراكبها ، فهي لكثرة امتلائها بالماء مطبقة
لا يرى فيها خلل ولا فتق يدر منه قرص الشمس ، بل
الشمس منها وراء سد منيع

وكانت تنبسط الى يسار الطريق حقول داكنة لا زرع
فيها الا بقايا الحصاد وأعقاب العيدان ، ولا يقع النظر
الا على أشجار وشجيرات قصار غير متساوية فى بقاع
متفرقة عند الافق القريب المتراثر ببرواته المتطامنة وكتبانه
المتعرجة . والى الامام على مسافة غير بعيدة يقع حد
القرية ويقوم بابها ، وثمة الى جانبه حائوت خمار سقفه
الاحمر من حديد ، وعنده رهط من الناس يعاكسون
« يوشع » مخبول القرية

ويقول المخبول بصوت أخن وهو يبط كلامه :
« اعطونا درهما » فتجاوبه أصوات شاذبة هازئة فى نفس
واحد : « هلا احتطبت لنا خشبا ؟ »



فيقذفهم « يوشع » بالسباب مقنعا مستهترا ، فترتفع
من هؤلاء قهقهة فيها صخب بغير سرور ..
ونفذ من القيم المطبق شعاع من الشمس أصفر سقيم
حتى كأن الشمس أدنفها داء عياء لا يرجى منه شفاء ،
واتسعت مع الضوء رقعة النظر فى هذه المشاهد من
الخريف المدجن ، وزادت مجاليه وحشة على وحشة
وجرت على شفتي ليليا كالعذب السلسال هذه
الكلمات : « انى آسفة يا عضاض ! » ثم مضت لاحقة
بلدويها لا تلوى على شيء ، ولم تذكر الا وهى تستقل
القطار انها لم تودع العضاض

واما العضاض فما زال يجرى فى اثر الظاعنين حتى
المحطة ، ثم قفل راجعا الى البيت الخاوى مبتلا موحلا ،
وهنا قام بلعبة أخرى جديدة ، ولكنها ما لها من شاهد ،

فهذا هو للمرة الاولى يمشى الى الشرفة ويقف على رجليه الخلفيتين ، ويتطلع الى داخلها من الباب الزجاجى ، بل يغمشه باظافره طلبا لفتحه ولكن الغرف كلها خاوية ولا من مجيب ..

وانهمر المطر كأفواه القرب ، واخذ ليل الخريف الطويل يقبل من جميع الارزاء مخيما مرخيا سدوله فامتلا البيت الخاوى المقفر بعتمته المعجلة الثقيلة الظل . وكان الظلام كأنما ينساب من الشجيرات ويفيض مع المطر من السماء المتجهمة . وكانت الشرفة بعد اذ نزعوا عنها الظلة ، تبدو فلاة بلقما من معامى الارض ومجاهلها . ولقد كان النهار والظلمة فوقها وقتلد مشتبكين فى صراع طال برهة ، وظهرت فى غبشه الكابى آثار الاقدام فى الوحل محزنة مشجية . ثم سرعان ما غلب النهار على أمره وخيم الليل ..

ولما لم يبق من شك فى ان الليل قد أناخ والقي بجرائنه ، أخذ الكلب ينبع ويردد النباح مثل النواح ، وكان نباحه الجهمير الحاد كاليأس يتخلل صوت الوبل فى انهمساره الرتيب الملح الكئيب ، فيشقى الظلام وتحمل الريح اصداؤه المضمحلة الى الحقول الجرداء المحلولكة

وظل الكلب ينبع - دائما ، ملحا ، مستثسنا ، صابرا - وانه ليخيل الى السارى الذى يسمع فى الليل نباحه ان الليل الحالك نفسه هو الذى يئن ويحن الى النهار ، ويود السارى لو انه قبع فى داره بقرب زوجته يصطليان دفء الموقد ..

وظل الكلب ينبع .. ١

القبلة

« لا نطون تشيكوف »

في مساء اليوم العشرين من مايو في الساعة الثامنة كانت ست مدفعات من فرقة المدفعية حرف « ن » في طريقها الى المعسكر فنزلت في بلدة ميستشكى على نيه قضاء الليلة ..

وكان الهرج على أشده . فبعض الضباط لهم حول المدافع حركة وجلبة ، والآخرون في الساحة الواقعة امام الكنيسة يتذكرون مع كبيرهم . واذا براكب مقبل من وراء الكنيسة على صهوة طرف من الجياد الاصيل . واقترب الفرس كميت اللون مضمحل البطن ممشوقا مقصوص شعر الذيل أجيد عريض اللسان، يخطر في مشيته، هزجا يترقص طوال الوقت ولا تستقر قوائمه كأنما تمس الرمضاء خوافه . ولما بلغ الراكب الى محاذاة الضباط جذب اللجام ورفع قبعته محييا وقال في لهجة رسمية : « الجنرال فون رابك - وداره هنا عن كذب - يتشرف بدعوة حضرات الضباط للشاي .. »

وهز الجواد رأسه ، وترقص ثم تمايل متراجعا . ورفع الراكب قبعته مرة أخرى وأدار عنان جواده العجيب ، وغاب وراء الكنيسة

فتردد على السن الضباط وهم يذلفون متفرقين الى المحلة « سحقا لها من دعوة . هذا النعاس يثقل اجفاننا

فيأتينا من يدعى فون رابك بشايه . وبئس الشاي . »

ان ضباط المدفيعات السبت لا يزال يعلق بأدهانهم ويتمثل لعيانهم ذكرى دعوة سابقة . فقد اتفق في أثناء بعض المناورات الاخيرة ان دعوا مع زملاء لهم من العواري الى الشاي في دار سيد من سادة الريف وهو ضابط قديم متقاعد يحمل لقب الكونت . فلقد بالغ في اكرامهم هذا الكونت الكريم الوفادة الاريحي النفس ، فأطعمهم حتى الشبع ، وسعاهم من الفودكا حتى الرى واستبقاهم للمبيت . ولقد طاب لهم هذا كله والتذوه . ما في ذلك ريب . ولكن الجندي القديم الى جانب مبالغته في اكرامهم قد بالغ ايضا في منادمتهم واطال سمرهم — وهنا الخطب . فلم يزل بهم حتى السحر يهضب ويسح بما كان من أخبار ووقائع ويجرهم من غرفة الى أخرى ليظهرهم على صور نفيسة ونقوش قديمة وسلاح نادر المشال ، جميعهم قد استولى عليهم التعب وأخذ الملل بمخنقهم وهم يستمعون ويفغرون أفواههم وكلهم حنين الى الفراش يتشاءبون في اكرامهم . حتى اذا اذن صاحب البيت وخلي عنهم كان قد انقضى وقت النوم

أ يكون فون رابك كونتا آخر من الضباط المتقاعدین ؟ جائز جدا . ولكنه لم يكن من سبيل الى التخلف عن دعوته فاغتسل الضباط وارتدوا ثيابهم وخرجوا يممون دار فون رابك . واستخبروا عنها في ساحة الكنيسة ، فقليل لهم ان يهبطوا الربوة الى النهر ، ويسيروا والشاطئ حتى يوافوا حدائق الجنرال ، فيجدوا ممرا يؤدي سويا الى الدار . والا فان شاءوا ان يرتقوا الربوة فانهم يوافون بيادر الغلة الملحقة بدار الجنرال على مسيرة ثلثي الميل من البلدة وقد آثروا هذه الطريق

وتساءل أحدهم :
« ولكن من يكون فون رابك هذا ؟ أهو الذى كان قائدا
لفرقة الفرسان حرف « ن » فى موقعة بليفنا ؟ »
- كلا لم يكن فون رابك وإنما كان « راب » أى التسمية
وحدها عاطلة من لقب الشرف
- ما أبدع الجو هذه الليلة

وحين وردوا اول البيادر اذا هم بمفرق طريقين
أحدهما ذاهب قدما حتى يغيب فى ظلمة الغسق والآخر
عارج الى اليمين يفضى الى دار الجنرال • وكان الضباط
كلما دنوا منها يخافون من جلبه كلامهم • وكانت تمتد
على الجانبين صفوف بيادر الغلة حمر السقوف مبنية
من الاجر ، ولها طلعة ثقيلة متجهة كهيئة الثكنات فى
بلاد الريف • وامام أعينهم تلتحم الانوار فى نوافذ دار
فون رابك ••

وصاح أحد الشبان الضباط :

- بشرى ايها السادة هذا كلبنا الصياد سابق فى
الطليعة فنحن لا شك مقبلون على صيد

والكلب الصياد الذى يعنونه بكلامهم هو الملازم لوبتكر
وكان طويل القامة بديننا أمرد الوجه اجرده ولم يطر ل
شارب ولم يخضر له عذار مع انه بلغ الخامسة والعشرين
وقد اشتهر بين رفاقه بأنه يتنسم ريح النساء ويخبر عن
قربهن بقوة سليقة فيه والهام غريزة • والتفت الملازم الى
رفاقه حين سمع اشارتهم وقال :

- أجل ، نفسى تحدثنى ان هناك نساء ••

وعند باب الردهة طلع عليهم رجل وسيم الطلعة مدخر
القوة فى الستين من عمره هو فون رابك فى غير ثوبه
العسكرى وقد تقدم يستقبل مدعويه • وكان وهو يشد

على أيديهم يعتذر بأنه على شدة سروره بهم لا يحتجزهم للمبيت فان عنده من الاضياف شقيقتيه وأولادهما وشقيقه ونفرا من اهل جيرته - وانه في الواقع لم تبق غرفة خالية . على أنه مع هذا الترحيب والاكثر من المعاذير واطهار التهلل والبشاشة فالواضح البديهي انه انما دعاهم لان مراسم الادب تقضى بذلك . وصعد الضابط الدرج المفروش بالطنافس وقد سمعوا الى مضيقهم وأدركوا الامر كل ادراكه وتمثل لهم ما هم مدخلوه على جو هذه الدار من شعور بالتهجم والازعاج وسأل كل نفسه ايكون في وسع رجل جمع شقيقتيه وأولادهما وشقيقه وأهل جيرته ليحتفلوا ولا ريب بعيد عائلى ان يرتاح وينبسط لهجمة تسعة عشر ضابطا لم يسبق له قط رؤيتهم ؟

وعند باب قاعة الاستقبال وقفت تحييمهم سيدة كبيرة السن مديدة الشطاط حسنة الصورة وجهها أميل الى الطول ، سوداء الحاجبين ، شديدة الشبه بالامبراطورة السابقة أوجينى . وكانت تهش لهم في تأدب ووقار وهى تؤكد لهم سرورها بهم وتأسف على اشتغال المكان عن مبيتهم ، ولكن الابتسامة المتأدبة الوقور غابت حين ولت منصرفه . وكان ظاهرا جليا انها رأت ضابطا كثيرين في سالف أيامها فليس لهم بعد في عينها أدنى طرافة

وكان يجلس في حجرة المائدة الفسيحة الى خوان ممدود عشرة من الرجال والنساء يشربون الشاي . وخلفهم وراء حجاب من دخان السيجار نفر من الشبان يلفظون بالحديث وبينهم شاب أصهب الشاربين مغرط النحافة يتكلم الانجليزية على الصوت وفى منطقه لثغة . وامتد نظر الضباط عبر باب مفتوح فاذا قاعة ساطعة

الانوار مكسوة الجدران بالورق الازرق

وقال الجنرال بصوت جهير وهو يتكلف الجذل والحبور :

« أنتم أيها السادة كثيرون يتعذر تعريفكم فردا فردا ،
فلتعرفوا انفسكم بعضكم الى بعض أرجوكم من غير تكلف
مراسم »

فانحنى الزوار تحية وعلى وجوه البعض مسحة الجذ
بل التزمت والبعض الآخر يتسمون ابتسامة فائرة
مفتتحة وبالجملات كانوا كلهم في حال من الارتباك والضيق
وأخذوا مجالستهم الى المائدة وكان أشدهم شعورا بالربكة
والضيق الكابتين ربابوفتش وهو ضابط ضئيل الجسم
أفك المنكبين ذو عوينات وله شارب كشارب القط البرى .
واذا كان اخوانه الضباط تبدو عليهم سيماء الجد او
الابتسام المفتعل فلقد كانت سحنه وشاربه الذى يحكى
شارب الهر وعويناته جميعا كأنما تقول : « أنا بين
ضباط الفرقة أجمعين أشدهم استحياء واستخفاء
وتفاهة » . وقد ظل طويلا بعد جلوسه الى المائدة لا يملك
حصر وعيه فى شىء واحد . فالوجوه والملابس وقناني
الخمر المضلعة وأقداح الشاى الداخنة وزخارف البناء
البارزة — هذه كلها كانت مختلطة فى احساس واحد
يغمره ويستبد به فتفشاه منه روعة شديدة ويجعله
يود لو حجب وجهه وأغمض عينيه فهو هنا فى مثل موقف
المحاضر للمرة الاولى فى حياته ، فهو يرى الاشياء ولا يحقق
منها شيئا حتى ليصبح القول انه قد اعتراه ما يسميه
رجال الطب فى تشخيصهم « بالعمى الباطنى »
ولكنه أخذ يتغلب بعض الشىء على انكماشه واستخفافه
فيستوضح الاشياء ويرقبها . وكان أول ما استرعى نظره

— شأن المنقبض عن الناس الخجول — هو تلك الجراة المدهشة التي يديها معارفه الجدد . فهذا فون رابك رقيقته وسيدتان كبيرتان وفتاة في ثوب بنفسجي . وذلك الفتى الاصهب الشارب ، ولعله من فتيان آل فون رابك وقد جلسوا الى الضباط القرباء دون تكلف كأنهم قد استعدوا للحفل كالممثلين بالمرانة على الحركة والالقاء وسرعان ما خاضوا في أحاديث حامية منوعة لم يلبثوا أن جروا إليها الضباط . فرجال المدفعية أسعد حالا من الفرسان ومن المشاة فيما تقرره ذات الثوب البنفسجي ويعارضها في ذلك فون رابك والسيدتان الكبيرتان . وقد استحر النقاش من غير استقراء واطراد سياق . وكان ريبوفتش يستمع الى القادة ذات الثوب البنفسجي وهي تستمر في المناظرة والجدال في موضوع لا علم لها به ولا تدري ما هو ولا أمره ، وقد جعل يرقب الابتسام يظهر ويختفي في أسارير وجهها .

وكان آل فون رابك — الى جانب براعتهم في جر ضيوفهم الى النقاش والمساجلة — يرقبون كل فم وكل قدح . هل تناول الشاي كل مدعو ، وهل كانت حلاوته كافية . ولماذا لم يمد هذا يده الى الكعك . وذلك هل تراه أميل الى الكونياك ؟ وكان ريبوفتش كلما أصغى لهم وتطلع نحوهم زاد إعجابه بهذه الاسرة المصانعة التامة الدربة .

وانتقل الضيوف بعد الشاي الى قاعة الاستقبال . أي والله ان غريزة لوبتكو لم تكذبه فقد كانت الحجرة غاصة بالفواني والفتيات . ولم تمض دقيقة حتى كان د كلب الصيد « الضابط الى جانب فتاة في ميعة الصبا شقراء الشعر في ثوب أسود وهو ينادمها ماثلا في وقفته كأنه مستند الى سيف غير منظور يهز كتفيه في نظرف وعجب

ولا ريب في أنه كان يلغو بكلام لاطل فيه للطرافة والايناس
فان الفتاة الشقراء كانت تنزو الى وجهه المفتر الراضى
بنظرة السامع المتفاضى ، وكانت لاتزيد على أن تردد في
فتور « حقا » وكان في « حقا » هذه الفاترة ما هو حقيق بأن
يقنع كلب الصيد على الفور بأنه أخطأ الطريق وضل
الآثر ..

وبدأت الموسيقى • وكانت نغمات مقطوعة الرقص الشجية
تظهر الى خارج النافذة المفتوحة فاذا القوم يحسون بأن
خارج النافذة ربيعا في إبانها وأن الليلة من ليالى آيار •
وكان الهواء عطرا يعبق برائحة أوراق شجر الحور والورود
والبنفسج وكان كل من نغم الرقص والربيع صادقا خالصا •
ودارت في رأس ربابوفتش نشوة الكونياك مشعشعة
بموسيقى الرقص فشخص بطرفه الى ناحية النافذة وعلى
وجهه ابتسامة ثم جعل يتتبع حركات النساء وخيل اليه
أن شذا الورود والحور والبنفسج لا يتضوع من الحداثق
في الخارج بل من وجوه أولئك القواني الناضرة وإبرادهن
الموشاة ..

وأخذ الرجال والنساء يرقصون • وقد دارفون رابك
الشباب دورتين حول الغرفة مراقصا لفتاة شديدة النحول •
وخف الضابط لوبتكو على خشب الغرفة الاملس الملمع
وأقبل على الحسناء ذات الثوب البنفسجي فسمحت له
برقصة • أما ربابوفتش فظل مع غير المراقصين واقفا •
بجانب الباب ساكنا شاخص البصر • وكان دهشة
لا تنقضي له دهشة من جرأة الرجال يخاصرون على مرأى
الناس نساء لا يعرفونهن وحاول أن يتصور أنه يصنع
صنيعهم ولكنه كان يحاول عبثا • ولقد أتى عليه حين كان
يحسد رفاقه على شجاعتهم واقتحامهم ويألم من دوام مراجعته

لنفسه ويحز في قلبه علمه أنه خجول ، أفك الكتفين .
ليست له شارة من وجهة وان شاربه كشارب الهر .

وانه لم يختص بالتحول خصره بل هو جميعه خصر
مفرط الحول مديد . غير أنه على تطاول السنين رضى
بتفاهة حظه وأطمأن الى خفاء شأنه . فهو ينظر الآن الى
الراقصين واللاغطين بشعور حزين دون أن ينطوى لهم
على حسد . .

ولعبت الموسيقى توقيعا آخر للرقص ، وقدم الشاب
فون رابك بعد المطلع الى ضابطين من غير الراقصين
ودعاهما الى شوط بليارد وغادر ثلاثتهم القاعة . ولما
كان ريابوفتش واقفا حامل الوقفة لا يأتى عملا فقد
أحس بضرورة الحركة مع من يتحركون فخرج فى أثرهم
واجتازوا حجرة المائدة ومروا بدهليز ضيق الجنب ممر-
الارض ثم بغرفة كان فيها ثلاثة من الخدم ناعسون على
أريكة فوثبوا متفريزين ، وبعد أن جاسوا - فيما خيل
اليهم - جميع غرف القصر دخلوا حجرة للبليارد صغيرة .

وهنا أخذ فون رابك والضابطان فى اللعب . وجاء
ريابوفتش - وكان لا يعرف الا لعبة الورق - فوقف الى
المنضدة ينظر الى لعبهم الذى لا يدركه ، فى غير اقبال
ولا احتفال . واللاعبون قد حلوا أزرار معاطفهم وجعلوا
يلعبون بمضارب البليارد ، ويصولون ويجولون مازحين
هائنين بمصطلحات غامضة . ولقد تجاهل الجميع
ريابوفتش ، الا حين يصطدم به لاعب منهم أو يلمسه
مضربه فكان يلتفت اليه ويقول قولة موجزة « لامؤاخلة »
ولم يمكث ريابوفتش حتى ينتهى اللعب فقد تملكه الضجر
وثقل عليه الاحساس بفضول وجوده فى هذا الموضع
وقلة لزومه ، فصحت نيته على الرجوع الى حجرة الاستقبال

فتحول وانصرف ..

وفي اثناء رجوعه وقعت له واقعته وما أدراك ماهي، ذلك انه لم يذهب بعيدا حتى تبين له أنه قد ضل الطريق فهو يذكر على وجه التحقيق الغرفة التي بها الخدم الثلاثة المهومون ، فلما أن مر بحجرات خمس أو ست ليس بها أحد بان له غلظه . فعاد أدراجه ثم عرج على يساره فإذا هو في غرفة تسودها ظلمة ولم يسبق له أن مر بها ، فتردد لحظة ثم تقدم في جراءة الى أول باب وجده ففتحه فإذا به يجد نفسه في ظلام دامس ، وكان بصيص نور يتطرق من خلل باب في الطرف الاخر من تلك القاعة وصوت الموسيقى من بعيد يخفق مخفوت الصدى بنغمة رقص شجية . وكانت النوافذ كنوافذ قاعة الاستقبال مفتوحة على مصراعيهما وشذا الحور والبنفسج والورد يفيض على الهواء .

ووقف ريابوفتش متحيرا لا يدري ما يفعل . وظل السكون مخيما على المكان برهة ، واذا بوقع قدم متعجلة ، ومن حيث لا يحتسب - حف ثوب حريري وهمس صوت ناعم مبهور الانفاس يقول : «واخيرا» . وطوقت بجيده ذراعان ناعمتان معطرتان هما حتما ذراعا امرأة ، وأحس خدا دفيئا يلتصق بخده ثم قبلة رنانة ، على أن القبلة ماكادت ترن في السكون المخيم حتى صرخت السيدة المجهولة صرخة عالية وولت - كما خيسنل الى ريابوفتش - مشمزة نافرة . وكاد ريابوفتش نفسه يصرخ ثم هرع لا يلوى على شيء . ولما أن دخل قاعة الاستقبال كان قلبه يدق دقا شديدا ، ويداه ترتجفان ارتجافا ظاهرا جعله يشابكهما وراء ظهره . وكان أول ما ملكه من الشعور الخجل كأنما كل واحد في القاعة قد عرف ما جرى له توا من العناق والتقبيل . فقمع في جلده وجعل يتلفت وجلا ، فلما آتس أن أصحاب الدار

والضيوف على حالهم من الاطمئنان يرقصون ويسمرزن
تشجع وأسلم نفسه لاحاسيس يبيلوها للمرة الاولى فى
حياته . لقد وقع ما لا عهد له بمثله . وانه ليعجز أن عنقه
الذى طوقته ذراعان ناعمتان معطرتان منذ هنيهة رطب
ندى كالمسوح بالزيت ، وعلى خده عند شاربه الايسر حيث
موقع القبلة يتنمل برد خفيف لذيقه كالدع قرص النعناع
وهو من فرعه الى قدمه فى غمرة من أحاسيس جديدة عجيبة
ما تزال تشتد وتزيد .

وشعر بأن لابد له من أن يرقص ويسمر ويكر الى
الحديقة ويضحك ما شاء من غير حرج . ونسى النسيان كله
انه افك الكتفين لا ميسم له ولا جهارة ذو شارب مثل شارب
الهر ، وبالجملة انه غفل الهيئة . على حد وصف له جرى
يوما على لسان احدى السيدات فسمعه عرضا واتفاقا
ومرت مدام فون رابك فابتسم لها ملء شديقه متلظفا غاية
اللطافة . فأقبلت عليه ونظرت اليه متسائلة فقال وهو
يصلح عويناته : « ما أبدع دارك » .

فردت مدام فون رابك على ابتسامته بمثلها وقالت: ان
الدار لا تزال ملكا لوالدها . وسألته عما اذا كان أبواه على
قيد الحياة وكم مضى عليه فى الجيش وما السبب فى
هزاله . وانصرفت بعد سماعها الى أجوبته . على أنه مع
انتهاء الحديث وانصرافها ظل يبتسم ابتسامة الرضى
ويتأمل مبلغ لطف القوم من معارفه الجدد .

وفى العشاء كان ربابو فتش يأكل ويشرب فى حركة آلية
ما يوضع أمامه ولا يسمع حرفا من الحديث الدائر حوله
منصرفا بكليته الى حل ألغاز واقعته الروائية الغامضة .
ماذا عسى يكون تفتيرها ؟ ان الامر فيما يراه يديه لا يبعد
ان احدى الفتيات تواعدت وحببها على اللقاء فى الغرفة

المظلمة وبعد أن انتظرت برهة على غير جدوى صارت من الاضطراب وجهد الاعصاب بحيث التبس عليها ريابوفتش بحبيبها المنتظر ويشفع لخطئها أن ريابوفتش عند ولوجه الغرفة المظلمة توقف مترددا كأنما هو أيضا على موعد ..

لقد برح الخفاء واتضح المعنى حتى هنا ..
« ولكن أى الفتيات هى ؟ » تردد هذا السؤال فى خاطره فجعل يتصفح وجوه النساء . أنها لاشك من الصبايا الغريرات لأن العجائز لا يتورطن فى مثل هذه المغامرات . ثم أنها ليست من خادمت القصر فذلك ثابت ثبوتا لا يجوز الغلط فيه من حفيف ثوبها الحريرى ومن عطرها وصوتها ..

ونظر أول ما نظر الى الفتاة ذات الثوب البنفسجى فأعجبته وراقت فى عينيه ، فان كتفيها وذراعيها جميعا سوية الخلق مفرغة فى قالب الجمال ولها وجه ذكى المعنى وصوت ساحر . فضرع الى الله أن تكون هى . غير أنها ابتست ابتسامتها الماكرة ، فتقلص أنفها الطويل وبدت أكبر سنا . فزوى ريابوفتش نظره عنها الى الشمقراء ذات الثوب الاسود وهى أصغر سنا وأكثر بساطة وصدقا ولها طير على جبينها تسبى اللب ، وكانت ترتشف قدحها فى لطف يفوق الوصف . فتمنى ريابوفتش أن تكون هى - ولكنه سرعان ما لحظ فى وجهها فرطحة فاننى ينظر الى جاريتها ...

« ان الامر مشكل لا حيلة فيه » وفكر مليا : لو أخذت ذراعى الفتاة ذات الثوب البنفسجى وكتفيها مضافا اليهما خصائل الفتاة الشمقراء وعينا الفتاة الجالسة الى يسار لوبتكو فعندئذ ... »

ولما تم له تأليف صورة من جملة هيئة المحاسن تجلج

له منظر الفتاة التى قبلته ولكنه غير واجد لها فى المجلس أترا ..

وانتهى العشاء . وقام الزوار وهم ملاء نشاوى فودعوا الداعين . وكرر صاحب الدار وصاحبته الاعتذار من عدم احتجازهم للمبيت وجعل الجنرال يردد : « انى جد مسرور ايها السادة » وكان فى لهجته هذه المرة رنة الصدق . ولا جرم فان تشييع الضيف المرتحل أروح للنفس من استقباله بالترحاب ، وهو غير مرحب به . « انى جد مسرور حقاً وآمل ألا تحرمونى من الزيارة فى العودة . أرجوكم - مع رفع الكلفة - أى طريق انتم الان سالكون ؟ اتصعدون الربوة ؟ لا بل انحدروا واجتازوا الحديقة . هذه الطريق أوجز » .

واخذ الضباط برأيه . ولا غرو بعد الحديقة والانوار الساطعة فى الدار أن ظهرت لهم الحديقة مظلمة ساكنة فظلوا حتى بابها الجانبى الصغير سكوتاً لم يخرجوا عن صمتهم . لقد كانوا طريين ثملين جد مبسوطين ألا أن ظلام الليل وسكونه يبعثان على مناجاة النفس وسبحات الفكر . وجرى فى خواطرهم جميعاً مثلاً جرى فى خاطر ريبا بوفتش هذا السؤال : « أو يأتى يوم يكون لى فيه مثل قون رابك دار كبيرة وأسرة وحديقة وتسبح لى مثل هذه الفرصة للتلطيف مع الناس ولو غير مخلص والوليمة لهم حتى يصدرُوا ملاء نشاوى مبسوطين ؟ »

فلما ان استبدروا الحديقة انطلقوا جميعاً يتحدثون وتفجروا يتضحكون لغير سبب . وكانت الطريق التى سلكوها تفضى امامهم الى النهر فى غير التواء ثم تجرى والنهر مطردة معه فى محاذاته تداور ما يقوم على ضفته من خمائل وشعاب وأشجار صفصاف بأفئانه المتدلية . وكانت الطريق لا تكاد تبين والشاطئ الآخر مفرقاً فى

ظلمة حالكة . وكان يترامى فى سواد الماء أحيانا نجوم السما
ولولاها ما كانوا يتمثلون مسيل العباب وسرعة جريانه
وفى العدوة عبر النهر كان يزقو طائر وسنان وفى بعض
الخمائل على مقربة منهم كان يهتف بلبل رافعا عقير
غير حافل بجمعهم . فتألب الضباط واقتحموا الخميل
ولكن البلبل ظل على حاله ماضيا فى غنائه

وردد الضباط معجبين : « لله صفاقته انه لا يحفا
بنا فتिला هذا المستهتر المتصابى »

واستأنفوا المسير حتى اذا قاربت الرحلة آخرها
اصعدت الطريق الى الربوة وافضت بهم الى السكة العام
غير بعيد من رجة الكنيسة
وكان المرتقى قد نال منهم ويهر انفاسهم فتهاكوا على
العشب وراحوا يستجمون ويدخنون . وكان يلتصع ضوء
أحمر كامد فى الشاطيء الآخر من النهر ولما كان يعوزه
فى مجلسهم هنا موضع للحديث فقد جعلوا يتمارو
ويتحاورون فى أمره أهو وقود زينة أو نور نافذة أو غ
ذلك . وتطلع ربابوفتش فيمن تطلع الى الضوء فخيه
اليه انه يبتسم وانه يغمز له كأنه يعرف خسر القبله

ولما أن بلفوا محلثهم بادر ربابوفتش الى خلع حله
لا يلوى على شيء وآوى الى فراشه . وكان شريكاه
المرقد لوبتكو والملازم مرزلياكوف وهو رجل طوب
الصمت ظاهر الرصانة وله سمعة بأنه من ذوى البسة
فى الثقافة والتحصيل ، ولا يرى اينما ذهب الا وفى يا
رسالة « رسول أوروبا » فهو أبدا يقرؤها ولا تنقضى
أبد العمر قراءة فيها . وكان لوبتكو بعد خلع ثيابه يثر
المقصورة جيئة وذهابا نافذ الصبر وقد أرسل الخاء
فى طلب جعة له . واما مرزلياكوف فاضطجع واقف

الشمعة على وسادته واحتجب رأسه وراء « رسول أوربا » كعادته . « ليت شعري أين هي الآن ؟ » بهذا السؤال تحركت شفتا ريبوفتش مغمفما يناجى نفسه وهو شاخص الى السقف المسود بالسناج

وكانت رقبتة لا يزال بها هذا الاحساس الرطب الندى كالمسوحة بالزيت ، والى جانب فمه لا يزال موقع القبلة يتنمل بمثل برودة قرص النعناع . وكان يلتمع في ذهنه على التعاقب كتفا الفتاة البنفسجية وذراعاها والطرر المزركشة على جبين الفتاة ذات الثوب الاسود وعيناها النجلاوان الصادقتان وما يلحق بذلك من خصور مائسة وابراد موشاة ومشابك مجوهره . وعلى الرغم من مجاهدته في اقرار هذه الصور الشاردة وتثبيتها فانها كانت تلتمع وتقمز له ثم تزول . وأخيرا حال لونها وانطمست رسومها في ذلك الستار الكثيف الاسود الذى يخيم على أعين الناس عندما تدب في أجفانهم ثقلة الكرى ويرين عليهم النعاس ، واخذ يدوى في سمعه وقع أقدام معجلة وحفيف أثواب حريرية ورنين قبلة . واستولت عليه غبطة شديدة فياضة من غير ما سبب . وفيما هو مستكين لهذه الغبطة مسترسل معها رجوع خادم الملازم لوبتكو يخبر سيده انه لم يجد الى الجعة سبيلا . فعاد الملازم يلدرع الفرفة جيئة وذهابا وهو نافذ الصبر مسلوب القرار وتوقف الملازم عند ريبوفتش ثم عنبد مرزلياكوف هائفا : « انه لرجل أبله ليس يمتنع الحصول على الجعة الا على الخابيل الأغبياء . وغد »

فقال مرزلياكوف معقبا وهو لا يرفع عن « رسول أوربا » عينيه : « الجميع يعلمون انه لا سبيل الى الجعة هنا » فهتف لوبتكو : « او تصدق ذلك يا الله أقذف بى في

فيا في القمر فاني لا البث خمس دقائق حتى أجد الجمعة
والنساء كليهما ، ولسوف أجدهما بنفسى هنا لا تكونن ندلا
ساقط الشرف ان لم أجدها »

وجعل يرتدى ثيابه على مهل وأشعل لفافة تبغ وخرج
ثم ارتفع صوته وقد وقف في البهو مناديا : « رايك ،
جراييك ، لايك في سبيل الشيطان لست ذاهبا وحدى .
ريابوفتش تعال معى نتمشى .. ماذا ؟ »

فلما لم يجب أحد رجع ادراجه وجعل يخلع ثيابه على
مهل ثم رقد فتنهد مرزلياكوف وطرح « رسول أوربا »
جانبا وأطفأ النور وتمتم لوبيتكو وهو ينفخ دخان سيجارته
في الظلام : « حسن ! »

وجذب ريابوفتش لحافه حتى ذقنه ، وتكور تحته
كالكرة وأخذ يجهد مخيلته ليضم أشتات المناظر المتلاثة
ويجعل منها صورة واحدة متماسكة ولكن الرؤيا تأبت
عليه وولت عنه ثم لم يعتم أن غلبه الكرى ، وكان آخر
احساسه قبل السبات انه كان موضع ملاطفة واسعاد
ومسرة وان حياته دب اليها شيء غريب شيء عجيب
مضحك ، ولكنه جميل ومشرق على نحو غير عادى ولم
يبرحه هذا الخاطر حتى في أحلامه

واستيقظ مع الصباح ، ورنا كالمسحور الى زجاج
النافذة يتوهج كالذهب من شعاع الشمس الطالعة
وانصت الى الضوضاء في الخارج . وكان احساسه
بالنداوة في عنقه وبرودة قرص النعناع في خده قد ذهب
عنه ولكن الفرح بالليلة البارحة كان ملء جوانحه يسرى
في كل عرق من عروقه

حبيلها

« لكسيم جوركي »

روى لى بعض معارف هذه الواقعة :

اتفق لى وأنا طالب فى موسكو أن عشت فى جوار سيدة من اللاواتى فى سمعتهم موضع للتهمة ومشار للريبة . وهى بولونية ويدعونها تريزا . وكانت سمراء قوية البنية ، الى طول فى القامة كثة الحاجبين فاحتمهما ، عريضة الوجه ، غير مصقولة الملامح كأنها منحوتة بالفاوس . وكانت لمحة الحيوانية فى عينيها السوداوين ، ونبرة صوتها الفليظ العميق ومشيتها التى تحكى مشية الحوذى وصلابة عضلها الجديرة بامرأة من بائعات السمك كانت هذه جميعا تملأ قلبى لها استكراها ومنها نفورا

وكنت أسكن الطابق الاعلى وغرفتها تجاه غرفتى وكنت لا اترك بابى قط مفتوحا إذا علمت بوجودها وهو أمر نادر الوقوع . ولقد القاهما مصادفة فى السلم أو فى الفناء فتبتسم لى ابتسامة تبدو فى نظرى مأكرة مستخفة . كما أننى بين آونة وأخرى كنت أراها سكرى ، شعشاء الشعر ، مشواء العينين ، وقد بدا ناجداها فى تهائف مستهتر فظيع . وفى أمثال هذه الحال كانت تخاطبنى :

« كيف حالك يا حضرة الطالب »

وتريدنى ضحككتها السخيفة مقنا لها على مقت . ولم يكن أحب الى من الانتقال من المسكن تجنباً لهذا اللقاء

وهذه التحية ، لولا ان عرفنى الصغيرة لطيفسة تشرف نافذتها على منظر واسع شاسع والطريق تحتها يشمله السكون - فانا لهذا متحمل صابر . وفى صبيحة ذات يوم كنت مستلقيا على فراشى التمس لنفسى علرا من الذهاب الى الدرس . واذا بالباب يفتح وصوت تريزا السمجة المردولة - صوتها الفليظ العميق يرن على عتبة بابى : « لا بأس عليك يا حضرة الطالب »

فبادرتها : «ماذا تريدين » واذا وجهها يملؤه اضطراب وتبدو عليه ضراعة .. وما عهدت لها مثل هذا الوجه:

- سيدى انى قصدت اليك فى مكرمة فهل تصنعها لى ؟

فلبثت فى موضعى صامتا . وناجيت نفسى: «يالطيفاء . تجلد يابنى » قمضت تقول وفى صوتها ضراعة : « أريد ان أبعث بخطاب الى بلدى . هذا كل ما فى الامر »

فقلت فى نفسى : « خطفتك الشياطين » . على انى وثبت من فراشى وجلست الى منضدتى وتناولت قرطاسا وقلت : « تعالى أجلسى وأملى على »

- حسنا .. لمن تريدين الكتابة ؟ ..

- الى بولسلاف كشيوت ، ببلدة سفيتزيانا ، فى طريق وارسوفيا ..

- حسنا ، هاى ما عندك

- عزيزى بولز .. يا قرة العين .. يا حبيبى الوفى . حرسك السيدة العذراء يامن قلبه من الذهب الخالص لماذا انقطعت هذا الوقت الطويل عن الكتابة الى حمامتك الصغيرة الهائفة تريزا ؟

فكاد يفلبنى الضحك « حمامة صغيرة هائفة » وهى فى طولها تنيف على خمس أقدام ، وقبضة يدها تزن خمس أقات وزيادة واما الوجه منها فأسحج كأنما الحمامة

الصغيرة قد عاشت طوال حياتها فى مدخنة ولم تتسبل
 فى يوم من الايام ..
 وتملكت نفسى جاهدا . ثم سالتها :
 - ومن بولست هذا ؟
 فراجعتنى وكأنما ساءها غلطى فى الاسم « بولز
 يا حضرة الطالب . ، هو بولز فتاى المحب »
 - فتى ؟
 - فيم دهشتك يا سيدى ؟ الا يصح - وانا فتاة -
 ان يكون لى فتى ؟
 هى ؟ فتاة ؟ عظيم والله !
 وقلت « ايه ، لا .. كل شىء ممكن . وهل هو فتاك
 من عهد طويل ؟ »
 - ست سنوات
 فتعجبت فى نفسى ثم قلت : « عظيم .. لنتم خطابك .. »
 ولا اكذبك القول . . لقد وددت لو كنت مكان بولز
 ولو كانت هذه التى تكاتبه ليست تريزا بل دونها ايضا
 وفى الختام قالت تريزا مع انحناء براسها تحية لى :
 - اشكرك يا سيدى من صميم قلبى لحسن صنيعك .
 ولعلى أستطيع ان اؤدى لك خدمة اليس كذلك ؟
 - كلا ولك منى فروض الشكر على كل حال
 - سيدى ، قد تحتاج قهصانك أو سراويلك الى شىء
 من الاصلاح ..
 فأحسنت ان هذه المائلة أمامى كالفيسل فى زى
 امرأة قد جعلت وجهى يحتقن خجلا ، ولقد أجبتها فى غير
 قليل من الحدة انه ليس بى الى خدماتها أدنى حاجة
 فانصرفت ..
 وانقضى اسبوع أو اسبوعان ، وفى ذات مساء كنت
 جالسا الى نافذتى اصفر وافكر وانا متضايق برم بالحياة

والجو كدر عكر . ولم تكن بى رغبة فى الخروج فاقبلت
من السلامة - على نفسى أحللها واذهب مذاهب التأمل
والنظر ، وذلك أيضا عمل خامد بليد ، ولكنى لم يكن
يعيننى أن أصنع غيره وإذا الباب يفتح ، وإذا داخل يدخل
ثم سمعت صوتا يقول : « ايه يا حضرة الطالب أرجو ألا
يكون عندك عمل هام يعجلك ؟ »

هى تريزا إذا .. وى .. وى ! ..
- كلا ما الخطب ؟

- كنت أهم - يا سيدى - أن أسألك أن تكتب لى
رسالة أخرى

- حسنا جدا الى بولز ، اليس كذلك ؟
- كلا هى من بولز هذه المرة
- ماذا ؟

- ما أغبانى انها ليست لى يا حضرة الطالب ، أرجوك
المعذرة انها لصاحب لى ، لا أعنى صاحبا وانما أحد معارفى
أن له حبيبة مثلى تماما أسمها تريزا . هذه هى المسألة ،
فهل لك يا سيدى أن تكتب خطابا الى تريزا هذه

فرفعت بصرى اليها - فاذا وجهها مضطرب وأصابها
مرتجفة . لقد غم على وجه الامر فى البداية ولكنى الان
فطنت الى جليته ..

فقلت « اسمعى ياسيدتى ليس الامر امر رسائل بين
رجال باسم بولز ونساء باسم تريزا على الاطلاق وانما
كنت تختلقين لى الاكاذيب عمدا . فإياك أن تتسلى بعد
اليوم الى غرقتى فليست بى أدنى رغبة فى أن تتصل بيننا
الاسباب افاهمة انت ؟ »

فما راعنى الا هلع غريب يستولى عليها وحيرة تشتد
بها وقد جعلت تنقل قدميها دون أن تنتقلا بها خطوة
وتغمغم على نحو مضحك تريد أن تقول شيئا فلا تستطيع

وانتظرت ارقب ما تنجلي عنه هذه الحال فدلنى نظرى
وهدانى احساسى الى أننى - على ما يظهر - اخطأت خطأ
كبيرا فى التظنن بأنها تبتغى استدراجى والميل بى عن
الطريق القويم. وصح عندى ان فى الامر شيئا خلاف ذلك

واستهلت تريزا « يا حضرة الطالب » ولم ترد ثم دارت
على عقبها فجأة وهى تلوح بلذراعيها واندفعت الى الباب
وخرجت ، وبقيت فى موضعى متكدر الخاطر ، واصفيت
فسمعتها تدفع بابها بشدة ، ولاشك ان المرأة المسكينة
غاضبة اشد الغضب ، فراجعت نفسى فى الامر وقلبت فيه
وجوه الفكر فاجتمع عزمى على ان اذهب اليها فادعوها
الى المجيء هنا لاكتب لها ما تشاؤه جميعا

ودخلت الى مسكنها وتلفت . لقد كانت جالسة الى
المنضدة معتمدة على مرفقيها ورأسها بين كفيها فقلت
لها : « اصفى لى »

والحق أننى اليوم كلما بلفت الى هذا الموقف من
حكايتى ما أزال أحس بمبلغ ما كان من خرقى وغفلى ..
قلت : « اصفى الى »

فهيت من مقعدها واقبلت على وقد ابرقت عينها
ووضعت راحتيها على كتفى وانشأت تهمس اوعلى الاصح
تهمهم بصوتها الاجش العميق :

- الآن ، القى بالك الى . هذه هى الحال : فليس من
رجال باسم بولز على الاطلاق ولا نساء أيضا باسم تريزا
ولكن ماذا بك من ذاك ؟ ايشق عليك ان تجرى القلم على
القرطاس ؟ ماذا ؟ حتى انت ولما نزل فتى صغير السن
غض الالهاب ، أجل ليس من أحد على الاطلاق لا بولز ولا
تريزا . لا يوجد غيرى أنا . هذى هى واقعة الحال فاهنا الان
بفتتنى هذه المقابلة ثم لم البث أن قلت « لا تؤاخذينى ،

فيم هذا كله ؟ تقولين بولز لا وجود له ؟

— هو ذاك ..

— ولا تريزا أيضا ؟

لم أفقه من الأمر شيئا وحدجتها بنظري أحاول أن أعرف أينافارق صوابه .. ولكنها عادت الى المنضدة وجعلت تلتمس فوقها شيئا ثم أقبلت ثانية على وقالت بلهجة المستاء : « اذا كانت الكتابة الى بولز تشق عليك الى هذا الحد فهالك كتابك اليه خذه ، فقيرك يكتبون لى »
ورفعت نحوها بصرى فاذا في يدها كتابي الى بولز ..
اف لها !

— اسمعى يا تريزا هذا جميعه مامعناه ؟ لماذا تستكتبين الناس له ، وأنا قد كتبت له خطابا ولم ترسله ؟
— أرسله أين ؟

— كيف .. الى بولز هذا الذى تذكرينه ..
— انه ليس بأحد

لم اعقل شيئا البتة ولم يبق لى الا ان أنفث عن صدرى ثم امضى ولكنها انطلقت تبين عن نفسها وتشرح حالها فقالت وهى لما تزل مغضبة : ماذا فى الامر ؟ أقول لك ان هذا الانسان لا وجود له ..

وبسطت ذراعيها كأنها هى نفسها لا تدرى لم لا يكون لها أحد كالذى ذكرت ومضت تقول : « على اننى أردته ان يكون .. الست بانسانه كسائر الناس ؟ نعم ، نعم اننى أعرف بطبيعة الحال .. ولكن لا ضير على أحد اذا أنا كتبت اليه حتى أستطيع ان أرى ..
— ولكنه لا وجود له

— أو اه ! أو اه ! وماذا فى عدم وجوده ؟ هو لا وجود له ولكنه قد يوجد ! وأنا كتبت اليه فيخيل الى انه موجود اما تريزا فهى أنا وهو يرد على خطابائى فأعيد الكتابة اليه

واخيرا فهمت واحسست من نفسى باللوعة والتعاسة
والخجل - او ما اشبه ذلك - فها هنا بجوارى وقاب
قوسين او اذننى منى تعيش انسانة ليس لها فى الخلق
اجمعين من يحنو عليها ويظهر لها المحبة فاختلقت هذه
الانسانة لنفسها حبيبا

ومضت تريزا فى حديثها : « فانظرا الان .. كتبت لى خطابا
الى بولز فانا احملة الى من يقرءونه لى فاذا قرأوه لى
اصفيت وتصورت ان بولز هناك ثم اطلب اليك بعدها ان
تكتب ردا من بولز الى تريزا - اعنى الى انا فاذا قرىء
على هذا الكتاب شعرت شعورا لا يخامره الشك بان بولز
هناك بالفعل فتصبح الحياة انعم جنابا واندى مسا »

فقلت لنفسى حين سمعت « يالك من ابله » ومنذ
ذلك الحين وانا اكتب لها بانتظام مرتين فى كل اسبوع
خطابا الى بولز ثم ردا من بولز الى تريزا . وكنت اجد فى
كتابة الردود خاصة وهى بطبيعة الحال تستمع اليها
وتنتحب كما تنتحب عاشقة او على الاصح - تجار بصوتها
الاجش العميق . وكانت تجزئنى على شجوها وتحريك
بكائها بالرسائل الحقيقية على لسان بولز الخيالى ، بما كانت
ترتق لى من جوارى وقمصانى وسائر ملبسى . وقد حدث
بعد اشهر ثلاثة من عهد بداية هذه الواقعة ، ان زجت
فى السجن لامر من الامور ولا شك فى انها اليوم من
سكان القبور .

ونفض محدثى الرواد من سيجارته وتطلع الى السماء
مفكرا ثم قائلا :

« اجل ، اجل ، كلما ذاق الانسان من الحياة مرها ، زاد
نهمه الى حلوها . اما نحن ، نحن المتزملين فى اسمال فضائلنا
فننظر الى الاخرين من سحابة اثرتنا واكتفائنا بانفسنا
واقنعنا باننا المنزهون عن كل شائبة ، فلانفهم من ذلك شيئا »

نزوة هوى

« ل : الكسندر كوبرين »

كانت ليجج من الانوار الساطعة من ثريات ثلاث محلاة
بقطع مدلاة من البلور الموشور تفيض على قاعة التمثيل في
دار الجامعة . وكان المسرح مزدانا بالاعلام والسعف
والافنان المورقة ، وفي الصلح منه معرف كبير ملتصع
الصقل مفتوح اعلاه . وكانت القاعة مزدحمة كل الازدحام
كما هو ظاهر ، ومع ذلك فان الخلق ما برحوا يتدفقون
من الابواب زرافات

وان المرء ليسدر طرفه وهو ينظر الى هذه الجموع
الجالسة نساء ورجالا من ردوس صلعاء وشعور مسترسلة
فرعاء ، ومن السترات الرسمية السوداء المذيلة والبذلات
العسكرية والواب السيدات الزاهية ، ومن مراوح فاخره
تتحرك في لطف ووناء في اكف رقيقة مصونة في قفازاتها
البيضاء ومن حركات مستوفزة ... وابتسامات غزلة
خنثى لاهية .

واذا بمغن وسيم تظهر عليه سيماء الاعتزاز بالنفس
وان شئت فقل الخيلاء يرقى الى المسرح ويخطو الى مقدمه
وهو لابس سترة سوداء مذيلة ، وفي صدره زهرة كبيرة
متفتحة وتبعه على اثره العازف المصاحب غير ملحوظ كأنه
الشبح . وخيم السكون على القاعة .

غير أن عددا من الطلاب المتظرفين الذين يحملون

الشارات على صدور سترتهم ، وهم لجنة التنظيم كما هو جلي ظاهر ، كانوا فى الغرفة الخارجية المتخذة لايداع المعاطف منهمكين يلفظون فى قلق وصبر نافذ . فهم على لهف ينتظرون مقدم هنريت ديكرى المغنية الاولى للاوبرا الباريسية ، وقد نزلت على المدينة للغناء فى هذا الموسم من الشتاء ، ومع انها لاقت وفدا الطلاب لقاء جميلا ظاهر الايناس والبشاشة ، وأكدت لهم انها تعتبر الغناء فى حفلاتهم شرفا عظيما لها ، فقد حان الدور الذى كان مقررا ظهورها فيه ، ولم تحضر بعد . أو تراها تخلت عنهم ، هذا هو الخاطر المقلق المكتوم الذى كان يدور فى أخلاق أعضاء لجنة الاحتفال وهم فى الغرفة الخارجية يكادون من البرد يجمدون ، وقد ظلوا يختلقون الى النافذة يلصقون وجوههم الى زجاجها ويحدقون فى ظلمة هذه الليلة الشتائية ..

وطرقت الاسماع قرقعة عجلة تدرج مقتربة ، والتمع من النافذة مصباحها الكبيران فهزولت اللجنة الى الباب يتصادمون ويتدافعون . انها بعينها « ديكرى » الفريدة . وتضوع فى الغرفة المدة لخلع المعاطف شدا منها عبق . وابتسمت للطلاب ، وأومات بإشارة معنوية الى حنجرتها الملفوفة بفراء السمور الثمين . وهى بإشارتها تريد الابانة عن السبب فى تأخرها إذ كانت لا تستطيع فتح فمها بالكلام لشدة الزمهرير بالغرفة وخشيتها الاصابة بالبرد ..

وكان قد فات دور « ديكرى » من مدة ، وكان الناس الذين أخلفت شوقهم اليها قد قطعوا الأرجاء من انتظارها ، فجاء ظهورها على المسرح مفاجأة سعيدة غمرتهم ، فانطلقت مئات الحناجر الفتية ، وانطلق ضعف هذا العدد من الاكف

القوية ، بتحياتها تحية طويلة يصم دويها الأذان حتى انها شعرت - وهي التي ألقت عبادة الجمهور لها - بلذة غالبية متفرزة من هذا الفيض من التمليق والاطراء

وقفت على المسرح ، وانحنى الى الامام انحناء خفيفة ، وتصفحت عينها السوداء وان الضحوكان الصفوف الاولى من المتفرجين ، وكانت لابسة ثوبا من الاطلس ابيض لامعا ، وكان صدرها منوطا الى كتفها بشريط دقيق وتبدو منه ذراعان بديعتان ، وينم على صدر مشرب ناهد ، وتطول فتحته فيكشف عن نحر باذخ ناصع كأنما هو منحوت من رخام ..

وهذا التصفيق مرات عدة ، ولكنها كانت فى كل مرة لا تكاد تدنو من المعزف حتى تتجدد موجة الحماسة فتردها الى صدر المسرح لرد التحية . وفى آخر الامر أبدت حركة احتجاج ورجاء وابتسمت ابتسامة ساحرة وأقبلت على المعزف . وخفت الهتاف والتصفيق شيئا فشيئا ، وأشخصت اليها القاعة كلها أنظارها ، متيمة بها مفتونة . وخيم السكون كأعمق ما يكون ، ولكنه سكون الاصغاء الحى وفى وسطه انبعثت طلائع نبرات من لحن شجى من وضع « سان سانس »

ووقف « الكساي صاميلوف » وهو طالب طب فى الفرقة الثانية على مقربة من المسرح ، مستندا الى عمود من الاعمدة ، يصغى الى الغناء وقد أطبق جفنيه نصبف اطلاق . وكان كلفه بالموسيقى عجيبيكا يكاد يكون مرضا فليس يسمعها بأذنه ، وحدها ، بل يحسها بكل عصب من أعصابه وبكل نسيج من أنسجة كيانه . وكان جرس هذا الصوت الجميل ينفذ الى أعماق نفسه ويرتد رجفة حلوة تشيع فى سائر بدنه ، حتى ليخيل اليه من آونة لآخرى أن

الصوت يغنى من داخله هو وفى الصميم من قلبه
وكان ما يشفون به كل استعادة من ضجة التهليل
والتصفيق تؤذيه ويعروه منها شبه ألم جسدى ، فينظر الى
جمهرة السامعين نظرة المرتاع المحتج الراجى
واستهلت ديكروا لحنا آخر جديدا . فعاد الكساي
يسبل جفنيه ويستسلم لامواج هذا الصوت الملعن وتمنى
فى لهف لو أن هذا الغناء يستمر أبدا

ولقد اضطروها الى ترديد الغناء مرات ومرات ، ولم
يسمحوا لها بمزايلة المسرح حتى اشارت الى حنجرتها ،
وابتسمت لهم ابتسامتها الحلوة وهزت رأسها فى احتجاج
واعتذار وأصعد « الكساي صاميلوف » زفرة عميقة متقطعة
كانما استيقظ فى التو واللحظة من حلم جميل تراهى له
فى اليقظة ..

وعند هبوطه الدرج أحس فجأة بمن يلمس كتفه ،
فالتفت فرأى « بيبر » طالب الفقه وزميله الاسبق فى
المدرسة وهو نجل مثر مشهور من أصحاب صاميلوف ،
وضمه اليه فى مودة وهمس فى أذنه « انها رضية .
وستكون العربات هنا بعد دقائق معدودات »

فتساءل صاميلوف : « من التى رضية ؟ »
- هى . . . ديكروا . . . لقد أوصينا بأعداد عشاء
فى المطعم الاوروبى . . . انها رفضت بادىء الامر . . .
ولكنها بعد قليل لانت . . . والعصبة ستكون هناك . . .
ستأتى طبعاً ، اليس كذلك ؟

ولم يكن صاميلوف من زمرة بيبر التى تضم « الشباب
الذهبي » من طلاب الجامعة ، وأعنى بهم أنجال كبار الملاك
وأصحاب المصارف والتجار . وبيبر يعلم هذا حق العلم
ولكنه كان مأخوذاً بهزة من التيه والاريفية بحيث أحب أن

يشمل بعطفه كل انسان . فاحتج على رفض صاميلوف :
— أوه ! تعال ، دع هذا اللغو ، لابد من ذهابك ...
ما هي أوجه اعتراضك ؟

فتهااتف صاميلوف مرتبكا وقال :

— انت ترى ... أجل ، انت تعلم ... انى ...

— أوه ... لا عليك انبثنى عن التفاصيل فيما بعد ...
والآن ... يا زميلي القديم أنت معنا

وفى هذه الاثناء وفدت العربات ... وكانت الجياد
تسهل وتنفض رأسها فتجلجل الاجراس حول أعناقها
جلجلة مفرحة . واستقل الطلاب العربات حالهم ونبالهم ،
وانبعثت أصواتهم فى هواء الليل ذى الصقيع فارتدت
صريرا ضابحا مجهودا . وجلس صاميلوف الى جانب
بيبر ، وكان لا يزال فى غمرة تأثيره بالموسيقى . وذهنه
مستغرق فى سباحات من الاحلام عجيبة ، بينما كانت
العربات تتسابق فى الشوارع الخالية المهجورة . وكان
عزيف الريح وتوقيع سنابك الخيل على الثلوج ، وتداعى
الطلاب وجلجلة الاجراس المستمرة ، كل هذه كانت تمتزج
فى انسجام بديع ... وثمة كانت تمر بصاحبنا لحظات
يدهل فيها عن نفسه ، أو ينسى مايجرى له والى أين
يمضون به ..

وعلى مائدة العشاء تحلق الطلاب حول المفنية الحسنة
وظلوا ينحنون على يديها لثما يرجون اليها عبارات اعجاب
جريئة فى لغة فرنسية رديئة . وكان ... وهى بادية
النحر فتانة المحاسر ... أفعل بألبابهم من الشمبانيا ..
وقد التمعت عيونهم بحرارة التوق والرغبة أجمل التماع
.. وهى تحاول الاجابة على كلامهم فى نفس واحد ...
وتكرر ضاحكة وقد استلقت برأسها على الأريكة المكسوة

بالاطلس ... وتقرع بعروحتها منادياها وخطاب ودها
قرعا لطيفا ...

ولم يكن صاميلوف ممن تعودوا الشراب ... فكان
للقدحين اللذين شربهما سورة في رأسه . فانتحى ركنها
يحجب عن عينيه نور الثريات الساطع ، وجلس يرمق
ديكروا بلحاظ مفتونة . وكان يعجب في نفسه من تهجم
رفاقه واجترائهم على رفع الكلفة الى هذا الحد مع المغنية
العظيمة ... وهو في الوقت نفسه حاسد لهم نافس عليهم
... وان شئت فقل غيران ...

وصاميلوف ذو خفر بطبعه . وقد زاده استحياء على
استحياء بالطبع نشوؤه في أسرة دمثة محتشمة شديدة
الحفاظ . وكان خلانه يسمونه « الهانم » لحيائه . والواقع
أن به مشابهة عدة من سداجة الاطفال وغراتهم ، وفيه
طهر نادر في تفكيره وشعوره ...

وتساءلت ديكروا وهي تشير الى الكساي : « من هذا
السيد هنالك في الركن ؟ لكانه خائف منا متوجس كالفار
... لعل السيد شاعر ... » وصاحت المغنية : « اسمع
ياحضرة الشاعر .. تعال ! »

فدنا صاميلوف وهو بادى الارتباك ، ووقف امام المغنية
... وأحس قوة الدم في وجنتيه .
— ياالله ! ان شاعركم لوسيم حقا !

وضحكت ديكروا ، واردفت : « ما أشبهه بأنسة من
الاوانس المعلمات في مدرسة عليا ... وايم الحق ! انه
ليحمر من الخجل .. وما أجمل ذلك ! »

وظلت تستمتع الاستمتاع كله بالنظر الى هذا المائل
امامها بقوامه المعتدل السمهرى ... وطلعت الواضحة
الموردة وقد خط فيها عذار خفيف .. وشعره الذهبي

الناعم المتهدل على جبينه . وعلى حين فجأة امسكت المغنية بيده واجبرته على الجلوس الى جانبها على الاريكة . وقالت بلهجتها الباريسية :

.. لماذا كنت راغبا عن الجلوس الى ؟ انت شديد الكبرياء .. انتظر من امرأة ان تفاتحك ؟

فظل الكساي ابكم لا يحير جوابا ، وانبرى احد الطلاب ولم يكن قد رآه قط في زمريهم يقول فى خبث :

.. سيدتى .. ان زميلنا لا يفهم الفرنسية .. فوقعت هذه الكلمة من الكساي وقع السوط فالتفت بحدة وحدث في المتكلم نظره واجاب باقتضاب ولكن بلهجة فرنسية فصحي - بالفرنسية التى كانت فى وقت من الاوقات فخر العلية الروس ، ولم تزل كذلك فى بعض الاسر - « لا ضرورة مطلقا باسميو لان تتكلم عنى ، وعلى الاخص اننى لم اتشرف بمعرفتك . »

فهتفت المغنية : « مرحى ! مرحى ! » دون ان تفلت يده « وما اسمك يا شاعرى ؟ »

وكان صاميلوف قد هدأت ثائرته ، فعاوده الحياء وعلت وجهه حمرة الخجل وهو يجيب :

.. الكساي

.. ماذا ؟ .. ماذا ؟ ال ..

فأعاد صاميلوف الاسم ..

.. اوه ، هو ما يقابل عندنا الكسيس حسنا يا مسيو الكسيس . ومقابا لك على ابتعادك سـيكون عليك أن تصحبنى حتى مسكنى ، انى فى حاجة الى نزهة .. والا أصبحت قدا وبى صداع .

ووقفت بهما العربية بازاء فندق فاخر فى المرتبة الاولى من الفنادق وساعدها على النزول وهم بالاستئذان منها

فنظرت اليه وعلى محياها حنو يسبى القلب ويفوى اللب
وقالت له : « ألا ترى مقصورتى الصغيرة ؟ »
فتتم منفعلا الاعصاب : « انى اكون ... سعيدا ..
جدا ولكنى أخشى .. ان الوقت جد متأخر .. »
فقالت : « تعال أريد ان يكون عقابى لك تاما ... »

وبينما كانت تبدل ثيابها تطلع الفتى حوله الى الفرفة
فألفاها خلعت على هذا المسكن العادى أناقة رشيقة خليعة
لا تحسنها الا بباريسية . وكان الجو عاطرا بعبير رقيق
مما كان قد آنسه أول ما آنسه حين جلس الى جنبها فى
العربة .

وعادت متوشحة فى مفضلة بيضاء فضفاضة مشبوبة
بمشابك ذهبية ، وجلست الى اريكة شرقية منخفضة
وهى تلملم ثيابا جلبابها حول قدميها . ودعت الكساي
بحركة أمره الى الجلوس بجانبها فاطاع :

— اقترب منى ... اقترب .. اقترب أكثر من ذلك
... هكذا وبعد ، فلنتسار قليلا يامسيو الكساي ، أولا
من اين لك هذا التمكن من اللغة الفرنسية ؟ انك تفصح عن
نفسك بفصاحة مركز
فقال صاميلوف انه كانت له مربية فرنسية منذ نعومة
أظفاره وانه نشأ فى أسرة يتكلم أفرادها أكثر مايتكلمون
بالفرنسية .

ثم جعلت طرح عليه السؤال فى اثر السؤال عن أهله
ودراساته وأصحابه ... دون ان تدع له الوقت للإجابة
على سؤال واحد . وفجأة وفى صوت خفيض رخم
سأله : « قل لى .. ألم تحب امرأة قط ؟ »

— نعم .. حين كنت فى الرابعة عشرة حببت ابنة عمى .
— بشرفك .. ١٩

- بشرقي ..
 - ولم تعلق بامواة قط ... أية علاقة ... ؟
 فأدرك المعنى . وعبثت أصابعه بهدب غطاء المائدة .
 وقال همسا : « كلا أبدا » ..
 « الا تجبني ؟ » قالت بنفس الهمسة الخافتة ،
 ومالت عليه حتى أحس بحرارة وجنتيها ثم هتفت به في
 احتجاج عابث : « انظر حين تخاطب الى وجه من يخاطبك »
 وامسكت برأسه بين راحتيها وجعلته ينظر في عينيها ..
 لقد راعته وقدة نظرتها في أول الامر .. ثم أشجته ..
 وأخيرا اذكت فيه مثل وقدها ... فمال عليها ... وكانت
 شفتاها مخضلتين ملتهبتين

- هل مدام ديكرؤ هنا ؟
 - لا ..
 فأعاد الشاب السؤال : « هل أنت متأكد ؟ ربما تكون
 قد عادت في هذه الاثناء »
 فقال الحاجب البدين المحشور في زيه الرسمي ، ذو
 الوجه المحقن المنتفخ الناعس ، وهو يحك ظهره :
 - ماذا تعنى ؟ هل أنا متأكد !! انه شائى أنا أن اعر ف
 اذا كانت هنا ام لا . لماذا أنت على حر الجمر اهتماما بها ؟
 لقد سمعت الى هنا طوال هذين الأسبوعين ملحفا تعنتنى
 بالسؤال عنها .. ومادمت أقول لك انها ليست موجودة ،
 ليست موجودة فذلك يفض الموضوع .. هى لا تريد رؤيتك
 .. أفاهم أنت ؟ ... هو ذاك الامر كله ..
 الامر كله لقد أحس الفتى بقلبه يجب وجيبا موجعا
 ويحز فيه حين موله بغير جدوى .. أنه يضطرم غيظا .
 لماذا صنعت به هذا ؟ ...

مبارزة

« لنيقولاى ليسكوف »

كان ذلك فى بكرة الصباح ..

و « فلاديمير كلادينوف » فتى وسيم ، مديد القامة ، فى الثانية والعشرين من عمره ، كالفلان مظهراً ، له وجه مليح وشعر وافر اشقر ، يرتدى حلة الضباط ، وينتعل نعال الركوب الطويلة . وكان واقفاً فى مرج معشوشب لساها متساقط الجليد ، وهو شاخص الى ضابط آخر . وذلك الاخر رجل أسبل الشاربين ، بائن الطول ، محمر الوجه ، وكان مواجهاً له على مسافة ثلاثين قدماً ، وهو يرفع على مهل يده حاملة فى قبضتها مسدساً الى فلاديمير . وكان فلاديمير واضعاً ذراعيه متشابكتين على صدره . حاملاً كذلك فى إحدى كفيه مسدساً وهو ينتظر - انتظار من لا يبالى - طلقة النار يطلقها عليه خصمه . وكان وجهه الناضر الصبيح ، وان غشيته مسحة من شحوب ، ترتسم الشجاعة فيه ويعلوه ابتسام المستخف . وكان موقفه المستهدف وما يبدو على غريمه من تصميم مبرم لارحمة فيه ، وذلك الانتباه الشديد من جانب الشهود الواقفين صفاً واحداً لاحس لهم ولا حراك ، كل هذه مجتمعة جعلت اللحظة مروعة بالفة الروع مستفلة غامضة الكنه ، رهبة فاجعة الوقع . انها قضية شرف يجب هنا القضاء فيها . والجميع بجلالها شاعرون . وكانت اللحظة تزيد هولا

بمقدار بعدهم عن ادراك ما هم صانعون

وانطلقت رصاصة . وسرت فى فرائص الجميع رعدة .
هذا فلاديمير يرخى ذراعيه ويشنى ركبتيه ويخر فى مكانه
فهو على الثلج منطرح وقد نفذت الرصاصة فى رأسه .
انه مستلق وذراعا متباعدتان وشعره ووجهه ومتوسد
الثلج تحت رأسه كلها مضرجة بالدم . وهرول اليه الشهود
فاحتملوه وفحصه الطبيب فقرر وفاته . لقد انحلت مشكلة
الشرف وانفض امرها . ولم يبق الا ابلاغ الخبر الى الفرقة
التي يتبعها الضابط وابلاغ النعى بقدر ما يستطيع من
التلطف والتحرز الى الام التي أصبحت من بعده فى الدنيا
مفردة وحيدة فان الفتى القليل وحيدها . وهى لم تخطر
لاحد فى بال قبل المباراة اما الان فالكل يفكرون فيها
ويطيلون التفكير . فالكل يعرفونها ويحبونها ، ويدركون
انه لا بد من التقديم لهذا النبأ الفظيع عندها والتمهيد له
قبل القائه والتدرج فى مساقه ، وفى النهاية وقع الاختيار
على « ايفان جوليوبنكو » بوصف انه اصلحهم جميعا
لتبليغ الخبر للام وتهوين الخطب جهد المستطاع

كانت « بيلاجيا بتروفنا » قد استيقظت ساعتئذ من
نومها . وكانت تجهز لنفسها شاي الصباح حين دخل
الى غرفتها « ايفان جوليوبنكو » مكتئبا مرتبكا

وهبت السيدة المعجوز للملاقة ضيفها قائلة : « لقد جئت
فى الاوان والشاى مجهز يا ايفان ؟ » ثم أردفت : « انك
قادم لامحالة لترى فلاديمير ؟ »

فغمغم جوليوبنكو مجفلا : « لا . . . انما كنت مارا . . . »
— انت لا بد عاذره انه لا يزال نائما . لقد قضى سحابة
الليلة الماضية يلدع غرفته جيئة وذهابا وقد اوصيت
الخادمة الا توقفه فان اليوم عطلة العيد . ولكن لعلك

آت في مهمة مستعجلة ؟

— كلا وانما عرجت عليكم في مرورى لحظة ...

— ان شئت رؤيته أمرت بإيقاظه

— كلا .. كلا .. لا تكلفى نفسك

ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد استقر فى وهما انه
قادم ليرى ابنها فى امر من الامور فخرجت وهى تفهم فيما
بينها وبين نفسها .

وجعل جوليو بنكو يذهب ويجيء مضطربا ، ويقلب
كفيه ، وهو لا يدري كيف يبلغها الخبر انفضيح . لقد ازفت
اللحظة الحاسمة ، ولكنه لم يعد مالكا لنفسه بل ملكه
الروع ، فهو يلعن الحظ الذى ورطه شر مورط فى الامر
كله ..

ولم تلبث بيلاجيا بتروفنا ان عادت واستهلت تقول
وهى تدخل الغرفة مخاطبة زائرها ، سليمة السريرة طيبة
النحيظة :

— وبعد فكيف للمرء ان يثق فيكم معشر الشبان ؟
كنت كما رأيتنى أحاذر ان يسمع للاقداح . واطباها ادنى
حس والتمس الامداد لابنى فى اطالته الرقاد ،
واستسمحك فى عدم ايقاظه ، فاذا هو قد خرج منذ برهة
طويلة . ولم يخلف اثرا ولا ترك خيرا ! ولكن لم لا تجلس
وتشرب قدحا من الشاي ؟ لقد أهملنا شر الاهمال فى هذه
الايام الاخيرة ..

وابتسمت كأنما تبتسم عن سرور مخامر ، واسترسلت
بصوت خافت :

— كانت الاخبار كثيرة عندنا فى تلك الاونة ، وما
أحسب ان فلاديمير استطاع كتمانها ولا بد انه أفضى بها

اليك بحدافيرها كاملة حتى يومنا هذا . ان ابني مستقيم
الطبع مفتوح القلب . والليلة البارحة دارت بخلدني
الظنون مع ما بها من اثم ! فقد قلت في نفسي اذا كان
فلاديمير يذرع الفرفة طيلة ليلته فمعناه انه يفكر في
« لينوتشكا » صبا بها مشوقا اليها ، وانه لمن مألوف عاداته
وديدنه اذا ذرع الفرفة الليل طوله ان يمضي لا محالة في
الغداة . آه يا ايفان ، لست اتمنى شيئا على الله الا ان
يرزقني هذه الفرحة من لدنه يقر بها عيني في هـرمي
وخاتمة ايامي . وماذا تطلبه امرأة عجوز اكثر من هذا ؟
ليس لي غيرها امنية وبشري . وانه ليخيل الى ان ليس
ثمة سؤال ارتجيه من الله بعد اذ يتزوج فلاديمير
ولينوتشكا . ان في ذلك كل القبضة لي ، والسعادة التي
مابعداها سعادة . مالي سوى فلاديمير من حاجة وليس
شيء احبم الى من هناءته

وكان تآثر السيدة العجوز شديدا ، فجعلت تكفكف الدمع
تفرغرت به عيناها ، واسترسلت تتحدث اليه : « او
تذكر ؟ لم تكن الامور في البداية جارية على احسن حال
سواء فيما بينهما او فيما يتعلق بالمال . فانكم معشر
الشبان الضباط غير مسموح لكم حتى بالزواج من غير عتاد
من المال المرصود . حسن ، لقد تم الان اعداد كل شيء :
حصلت على خمسة الالاف رويية اللازمة لفلاديمير . وفي
الامكان ذهابهما الى المحراب لعقد الزواج غداة غد . اجل
ولقد كتبت لي لينوتشكا خطابا ما اعذبه والطفه . ان قلبي
لجلدان مبتهيج »

واخرجت بيلاجيا بتروفا - وهي مسترسلة في كلامها
- خطابا من جيبها واظهرته لجوليو بنكو ثم اعادته : « انها
لفتاة محبة ! وناهيك بطيبة نفسها »

وجلس ايفان جوليو بنكو ينصت الى كلامها وهو على مثل الجمر . وقد اراد ان يقطع عليها هذا الفيض من الاحاديث ويقول لها ان كل شيء قد انتهى وان فلاديمير ابنها مات واصبح في خبر كان وبعد ساعة واحدة لن يبقى لها شيء من هذه الامال الزاهية البهيجة الالوان . ولكنه لم يفعل وجعل ينصت اليها ملتزما الصمت . ونظر الى وجهها الطيب اللطيف فآخذ منه الاشفاق عليها مأخذه واذا حركة تشننج تأخذ بكظمه

واخيرا سألته السيدة العجوز : « ولكن مالى اراك اليوم متجهما ؟ مابالك ان وجهك يبدو مكفها كامدا كالليل »

وود ايفان لو يقول : « نعم ! وسيكون وجهك كذلك حين اخبرك الخبر ! » ولكنه لم يخبرها حرقا واستعاض من ذلك بان اشاح بوجهه ، وجعل يقتل شاربيه

ولم تلاحظ بيلاجيا بتروفا شيئا واستطردت وهي فى افكارها مستغرقة : « ان لك عندى تحية لقد كتبت لينوتشكا فيما كتبت له لى توصينى بان ابلغ تحياتها الى ايفان وان ارجوه الذهاب مع فلاديمير لزيارتها . فانت ترى بنفسك يا ايفان مودتها لك . وايم الله لا يظهر اننى لا أستطيع الاستئثار بهذا وحدى لابد من اطلاقك على الخطاب ولتنظرن انت لنفسك مبلغ مافيه من محبة وعذوبة »

وعاودت بيلاجيا بتروفا البحث عن حزمة الخطابات فى جيبها وسحبت منها طرسا رقيق الورق مقرمط الكتابة ونشرته امام ايفان وحاول ايفان ان يدفع عنه القرطاس الممدود ولكن بيلاجيا بتروفا كانت قد أنشأت تفرؤه :

« عزيزتى بيلاجيا بتروفا - متى يثنى الاوان الذى اخاطبك فيه غير هذا الخطاب فادعوك بيا امى العزيرة المحببة ! اننى ارقب ذلك اليوم متلهفة وان املى لعظيم

بفرب حلوله حتى لفد البيت الا ادعوك منذ الان باسم عم
— يا امى !

ورفعت بيلاجيا يتروفنا راسها ، وتوقفت عن التلاوة
ونظرت الى جوليو بنكو بعينين تملؤهما العبرات

وقالت : « أترى يا ايفان » ولكنها رأت جوليو بنكو
يعضض شاربيه بناجذيه ، ورأت عينيه هو ايضا مغرورفتين
فقامت واقبلت عليه ووضعت يدها المرتعشة على شعره
وقبلته فى هينة واناة فوق جبينه هامسه من شدة التأثر :
شكرا يا ايفان ، لقد كنت دائما اعتقد انك وفلاديمير اهرب
الى الاخوين الشقيقتين منكما الى مجرد صديقين .
لا تؤاخذنى . اننى سعيدة ايما سعادة والحمد لله
سبحانه !

وافاضت الدموع على خديها . واشتد بايفان جوليو
بنكو اضطرابه وارتابكه ولم يسعه الا أن يأخذ بين راحتيه
يدها الباردة المعروقة ويكب عليها تقبلا

وكان مختنقا بالعبرات فلم يستطع ان يلفظ حرفا ولكن
هذه الفورة من الحب الاموى أشعرته بالتبكيك الشديد
حتى لقد أثر انه كان هو الصريع على الساحة وقد نفذت
الرصاصه فى دماغه فذلك أهون عليه من سماع عبارات
الحمد له والتنويه بصداقته وخالص أخوته تجرى على
لسان هذه المرأة وهى بعد هنيهة قصيرة سيتضح لها
حقيقة الواقع وجليه الامر ماذا يكون رأيها فيه وقتئذ ؟ الم
يقف — وهو الصديق وفى حكم الشقيق — ساكنا جامدا
حين كان المسدس مسددا الى فلاديمير ؟ اليس هذا الشقيق
نفسه هو الذى قاس المسافة بين الفريمين وهو الذى
حشا المسدسين ؟ كل هذا صنعه بنفسه ، وقد صنعه
وهو يعى مايصنع ، وهاك الصديق بل الشقيق يجلس الان

صامتا ولا يتقدم حتى هنا للقيام بواجبه
انه جزع مرتعب يحتقر في هذه اللحظة نفسه ولا يستطيع
مع ذلك مغالبتها ليقول ولو كلمة واحدة وان احساسا غريبا
بالتناقض يخرج صلبه ويزهق روحه فهو في كسرب
واختناق . والوقت يمر مسرعا . انه يعلم بمروره وكلمات
زاد به علما وهت عزيزته ولم يقو على حرمان بيلاجيا
بتروفا مما بقي لها من لحظات سعيدة اخيرة . فماذا هو
قائل لها ؟ وكيف يقدم الخبر ويهيؤها لسماحه ؟ حار ايفان
جوليو بنكو في امره واسقط في يده

ولقد انفسح له الوقت هنا ليلعن في سره جميع
المبارزات وجميع المشاحنات وكل ضرب من ضروب البطولة
وسائر ما يسمونه قضايا الشرف على اختلاف ألوانها .
واخيرا هب من مجلسه وهو موطن النفس على التصريح
او الفرار . وأقبل فتناول - معجلا ومن غير كلام - يد
« بيلاجيا بتروفا » وانحنى يلثمها فأخفى بذلك وجهه
عنها واذا سيل من الدمع السخين المدرار ينهمر فوقها .
ثم انتزع نفسه وانطلق لابلوى على شيء ، وأخذ عند الباب
معطفه الكثيف وخرج من البيت دون ان يقول كلمة
وتطلعت بيلاجيا بتروفا وراءه مندهشة ، وقالت في
نفسها « لاشك أيضا عاشق ، مسكين .. كان الله في
عونه . أنها لوعة الصبا تلوعهم ومن بعدها السعادة »
ثم سرعان ما نسيت غاب امره عن بالها ، واستغرقت
العجوز في أحلامها بالسعادة تتراءى لها محققة كاملة !

الصحة

« ل : ليونيد أندريف »

فى ليلة مقمرة من لىالى ايار ، والبلابل يلعلع صوتها
فى القمراء شادية مشجية ، اقبلت اولجا ستبانوفنا على
زوجها الاب اجناتى وهو جالس الى مكتبه . وكانت
اسارير وجهها ناطقة بأمض الحزن واوجعه والسراج فى
يدها مهتز مرتجف . فلما دانت ، لمست براحتها منكبه
وقالت مختنقة الصوت مجهشة :

— ابتاه ، لنصعد الى ابنتنا فيروتشكا !
فتجهم الاب اجناتى وقطب حاجبيه من فوق عدساته
ولم يلتفت اليها ، وظل شاخصا بصره فى الفضاء طويلا
حتى اسقط فى يدها فقلبت كفها تقلب المهوم الجزع
وتهاكت على اريكة منخفضة هناك وقالت :
— ما اقساكما كليكما !

قالت ذلك بصوت متئد وشددت على لفظ « كليكما »
ابلغ التشديد وافجعه وقد تقلص وجهها المظهم الحنون
بأمارات من الالم والعت وكأنا ارادت ان تفصح بسيمها
وامارات محياها عن مبلغ ماتعانى من قسوة القسوم :
زوجها وابنتها

وارسل اجناتى ضحكة فاترة ونهض . ثم اطبق كتابه
وخلع عدساته ودسها فى علبته واطال التفكير مكتئبا .
وقد استرسلت على صدره اجمل استرسال لحية جثلة

وخطها المشيب وكانت تملو وتهبط فى هواده مع انفاسه
المرددة العميقة . وبعد هنيهة قال : « حسن . نذهب »
فهبت أولجا واقفة . وقالت تناشده بصوت متوجس
متزلف : « وانما رجائى اليك يا ابتاه الا تعنفها انت تعرف
طباعها » ..

وكانت غرفة فيروتشكا على سطح المنزل ، والدرج المؤدى
اليها خشبى ضيق فكان ينيخ ويصر تحت اقدام الاب
اجنائى وخطاه الثقيلة . وقد اضطر الرجل لطول قامته
وعظم جرمه ان ينحنى حتى لاتصطدم هامته بسقف
السلم . وكانت زوجته فى ثوبها الابيض فلمس ردفها
وجبه فانقبضت أساريه وعيس متمللا متبرما وولج
الغرفة وراءها وهو موقن انها لن يخرجها من الحديث
عن ابنتهما فيرا بادنى طائل

وقالت فيرا : « يالله هذا انتما ؟ » ورفعت الى عينيها
ذراعا عارية . وبقيت ذراعها الاخرى على اللحاف الصيفى
الابيض تتميز عنه لفرط بياضها وشفوف لونها وبرودة
مجسها ..

فابتدتها الام بنداها « فيروتشكا » وخنقتها العبرة
فسكتت . وقال الاب اجنائى وهو يجاهد للتلطيف من
خشونة صوته وجفوته : « فيرا اخبرينا ماذا بك ؟ »
فظلت فيروتشكا صامته

وعاود الاب اجنائى خطابه : « فيرا .. اترين أمك وانا غير
اهل لمناجاتنا بأمرك والاستراحة الينا بذات صدرك ؟
السنا نجبك ؟ وهل لك من أحد هو أقرب اليك وأمس
بك منا ؟ بنى الينا شجوك وصدقينى - انا الشيخ المجرب
- انك واجدة بعدها بعض الراحة ، وكذلك نحن انظرى
الى أمك العجوز وكيف عذابها . فيروتشكا ، وأنا .. » وهنا

تهدج صوته وكانما انشعب شيء فيه وانصدع شطرين
» ٠٠ « وانا ايهون ذلك على ، تحسبينه يهون ؟ كاني لست
أبصرك نهب لوعة . . . ولكن ماهي ؟ وانا أبوك تتركيني على
جهل بها ابصح هذا ؟ «

ولكن فيروتشكا ما برحت صامته والاب اجناتى جالس
حيالها يبعث بلحيته ويمسح عليها في تحفظ ظاهر كأنما
يخشى أن تنالها بالنتف اصابعه المضطربة من حيث لا يشعر
ومضى في حديثه يقول :

« خالفت مشييتى وذهبت الى بتروغراد - فهل لعنتك
على مخالفتك اياي ؟ اكنت عليك يوما بالمال ضنيئا ؟ اتقولين
اني لم اك برا بك ، حديا عليك ؟ اذن لم لا تتكلمين ؟ انظري
اي خير اصبحت من بتروغراد ! «

وانقطع الاب اجناتى عن الكلام فجأة ، وتمثل لخاطره
كالعيان بناء من الجرانيت هائل رهيب حافل باخطار
راصدة كامنة مكتظ بخلق غريبة اطوارهم جاسية مشاعرهم
وهنا ذهبت فيروتشكا وحيدة ضعيفة ، وهنا كان تلفها
وضياعها . فجاشت في نفس الاب اجناتى نقمة على تلك
المدينة الهائلة الفامضة تشوبها النعمة على ابنته تلك
التي ما فتئت صامته في تشبث وعناد . .
أما هي فأجابته بجفاء وقد أطبقت جفניה :

- لا دخل البتة لبتروغراد فيما انا فيه . على انه
لا شيء بي . والاولى أن تذهبا للنوم فالساعة متأخرة
فأنت الام : « فيروتشكا اطمئني الى سريرتك يا ابنتي ! »
فقاطعتها فيروتشكا نافذة الصبر : « كفى يا أمي »
وجلس الاب اجناتى على مقعده وجعل يضحك ، ثم قال
متهكما : « حسن والله ! ليس في الامر شيء بعد هذا -
كله ؟ «

فاجابت فيروتشكا بلهجة حادة وقد اقامت صمعتها
واستوفزت في فراشها :

« ايت انت تعلم حبي لك ولاى ولكنى انما اشعر بخمود
شديد وسيزول هذا كله .. والحق انه اولى لكما الذهب
للنوم واني لراغبة فيه ايضا .. غدا او فى يوم من الايام
سيكون لنا متسع للحديث »

فهب الاب اجناتى قائما قومة واحدة حتى ارتج مقعده
وصدم الحائط وراءه واخذ بذراع زوجته قائلا « لنذهب »
فانت هذه « فيروتشكا ... »

فصاح بها الاب اجناتى : « قلت لك لنذهب . واذا
كانت قد نسيت الله ، فهل نساها مثلها ولماذا .. »

واجتديها للخروج فى شيء من العنوة والقسوة .
وكانت - وهما يهبطان السلم - تجر اقدمها جبرا
يزداد ثاقلا وضعفا . وغمضت المرأة فى همسة مفضبة
« اف ! انت ايها القس الذى جعلتها كذلك . عنك دون
سواك اخذت هذا الطبع ، انك لمستول عنه .. آه ياربى
ما اتعسنى ! »

وجعلت تولول واكفة الدمع مطروفة الجفن حتى لم
تعد تبين مواقع خطاها بل كانت تاركة قدمها تهبط
الدرج كأنه هاوية ترغب فى التردى فيها .

ومن ذلك الحين صحت عزيمة الاب اجناتى الا يكلم
ابنته . وكانما لم تطفن الابنة الى هذا التغيير منه وظلت
كعهدها تضطجع آونة فى غرفتها وآونة تعمد الى الخروج .
وكانت كثيرا ما تمسح بالراحتين عينيها . كان عليهما غشاوة .
ولكن صنمت الاب وابنته كان يقبل على الام ويكرهها فباتت
وهى بالامس المولعة بالمزاج والضحك تبعد أهل الأرض

عنهما فتراها ذاهلة منقبضة لا تكاد تعرف ماذا تقول
او ماذا تفعل ..

كانت فيروتشكا - كما تقدم القول - تخرج احيانا
تتمشى وتعود . فحدث بعد اسبوع من المقابلة الانفه
الذكر ان خرجت خرواجها المعتاد كل مساء . وشاء
القدر ان تكون هذه آخر رؤيتهما لها حية ، فانها فى ذلك
المساء ألقت بنفسها تحت عجلات القطار فشطرها نصفين .

وقام الاب اجناتى بدفنها ولم تشهد زوجه حفلة
الصلاة فى الكنيسة لان صدمة نعى فيروتشكا أصابها
بالفالج فقدمها وذراعها ولسانها جميعا مشلولة الحركة
فبقيت طريحة الفراش فى غرفة محجوبة الضوء . وعلى
مقربة منها تدق الاجراس فى القباب معولة نادية . وانها
لتسمع موكب الجنازة خارجا من الكنيسة وتسمع المرتلين
ينشدون فى مرورهم امام المنزل ولقد همت لترفع يدها
وترسم اشارة الصليب فلم تطاوعها يدها . وارادت ان
تقول « الوداع يا فيروتشكا » ولكن لسانها لصب فى فمها
هامدا مورما ثقيل . وهكذا بقيت طريحة بلا حراك حتى
ليحسبها الرائي هاجعة فى ثقلة الكرى لولا عيناها المفتوحتان

وشهد الجنازة فى الكنيسة جمع حافل من معارف
الاب اجناتى والقرباء عنه . وكلهم مترحم على فيروتشكا
متوجع لمصرعها . وهم فى الوقت نفسه يتتبعون حركات
الاب اجناتى ونبرات صوته ليستدلوا بها على عميق
حزنه ولاعج جواه اذ كانوا فى قرارة نفوسهم لا يحبون
القس لما فى خلقه من عنجهية وعجرفة ، ولشدته
وصرامته مع من اذنب منهم - ثم اراد على يديه التوبة
والانابة - فضلا عن انه حسود جشع لا تعرض له فرصة
الا انتهازها ليتقاضى من دائنيه أكثر من حقه " فهم

جميعا يودون التشفى برؤيته متألما كسيرا ، يودون أن يروا منه الإقرار على نفسه بذنبه المضاعف في مصرع ابنته - بصفته ابا فظا غليظ الطبع ثم بصفته قسا ظهر عجزه عن وقاية لحمه ودمه وفلذة كبده من الخطيئة . وهم قد أمعنوا في ملاحظته والتطلع اليه . ولكن الاب اجناتى كان قد آنس اتجاه انظارهم أجمعين الى كاهله العريض المكين ليروا كيف تنحنى قناته وبطاطيء اشرافه تحت وقر الفادحة فلم يال جهدا في نصب قامته واقامة صعدته . وكان في تلك الساعة أقل تفكيرا في فقد ابنته منه في صون كرامته

والمع كرزنوف وقد انفض رأسه الى ناحيته : « قس صلب منيع » وكرزنوف هذا نجار يدين القس بثمن بعض الاطر وعلى هذه الحال من رباطة الجأش واستقامة الشطاط سار الاب اجناتى الى المدفن وعلى هذه الحال نفسها عاد منه ، حتى اذا كان باب غرفة زوجته انحنى كاهله قليلا - وقد يكون سبب ذلك ان الباب دون قامته ارتفاعا . وكان الرجل قادما من وضوح النور فلم يتبين وجه زوجته عند دخوله عليها فلما ان تبينه وجسدها هادئة . ووجد انه لا مدمع في عينيها ، وليس بهما نقمة ولا حزن فهما خرساوان صامتتان صمت الم وعناد وكذلك كان جسمها البدين المتراخى المسند الى حاجز الفراش .

فسألها : « والآن ماذا ؟ .. كيف حالك ؟ » ..

ولكن شفيتها ظلتا خرساوين وعينيها ما زالتا صامتتين فوضع الاب اجناتى راحته على جبينها فاذا هو خصر رطب ولم يبد من اولجا ستيانفنا ادنى دلالة على انها احسنت لسته فلما ان رفع راحته عن جبينها كانت عيناان غائرتان سوداوان تشخصان اليه منهما دون ان يطرف لهما هذب وتكاد تكون حدقة العينين فاحمة كلها بسبب

تمدد انسانهما ولم يكن فيهما حزن ولا نفقة .
فغمغم الاب اجناتى وقد بردت اطرافه وارتعادت
فرائصه : « حسنانا ذاهب الى غرقتى »

واجتاز قاعة الاستقبال حيث كل شيء كمهده نظيف
مرتب والمقاعد الكبيرة مسريلة في اغطيتها البيضاء
كانها الموتى في اكفائها . وفي احدى النوافذ قفص معلق
ولكنه كان خاويا وبابه مفتوح .

ونادى الاب اجناتى « نستاسيا » فبدأ له ان صوته
اجش وأحس انه يسئ صنعا بعيد جنازة ابنته ان يرفع
الصوت الى هذا الحد في تلك الحجرات الهادئة فعاد
النداء بصوت أكثر تلطفا وخفوتا :

« نستاسيا أين الكنارى ؟ »

فأقبلت الطاهية وأنفها من كثرة النحيب منتفخ وارم
ولونه فان كالجزر وأجابت بجفاء « لا أدري لقد طار »
فقطب الاب اجناتى حاجبيه مغضبا وصاح بها : « وكيف
تركته يطير ؟ » .

فأجهشت تبكى وتمسح دموعها بدوائب المنديل
المعصوب به رأسها وقالت : « انه الروح الجميلة العزيزة
لسيدتى الصغيرة الراحلة فكيف لى بحبسه ؟ »

وخيل الى الاب اجناتى نفسه ان الكنارى الصفيير
الفاقع اللون السعيد الذى كان دأبه التفريد شامخا
برأسه كان حقيقة روح فيروتشكا وانه لو لم يطر الكنارى
لما صح القول بموت فيروتشكا .

فاشتدت نفقته على الطاهية وصرخ بها : « اغربى عن
وجهى » ولما لم تبادر الى الباب توا زاد : « مجنونة » .

ومنذ يوم الجنازة والصمت مخيم على هذه الدار
الصغيرة . . وليس المراد بالصمت هنا السكون ،

فالسكون انما هو عدم الجلبة . واما الذى هنا فهو الصمت وذلك أنه يشعر أن الدين التزموه في مقدورهم الكلام لو شاءوا . وهذا الشعور يقع في نفس الاب اجناتى حين يلج غرفة زوجته فيلاقي نظرتها الشاخصة ملحة ثقيلة حتى لكانما استحال هواء الغرفة رصاصا يضغط على رأسه وينقض على ظهره . وهذا الشعور يقع في نفسه حين يتأمل معزف ابنته الذى انطبع عليه صوتها الحى ، وحين يتطلع الى كتبها ويقبل على صورتها - وهى صورة لها بالالوان جاءت بها معها من بتروغراد - ولقد اخذ على نهج خاص يتفرس فيها .

فهو يقبل أول ما يقبل من الصورة على عنقها يتأمله وهو منها بمطرح الضوء ، فيخيل اليه ان عليه فى الصورة خدشا كالذى كان على جيد فيروتشكا الميتة . وانه لفى حيرة من أمر هذا الخدش ومنشئه ، وهو فى كل مرة يعمل الفكر للاهتداء الى سببه وعلته . فلو ان القطار هو الذى صدمها فى هذا الموضع لكان هشم رأسها بأكمله ، ورأس فيرا الميتة سليم كل السلامة .

اترى بعضهم وطأها برجله وهم يرفعون الجثة لحملها الى المنزل أم انه اثر ظفر خدشها من غير قصد ؟

ولكن اطالة التفكير فى تفصيل مصرعها كان يشق على الاب اجناتى ويروعه ، فيتحول عندها الى تأمل عينيها فى الصورة . وكانتا سوداوين نجلاوين وكان لاهدايهما الوطفاء ظل وريف تحتها يزد بياض المقلتين نصوعا فتبدو العينان وكأنهما فى اطارين من اطر الحداد السود وقد جعل لها المصور المجهول - وهو لاشك من الفنانين الموهوبين - معنى قريبا . فقد كان يخيل ان بين هاتين العينين وبين ماتقعان عليه غشاء رقيقا شفيفا ، كما تعلق

غطاء معزف البيانو اللامع السواد غشاوة من غبار الصيف خفيفة لا تكاد تبين وهى على خفائها تكمد من اللاء الخشب المجلو . وكان الاب اجناتى فى حيثما وضع الصورة تابعته عينها غير ناطقتين ، بل ابدا صامتتين . وبان للصمت فى المنزل وجود ظاهر حتى ليخيل أن فى الامكان سماعه . وما زالت الحال على هذا المنوال حتى وقر فى نفس الاب اجناتى انه يسمع الصمت .

وكان الاب اجناتى بعد تأدية القرбан المقدس فى كل صباح يقصد الى قاعة الجلوس ويأخذ بصره لمحة واحدة قفص الكنارى الخاوى وسائر الاثاث فى ترتيبه المهود فيجلس فى أحد المقاعد الكبيرة ويطبق جفنيه ويستمع الى صمت المنزل . وكان امرا عجبيا فالقفص صامت فى وداعة ولطف وفى هذا الصمت كان يحس الاسى والدموع والضحك الفقيد البعيد جميعا . ثم صمت الزوجة وكان مع قيام الجدران من دونه واثر امتراضها فى تخفيف وطأته لا يزال ملحا ثقيل كالرصاص . . ومرعبا ، مرعبا حتى لياخذه برد المقرور فى أشد الايام وقدة قيظ . اما الابنة فكان صمتها لا آخر له باردا كالقبر غامضا كالموت ، ثم كان الصمت كأنما يشقى بنفسه وكأنما يتلف على التحول الى نطق لولا أن شيئا له قوة الالة وجمودها يمسكه عن الحركة ويمده كامتداد السلك . واذا السلك يهتز من مكان بعيد لا يعرفه على وجه التحديد ، ويصدر عنه صوت ناعم خافت حنون . فيحفز الاب اجناتى حافر من الرغبة المشوبة بالرهبة التى تسقط بادرة هذا الصوت فيشد بكفيه على جانبى المقعد ويمد رأسه متسمعا مترقبا بلوغ الصوت اليه، ولكن الصوت ينقطع وينطوى فى غمرة الصمت ويهتف الاب اجناتى وقد ركب الغضب « عبث باطل

وأضغاث أحلام » ويهب من مقعده مديد الشطاط ناصب القامة كهده على الدوام .

وكانت نافذة القاعة تشرف على ساحة السوق السابحة في وضح الشمس والساحة مرصوفة بحجارة مصقولة الاطراف ممردة . وفي الناحية الاخرى يقوم سور حجري ممدود لا نوافذ له وهو لمخزن من مخازن البضاعة . وكانت في الركن مركبة واقفة كأنها نصب من الطين قائم ولم يكن السبب مفهوما في استمرار وقوفها هناك مع ان الساعات الطويلة تنقضي ولا يظهر عابر واحد في هذا الطريق

وكان على الاب اجناتى فى خارج البيت أن يتحدث الى الكثيرين : مع مرؤوسيه من رجال الدين ومع السكان فى دائرته الكنسية فى أثناء قيامه بفرائضه وأحيانا مع معارفه يحاورهم فيما هو مأثور ومحمود ، ولكنه كان حين يؤوب وتحتويه غرفته يخيل اليه أنه قضى سحابة نهاره صامتا ذلك أنه لم يكن ليتحدث الى واحد من هؤلاء عن المسألة التى هى عنده أم المسائل وأهمها وإلتى تهيج كل ليلة يلابله وتلج خاطره : فيم ميتة فيروتشكا ؟ ١٩ ٠٠

ولقد أبى الاب اجناتى التسليم بينه وبين نفسه باستحالة حل هذه المعضلة ولم يزل على اعتقاده بإمكان كشفها وجلاء غامضها

فكان يحيى لياليه مسهدا تعاوده كل ليلة ذكرى اللحظة التى وقف فيها وزوجته فى جوف الليل الى فراش فيروتشكا وهو يستعطفها ويسوق اليها الرجاء أن «تكلمي» فإذا بلغت به الذكرى الى هذه الكلمة تمثلت له بقية المشهد على خلاف ما وقع . ولقد ادخرت عيناه المطبقتان فى ظلامهما صورة حية لا لبس بها من تلك الليلة ، فهما تمثلان فى جلاء فيروتشكا وقد استوفزت فى فراشها وقالت مبتسمة ولكن ماذا قالت ؟ ٠٠ ان تلك الكلمة التى لم

تلفظها والتي بها جلاء المشكل كله تلك الكلمة تبدو كأنها
قريبة جد قريبة ٠٠ فلو أنه يرهف سمعه ويسكت خفقان
قلبه اذن لسمعها - ولكنها في الوقت نفسه كانت بعيدة
بلا حد وبغير أمل ٠٠

عندها يهب الاب اجناتى من فراشه ويبسط يديه
مضمومتين معا في توسل وضراعة مناديا : « فيروتشكا » .

ولا جواب على ندائه الا الصمت ٠٠
وفي ذات مساء قصد الاب اجناتى الى غرفة اولجا
اسييانفنا زوجته بعد انقطاعه عنها زهاء اسبوع وجلس
عند فراشها وهو مشيح بوجهه عن ناظرها الشاخصين
الفاجعين وقال :

« أيتها الام أريد التحدث معك عن فيروتشكا أسمعيني ؟ »
فظل ناظرها صامتين فرفع الاب اجناتى عقيرته واشتد
مثل شدته مع المعترفين في خطابها :

« أعرف انك تحملين على الذنب في مصرع فيروتشكا .
ولكن مهلا أكنت أقل منك حبا لها ؟ انك لغريبة . الرأى -
لقد كنت متزمتا متشديدا ولكن هل خال ذلك بينها وبين
ما شئت ؟ لقد تفاضيت عما لى عليها من حق . الوالد في
الحرمة والاعتبار فطاطات صاغرا حين ارتحلت - غير حافلة
نعمتى واستنزال لعنتى - الى هنالك ، وأنت - أيتها الام -
ألم تضرعى اليها باكية تناشدينها البقاء حتى أمرتك أن
تكفى ؟ أمستول أنا عن أنها ولدت قاسية القلب ؟ ألم أعلمها
ما ينبغى علمه عن الله والطاعة والحب ؟ »

وأدار الاب اجناتى ناحية زوجته نظرة خاطفة الى عينيها
الشاخصتين ثم أشاح مستأنفا :

« ماذا كنت صانعا معها وقد أوصدت دونى مغالبق
صدرها وأبت الكشف لى عن شجوها . أكنت أمرها ؟ لقد

أمرتها • أكنت استعطفها ؟ لقد استعطفتها • ماذا ؟ أترى
أنه كان على أن أجثو عند قدمي الصبية راكعا وأنتحب
كالمرأة العجوز ؟ • ما الذي قام بعقلها ، ومن أين أصابها
ما أصابها ، لست أدري • يا لها من ابنة عاق لا قلب لها !!

ودق الاب اجناتى على ركبتيه بجمع يديه
• لقد تجردت من الحب - هو ذاك • انى أعرف ما كانت
تصفنى به ، مستبد غشوم • وأنت كانت تحبك أليس
كذلك ؟ أنت التى بكيت و • • • تذلت ؟ ،
وضحك الاب اجناتى ضحكة خافتة :

• تحبك أى نعم ! وهى - برا بك - قد اختارت هذه
الميتة ، ميتة شنيعة شائنة ! فماتت على القفض والحصى
المفروشة به السكة الحديدية ، ماتت على الاقدار • •
كالكلب جندلته رفسة بالنعل على خطمه ،

وغمغم الاب اجناتى بصوت هامس أبح :
• ما أشد خزى ! انى ليتولانى الخزى اذا خرجت الى
الطريق ، يتولانى اذا خرجت من المحراب ، يتولانى بين
يدى الله • يا لك ابنة قاسية خسيصة • • انك لتستحقين
اللعنة فى قبرك •

والقى الاب اجناتى على زوجته ثانية فاذا هى
مفشى عليها ولم تفق من غشيتها الا بعد ساعات • ولما
أفاقت كانت عيناها صامتتين ، هيهات يعلم الناظر اليهما
ان كانت فقهت أو لم تفقه مقال الاب اجناتى لها

وفى تلك الليلة - وكانت ليلة مقمرة من ليالى تموز
ساجية دافئة يخيم السكون عليها - قام الاب اجناتى يذب
على أطراف قدميه حتى لا تسمعه الزوجة ولا ممرضتها
وصعد السلم الى غرفة فيروتشكا وكانت نافذتها من يوم
وفاة ابنته لم تفتح، وكان فى جوها حرارة وجفاف تشوبهما

رائحة احتراق خفيفة من حديد السقف المستهدف طوال
النهار لوقدة الشمس • وكان احساس الوحشة والاقواء
مخيمهما على الغرفة التي طالت غيبة الانسان عنها ، وكانت
الالواح الكاسية لجدرانها وسائر ما بها من الاناث وغيره
يتفلوح منها مثل ربح العطن والانحلال

وكان ضياء القمر ينفذ من زجاج النافذة وينبسط على
ارض الغرفة كشریط وضاء ، وكانت تعكسه المناضد بطلانها
الابيض الناصع فينير اركان الغرفة بنور كليل شعشاني
ويبدو الفراش الابيض التنظيف بوسادتيه الكبرى
والصغرى وكأنه شبح من عالم الاطيفاف • وفتح الاب
اجناتي النافذة فاندفع الى داخل الغرفة تيار غمره من
الهواء النقي يستروح فيه التاشق تراب النهر المجاور
وعبق الزيزفونة الزهرة ويحمل الى المستمع المصفي
نشيدا خفيضا لعله لقوم في قارب على النهر يجدفون وفي
تجديفهم ينشدون :

ودب الاب اجناتي عارى القدمين كأنه الطيف لا يحدث
صوتا ودنا من الفراش الخاوى وخر مكبا على وجهه فوق
الوسائد يضمها - في حيث كان متوسد وجهه فيروتشكا
وظل على هذه الحال طويلا وتعالى النشيد في
الخارج ثم أخذ يخفت حتى لم يعد مسموعا والاب
اجناتى لا يزال في مكانه وشعره المرسل مشعث مهمل
على كتفيه وعلى الفراش

ودلف القمر في مسراه مجتازا فاظلمت الغرفة
واستفاضت العتمة ، ورفع الاب اجناتي رأسه وهتف
بصوت أفرغ فيه كل حبه الذي كبته وأطال كظمه بلا بث
ولا تصریح • وكان يهتف وينصت لما يقول وكان المنصت
ليس هو وانما هي فيرا : « فيرا يا ابنتى ! أتدركين معنى

ابنتى ؟ يا بنيتى ! مهجتى ! دمي حياتى ! هذا أبوك ، أبوك
الشيخ المسكين وقد علاه الشيب وخذلته القوى ،
وانتفض منكباه وسرت رجفة فى كيانه الضليع من فرعه
الى أخمص قدمه . ثم همس متهدجا فى صوت رقيق لين
كانما يناغى طفله :

« أبوك الشيخ المسكين يسألك .. نعم يا فيرا انه
يستعطفك . انه ليبيكى ولم يكن اليكاء قط من شأنه .
ان أملك يا بنيتى ولوعتك يحزان فى نفسى كما لو كانا
بى . بل أشد وأنكى ،

وهز الاب اجناتى رأسه :

وأشد وأنكى يا فيرا . وما يكون الموت عندي أنا الشيخ ؟
ولكن أنت ... آه لو علمت ما كان من رقتك ولطافة بنيتك

ومبلغ حياتك وتهيبك ! أتذكرين اذ وخزت ابرة أصبعك
ونضح منها الدم فطفقت تصرخين . نعم يا بنيتى ! وكنت
تجبيننى حقا بل تشغفين بى حيا . أعلم ذلك ، وكنت فى
كل صباح تقبلين يدي . تكلمى ، خبرينى عن هذا الذى
يحزنك . فانى بهاتين اليدين خالق حزنك . انهما ما برحتا
قويتين هاتان اليدان يا فيرا »

واهتزت خصائل شعره : « تكلمى »

وشخص بعينه الى الحائط وبسط يديه وصاح :

« تكلمى » ..

ولكن الغرفة صامتة . ثم حملت الريح اليها من بعد
سحيق هتفات مديدة ومقتضبة من صفير قطار عابر ..

فأدار الاب اجناتى عينيْن اتسع حملاقهما كان أمامه
شبح الجثة مبتورة الاشلاء ممثلا لعيانه . ثم نهض من
ركوعه على مهل متساندا ، ورفع كالذاهل الى رأسه يدا
مشنجة منفرجة الاشاجع مملوذة الاصابع . ومضى الاب
اجناتى الى الباب وفى خروجه همس فى حدة : « تكلمى »

فكان اجوابه الصمت ..

في اليوم التالي تناول الاب اجناتى غذاءه على انفراد
ميكرا ثم أخذ سمته الى المدفن لاول مرة بعد وفاة ابنته .
وكان المدفن موصدا مهجورا لا تحس فيه نامة حتى لكان
النهار القائط لفرط هدوئه ليلة منيرة اضحيانة على أن
الاب اجناتى نصب قامته كدأبه مجاهدا ، وأدار بصره من
جانب لآخر بجفوة وصرامة وهو يزعم أنه كعهده بنفسه لم
يتغير ولم يظن الى تخاذل طارىء فظيع يفت فى ساقيه ولم
ير الى لحيته المسترسلة قد اشتعلت شييا كانما أصابها
صقيع هتون . وكانت الطريق الى المدفن طويلة ممتدة
مستقيمة الامتداد آخذة فى ارتفاع لطيف المرتقى وفى
اخرها باب المدفن من خشب الزيزفون يظله سقف أبيض
ملتصع فكانه فم مسود الحلق فاغر الشدقين وعلى حافته
أنياب قواطع لوامع

• وكان قبر فيرا موغلا فى جوف المدفن بعد أن تنتهى
الماشى المفروشة بالحصباء . فكان على الاب اجناتى أن
يطيل الطواف فى مسالك ضيقة مجتازا بمنعرجات من
كتبان صغيرة من الاجداث نائمة بين الحشائش مهملة
منسية من الجميع . وكان يلتقى هنا وهناك بأنصاب
متداعية حائلة اللون مخضرة من القدم وحواجز مقوضة
متهدمة ورجام من الحجارة ثقال ضخام ملقاة تبهظ صدر
الثرى كان بها عليه حقدا كحقده الشيخ بأسرا متجهما

وعلى مقربة من بعض هذه الرجام كان قبر فيرا . وكان
المدر المشوش فوقه مصفرا ذابلا على حدائة عهده وعلى
حين كان ما حوله كله يانعا ناضرا ..

وكانت هناك دوختان متشابتتان ، والى ناحية منهما
خميطة ممتدة من شجيرات البندق وارقة الظل تبسط

افناتها اللينة الاعطاف بأوراقها. المخشوشنة الوبراء على القبر
فجلس الاب اجناتى على ضريح تجاه ضريح ابنته وهو
يتنهد بين الفينة والاخرى وجعل يتلفت حواليه والقى
نظرة على صحراء السماء الضاحية . وكان قرص الشمس
المتقد معلقا فى مكانه جامدا بغير حراك فاحس الساعة فقط
عمق ما يرين على المدفن من سكون ليس كمثله سكون
والرياح هامة لا تهفو لها نسمة فى الاوراق الجافة المبتة
وقام فى خاطر الاب اجناتى مرة اخرى أن هذا ليس
بالسكون ولكنه الصمت وفاض الصمت فاض وطم حتى
بلغ أسوار المدفن نفسها وتسورها متثاقلا وانساح يغمر
المدينة وأما آخر طرفه الاخر قائما هو هنالك فى هاتين
العينين السوداوين الشاخصتين المصرتين فى تعنت وعناد
على الصمت ..

هز الاب اجناتى كتفيه وقد سرت البرودة فيهما .
وسرح نظره على قبر فيرا . وطال تأمله لعيدان الحشائش
المقصيرة المصوحة وقد كان انتزاعها من منابتها ببعض
الرياض النزهة الفيحاء فلم يتبها لها تأصل وترعرع فى
هذه التربة الجديدة

ولقد عز على الاب اجناتى أن يعقل انه من تحت هذه
الحشائش هنا وعلى بعد بضعة أشبار منه ترقد فيرا ربدا
له أن تدانى الشقة الى هذا الحد أمر غير معقول . وان
نفسه ليخامرها من ذلك حيرة وتوجس غريب فتبكت الله
تعود التفكير فيها على أنها طويت فى ظلام الابدية السحيق
طى الابد كيف تكون هنا قريبة ؟ وأنه لعسير على الفهم أن
تكون مع هذا القرب كله قد غابت عن الوجود وانها لن تعود
وخيل الى الاب اجناتى أنه لو نبس بكلمة .. بالكلمة التى
يكاد يحسها على شفثيه أو أنه لو أوما بإشارة لأقبلت عليه

من القبر ووقفت أمامه مشوقة لقد جميلة كعهده بها .
ثم انها لا تقوم وحدها بل ان الموتى أجمعين الذين نحس
بهم وترتاع من رهبة صمتهم وبروده كل هؤلاء أيضا يقومون
وخلع الاب اجناتى قبعته السوداء العريضة الحاشية
ومسح بيده على ذوائبه المشعثة وهمس مناديا : « فيرا »
ثم أوجس أن يكون بمسمع منه غريب فاعتلى الضريح
وتطلع من فوق الصليبان ولم يكن على القرب أحد فأعاد
النداء رافعا صوته : « فيرا »
وكان صوته صوت الاب اجناتى المعهود من قديم جانا
آمرا فكان عجيبا أن نداء بهذه القوة يبقى بغير جواب : « فيرا »



ومضى الصوت ينادى عاليا ملحا ، فلما أن سكنت لحظة
خيل للاب اجناتى أن جوابا غامضا دوى من تحت أطباق
الثرى ٠٠ فتلفت حواليه مرة ثانية ، ورفع مسترسلا لحيته
عن أذنيه وأصمقهما على المدر المخشوشن الشائك فوق
القبر ونادى : « فيرا تكلمى »

فأحس الاب اجناتى وهو فزع أن شيئا له برودة القبر
قد نفذ الى أذنه وجمد له عقله وان فيرا تكلمت ولكن كلامها
هو الصمت الطويل نفسه وظل الصمت يزيد روعة وهولا .
ولما اجتذب الاب اجناتى رأسه عن الارض ووجهه صاحب
كوجه الميت خيل اليه كأنه الهواء يهتز وينبض بصمت ذى
صدى مرنان وكان ريجا عاتية ثارت على ذاك العيلم
المخوف . لقد أخذ الصمت بكظمه وأزهق أنفاسه وجسدت
موجاته الثلجية تندفع فى رأسه جيئة وذهابا فيقف لها
شعره أشعث مستطارا ثم تندفع فى صدره وتتكسر عليه
فيثن ويتأوه من وقع صلواتها . ولقد ظل مرتعد الفرائص
يقلب الحاظا عصبية خاطفة من ناحية لآخرى ثم قام متحاملا

فى اتقاد وبطء ، وجاهد أشد الجهد وانكاه ليرفع قامته
ويرد الى بدنه المرتجف مشية الكبرياء المعهودة . وقد
أفلح بعد لائى وأخذ ينفذ التراب عن ركبتيه متمهـلا
مترويا ولبس القبعة ورسم إشارة الصليب ثلاثا على القبر
ثم دلف بخطوات متزنة ثابتة على أنه مع ذلك لم يكن
ليتبين وجه الطريق . لقد تنكرت عليه معالم المدفن وهو
العليم بها واختلطت عليه فضل السبيل

وعند مفترق المسالك وقف جامدا فى مكانه وهو
يضحك : « ضللت السبيل »

وطالت وقفته برهة ثم عرج من غير تفكير الى يساره
ذلك أنه ما كان ليطبق الوقوف هنا جامدا ينتظر . لقد
انحدر الى اليسار وتبعه الصمت على الاثر . ان الصمت
فى أثره يخرج من اللحد المعشوشبة وتنفس عنه الصلبان
الداكنة المتجهمـة وتتصاعد هبوات دقيقة خائفة من الارض
المتشعبة برمم الموتى والاب اجناتى يضاعف خطاه مسرعا .
لقد سدر بصره وذهل عن نفسه فهو يطوف فى المسالك
بعينها المرة بعد الاخرى واثبا فوق القبور متعشرا بالحواجز
متشبهنا بالاكاليل وهى من صفيح شائك الاطراف مكسو
فيتمزق قماشها الرقيق الناعم فى يديه . انه ذاهل لا يلوى
الا على شىء واحد : الخروج من هذا المكان . فهو يندفع
من ناحية الى أخرى فى كل صوت وأخيرا أنطلق يعدو فى
سكون سبعا مديد القامة لا تكاد تتعرفه فى برنسه الخافق
وراءه وشعره المتهدل مرسل فى الهواء

ان رؤية ميت قائم من القبر لاخف هولا من ملاقة هذا
الرجل طالعا عليك بمنظره الاشعث راكضا واثبا ملوحا
بذراعيه تتبين وجهه ممسوخ السحنة مجنونها وتسمع

حشرجة أنفاسه تتدافع فى لفظ أجش من فمه الفاجر .
وانتهى الاب اجناتى وهو فى أقصى سرعته الى الرحبة
الصغيرة التى تقوم كنيسة المدفن فى طرفها متطامنة
محصصة . وكان على المقعد الطويل عند مدخلها شيخ مهوم
يلوح كالحاج من بعيد ، والى مقربة منه امرأتان من
العجائز المتسولات فى عراك وشجار تتلاحيان وتتياهلان .



ولما أن بلغ الاب اجناتى منزله كان الليل قد دجا
والمصباح قد أسرج فى غرفة أولجا استبانفنا
فأقبل عليها دون أن يبدل ثيابه أو ينزع قبعته الممزقة
الترربة وترامى على قدمى زوجته راكعا وهتف منتحبا :
« أيتها الام - أولجا - رحماك رقى لحالى أكاد أفقد
صوابى » . . .

وضرب حافة المائدة برأسه وارفع له عويل صاخب
وجيع شأن الكظيم ينتحب لأول مرة . ثم رفع رأسه وهو
على يقين جازم من وشك وقوع معجزة بعد ذلك فتكلم
زوجته وترق لحاله : « يا زوجتى العزيزة »

وأقبل عليها بكل جسمه الضخم ضارعا اليها مستعظفا
اياها فالتقى بالنظرة الشاخصة من عينيها السوداوين ولم
يكن فيهما رحمة ولا نقمة . . أو قد صفحت عنه زوجته
ورقت لحاله ؟ ولكن عينيها لا رحمة فيهما ولا مغفرة . انهما
على حالهما خرساوان صامتتان . .

والبيت كله موحش ، صامت . . !

فهرس

صفحة

الاساطير

٨ ميلاد ربة الجمال
١٥ هيلين « فاتنة طروادة »
٣١ شهر زاد

التاريخ

٤٨ سلامبو عذراء قرطاجة
٩٧ حورية الغابة « مدام بومبادور »

القصص العالمى

١ - من القصص الاسباني :

١١٠ كلمة تعريف بالمؤلف الاسباني بلاسكو أبانيز
١١٢ لوان من الحب
١٢٣ ضحية العدالة

٢ - من القصص الفرنسى :

١٣١ مدام بوفارى
١٥٤ القصر المهجور

١٦٣ أرملة
١٧٠ فى ضوء القمر
١٧٨ الجنواهر

٣ - من القصص الروسى :

١٨٨ العضاض « حياة كلب »
٢٠٠ القبلة
٢١٥ جيبها
٢٢٢ نزوة هوى
٢٣١ مبارزة
٢٣٨ الصمت

وكلاء اشتراكات مجلات دارالعلم

**THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU**

**7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND.**

انجلترا :

**M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL**

البرازيل :

808.803

543

صدق

١

هذا الكتاب

نعرض هذه المجموعة تمناح من ألوان الحب ، منذ ميلاد «النور»
ربه الحب ، وذلك من خلال الاساطير التي روّتها المصورات السجدة ، عن
يونان وبلاد الرق البعيدة ... ومن خلال الوارث الى دونهما
المؤرخون عن الشخصيات البارزة قديما وحديثا ... وأخيرا وليس
أخرا ما قدمه لنا اعلام فن العصر في مختلف الامم ، من بحال
نفسية التجربة الفارسية الى انقول بها سخوس تلك العنصر المعبود
خيالية ، وهي - فيما عدا الاسماء وربما الازمنة والامكنة - أقرب من
وئاع التاريخ في الصادق والواقعية.

وقد روعي في مسلمات هذه المجموعة ، ان تم
للحب ، هذه العاطفة المركبة والطبيعة البشرية ، والمركوز
كلها من حيوان ونبات ، حتى الجماد من طريق الجاذبية
وسرى الفارئ فيما تعرضه هذه المجموعة ، الوانا
الحب ، حتى لا يكاد يشابه حبان ، لما بينهما في هذه ا
العرو ..

اما أسلوب الكتابة عند صاحب هذه المجموعة ، فما
بطائع البلاغة والدقة والجمال ..

Bibliotheca Alexandrina



0385426



١٥ قرصا